

مجموعة قصص

لوشين



لوشين

أخـذت هذه الصـورة في شانغهـاي ٢٤ أيلـول
١٩٣٠ وكان لوشين حينئذ في الخمسين من عمره

مجموعة قصص
لوشين

دار النشر باللغات الأجنبية
بكين ١٩٦٤

طبع في جمهورية الصين الشعبية

كلمة الناشر

في هذه المجموعة ثماني عشرة قصة للوشين مع مقدمة بقلمه لكتابه « دعوة الى السلاح » . والقصص التسع الأول من «يوميات مجنون» الى « اوبرا القرية » ومقدمة الكتاب « دعوة الى السلاح » كتبت ما بين ١٩١٨ و ١٩٢٢ وهي من مجموعته القصصية الأولى « دعوة الى السلاح » . أما القصص السبع الأخر من « ضحية العام الجديد » الى « الطلاق » فهي من مجموعته الثانية « تجواب » كتبت في عام ١٩٢٤ و١٩٢٥ . وقد كتبت قصة « الطيران الى القمر » و « صانع السيوف » في عام ١٩٢٦ وهما من مجموعته القصصية الثالثة و« هي حكايات قديمة تحكى من جديد » وقد كتبت ما بين ١٩٢٢ و١٩٢٥ .

ونشرت مقدمة كتاب « دعوة الى السلاح » في هذه المجموعة لأنها تلقي ضوءا على السبب الذي حمل لوشين على اختيار الأدب سلاحا في الكفاح ، وكيف أخذ يكتب القصص القصيرة . ومقال « حياة لوشين وقصصه القصيرة » لـ « يه ئي تشون » بما فيه من معلومات عن لوشين والاطار التاريخي لكتابته يساعد القراء على تفهم هذه القصص .

فهرس

حياة لوشين وقصصه القصيرة

بقلم: يه ئي تشون (١)

— ١ —

لوشين هو مؤسس الأدب الشعبي الواقعي الجديد في الصين ، والكاتب الذي بذل قصاراه لتهيئة الطريق لأدب الواقعية الاشتراكية في الصين .

وقد ارتبطت حياة لوشين كلها ، من البداية حتى النهاية ، بالثورة الصينية . وتأثر تأثرا عميقا بمد الحركة الثورية وجزرها ، وعبر في كتاباته تعبيرا قويا عن تجربته كلها . هذا هو السبب في ان كتاباته هي انعكاس صادق للثورة الصينية ؛ لأن مختلف مراحل هذه الثورة التي فهمها لوشين فهماً جيداً ، تشكل الموضوع الرئيس لكتاباته .

ولد لوشين في شاو شينغ في ٢٥ أيلول عام ١٨٨١ ،

---

(١) سكرتير فرع شانغهاي لاتحاد الكتاب الصينيين ، وعضو هيئة تحرير مجلة « أدب شانغهاي » و« المجلة الأدبية » وعضو معهد الابحاث الأدبية في اكاديمية العلوم الصينية .

وشاوشينغ بلدة صغيرة جميلة في جنوب اليانغتسي واذذاك كان قد انقضى زهاء اربعين عاما منذ ان بدأ المستعمرون الاوربيون يعتدون على الصين ، وكان المجتمع الاقطاعي القديم آخذا في التحول تدريجيا الى مجتمع شبه اقطاعي وشبه مستعمر . وكانت شاوشينغ المركز الاداري للولاية خلال عهد ملوك تشينغ . وكان البحر يمتد الى شمالها وجبال كويتشي الشهيرة الى جنوبها ، وتخترق اراضيها شبكة من الجداول والبحيرات ، وبذلك كانت مشهورة بجمالها الطبيعي .

كان تشوبو ثي والد لوشين مثقفا من الطراز القديم ، أما أمه لو جوي فهي فتاة قروية . وكان لوشين في طفولته يحب العيش مع جدته لأمه حيث أصبح في بيتها صديقا لكثير من الاولاد .

وكان الفلاحون في ذلك المجتمع شبه الاقطاعي وشبه المستعمر يئنون تحت الجور الثقيل ، وقد تركت ظروفهم الشقية في نفس لوشين أثرا عميقا من الألم .

وبوفاة والد لوشين ، بعد أن ألمّ به المرض زمنا طويلا ، عانت عائلته إملاقا قاسياً حتى لم يكن لديها من المال ما يكفي لتدريس أبنائها . وقد ترك لوشين داره وهو في سن الثامنة عشرة ليدخل كلية في نانكين كانت الحكومة تساعدها ماليا . وهناك درس العلوم التي وفدت الى الصين من الغرب .

حدث ذلك بعد فشل حركة الاصلاح التي حدثت في عام ١٨٩٨ ، بوقت قصير — وهي حركة كانت تهدف الى اقامة ملكية دستورية — وبعد قمع حركة ثي هو توان بوقت وجيز —

وهي حركة شعبية لمناهضة العدوان الأجنبي الذي قامت به الجيوش المتحالفة للدول الثماني (١) عام ١٩٠٠ ، وفي عام ١٩٠١ وفي حينه وقعت حكومة تشينغ « بروتوكولا » ملحق معاهدة ، لتهدئة المستعمرين ، متنازلة عن كثير من حقوق السيادة الى الدول الاجنبية . لذلك أصبحت الصين بسبب هذا « البروتوكول » شبه مستعمرة لا تجد لها مخرجا . وكان لوشين في ايام دراسته ممتلىء النفس باحساس وطني عميق ، وبرغبة جدية في ان يجد سبيلا لخدمة وطنه . وخلال هذه الفترة بدأ يدرس مختلف الدراسات الفكرية ومنها نظرية النشوء لداروين وهكسلي ، فضلا عن دراسة المؤلفات السياسية التي تبحث عن الديموقراطية .

وفي عام ١٩٠٢ سافر لوشين ليدرس في اليابان . فدخل باديء بدء كلية طبية قاصدا تزويد نفسه بالمعرفة العلمية لمعالجة امراض أبناء وطنه . بيد أنه ، اثناء الحرب الروسية اليابانية شاهد فلما يظهر فيه صيني قوي معافى شد اليابانيون وثاقه ليقطعوا عنقه ، بينما كان هناك صينيون يراقبونه دون أن يبدوعليهم اي تأثر من ألم اواسستنكار وكانوا يلوحون في خمول تام ... وهذا

---

(١) في عام ١٩٠٠ سلح القرويون والمدنيون في شمالي الصين أنفسهم لمعارضة الاستعمار واصبحت هذه المعارضة حركة شعبية واسعة النطاق – حركة ئي هو توان . وعقب ذلك نظمت الدول الاستعمارية الثماني المتحالفة – بريطانيا ، أميركا ، اليابان ، المانيا ، روسيا ، فرنسا ، ايطاليا ، النمسا – جيوشا عدوانية احتلت بكين وتيانتسين وداست ارض الصين بصورة وحشية وقمعت هذه الحركة بمذبحة دموية واجبرت حكومة تشينغ على توقيع معاهدة مهينة في سنة ١٩١١ .

المنظر قد أقنع لوشين بأن الطب ليس حاجة اكثر أهمية بالنسبة لشعب ضعيف مضطهد ؛ وأن الشيء الرئيس في حياته هو تغيير ما في نفسه ، وكان يرى أن الأدب خير أداة للقيام بذلك . ولهذا هجر دراساته الطبية ، وكرس نفسه للأدب . و في عام ١٩٠٨ وهو في طوكيو انضم الى « رابطة كوانغ فو » التي كانت تعمل من أجل ثورة ديموقراطية .

ثم عاد لوشين الى الصين عام ١٩٠٩ . وفي تشرين الأول ١٩١١ اندلعت اول ثورة ديموقراطية مسلحة في الصين ، وطوح بحكومة المانشو . وكان لوشين آنذاك رئيس الدراسات في مدرسة شاو شينغ المتوسطة فنظم فصائل مسلحة من الطلاب ليسيروا في الشوارع ويشرحوا اهمية الثورة .

وبعد انتهاء ثورة ١٩١١ بوقت قصير عمل في وزارة التعليم والتربية. وفي عام ١٩١٢ انتقل مع الحكومة من نانكين الى بكين . وكان فيها حين نصب يوان شيه كاي (١) نفسه امبراطورا عام ١٩١٥ ،

---

(١) كان يوان شيه كاي رئيس أمراء الحرب في شمالي الصين ، في أواخر عهد اسرة تشينغ الملكية وبعد ثورة ١٩١١ سقطت أسرة تشينغ الملكية ، وبالنتيجة استند يوان الى تأييد القوى العسكرية الرجعية والاستعمار كما استغل تردد البرجوازية التي كانت تقود الثورة وحينئذ احتل مكانة رئيس الجمهورية وفي ١٢ كانون الاول ١٩١٥ نصب نفسه امبراطورا وفي نفس الشهر اندلعت في يونان انتفاضة المعارضة ليوان شيه كاي التي كان يقودها تساي غو وانصاره واحرزوا تأييداً وتلبية من جميع انحاء البلاد فاضطر يوان الى انتزاع لقب الامبراطور في ٢٢ آذار ١٩١٦ وفي حزيران مات في بكين .

وأثناء محاولة تشانغ شون (١) بعث الملكية عام ١٩١٦ . وقد أحزنه فشل الثورة البرجوازية الديموقراطية ، وولّد الاشمئزاز في نفسه .

وكان انتصار ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ حافزا شعب الصين المضطهد بقوة الى النهوض ، وبدأ المثقفون الصينيون التقدميون يتعرفون على تجربة هذه الثورة ، ويدرسون الماركسية . وقد أظهر هؤلاء الماركسيون الاوائل للوشين أول اشراقة عصر جديد جارفين يأسه وقنوطه . وقصة « يوميات مجنون » التي ظهرت في أيار سنة ١٩١٨ كانت اول ابداع للادب الجديد كما كانت تحديا كليا للاقطاع ، وقد وضعت اساسا متينا لأدب الصين الجديد . وأتبعها بقصة « كونغ ئي تشي » و « دواء » وقصص أخرى فضلا عن عدد من المقالات الكفاحيات (جمعت فيما بعد بمجموعة « الهواء الحار») .

في الرابع من أيار سنة ١٩١٩ ، وتحت قيادة الماركسيين الأوائل قام الشبان المثقفون بحركة وطنية شعبية لمناهضة الاستعمار والاقطاع . وقد وصلت هذه الحركة الوطنية بسرعة من بكين الى شانغهاي

---

(١) في ١٩١٧ وبعد نقاش سري مع كانغ يووي رئيس حزب المحافظة على النظام الامبراطوري قاد تشانغ شون الحاكم العسكري في أنهوي قواته الى بكين منتهزاً فرصة المشاجرة بين لي يوان خون وتوان تسي تشوي وهما أميران من امراء الحرب في شمالي الصين وأعلن تشانغ شون في أول تموز تأييده لارتقاء الامبراطور سيوان تون العرش ثانية ، كما أعلن عن اعادة التقويم الامبراطوري . غير ان هذه الحركة الرجعية قد تعرضت إلى مقاومة شديدة من قبل الأوساط المختلفة فباءت بالفشل بعد وقت قصير .

والاجزاء الاخرى من الصين . وشهد اليوم الثالث من حزيران اضرابا قام به زهاء ٧٠٠٠٠ عامل من عمال شانغهاي تأييدا للحركة الوطنية في بكين ، واحتجاجا على اضطهاد حكومة امراء الحرب الطلاب . ان هذه الحركات الوطنية التي شملت الامة كلها قد حققت نجاحا في اقامة جبهة متحدة قوية ضد الاستعمار وحفزت ايضا على قيام ثورة ثقافية معادية للاقطاع ، وثورة ادبية . وكانت شعائر تلك الفترة « فلتسقط الأخلاق القديمة البالية ، ولتحيا الأخلاق الجديدة المشرقة ! » ، « ليسقط الادب القديم الرجعي ، وليحيا الأدب التقدمي الجديد ! » وقد وقف لوشين متحمساً الى جانب الماركسيين في طليعة الحركة الثقافية ، رافعا الى الأعلى راية الثورة ضد الاستعمار والاقطاع داعيا الى ثورة جديدة في الثقافة والادب . واصبح بهدى الماركسية ديموقراطيا ثوريا .

وخلال حركة « ٤ أيار » كان لوشين يعمل مع هيئة تحرير مجلة « الشباب الجديد » التي كانت تقوم بحملة نشيطة من أجل ثورة ثقافية ، وثورة في الأدب . وقد جعله هذا العمل على صلة وثيقة بـ « لي تا تشاو » احد مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني . وشاركه في معارضة الليبرالية البرجوازية ، واتجاهات الاصلاحيين والمساومة التي نادى بها هوشي المثقف البرجوازي . ففي نهاية عام ١٩٢٠ كتب هوشي الى هيئة تحرير « الشباب الجديد » اقتراحا بأن تعود المجلة الى سياستها الأولى في الامتناع عن اي مناقشة في السياسة وان تصدر بيانا في هذا الصدد . وقد عارض لوشين ولي تاتشاو هذا الاقتراح الذي كان يعني الاستسلام الى القوى

الرجعية. وهنا حصل انشقاق في الاراء وقال لوشين : « انه ليبدولي ان الاتجاه الحالي لمجلة الشباب الجديد ، مفض الى الانشقاق ، ولكننا لن نصر على ردم الثغرة . . . فدعونا ننشق . أما بشأن اصدار بيان يعلن فيه ابتعادنا عن السياسة ، فلا أرى حاجة لذلك . » لقد كان موقف لوشين السياسي واضحا .

كتب لوشين خلال حركة الرابع من أيار سنة ١٩١٩ وحركة الثلاثين من أيارسنة ١٩٢٥ (١) قصة « الغد » و « عاصفة في فنجان » و « بيتي القديم » و « قصة آه كيو الحقيقية » و « اوبرا القرية » و « ضحية العام الجديد » و « في حانة النبيذ » و « عائلة سعيدة » و « صابونة » و « كاره البشر » و « أسف على الماضي » و « الطلاق » فضلا عن مقالات كثيرة . وقد جمعت هذه الكتابات بعد ذلك في « دعوة الى السلاح » و « تجواب » و « هواء حار » و « حظ سيء » و « نوار الفجر تقطف في الغبش » وكانت هذه القصص المجد الرئيس لأدب الصين الواقعي الجديد .

وبعد حركة الثلاثين من أيار سنة ١٩٢٥ كسبت المعارضة للاستعمار قوة زخم . وكانت هذه المعارضة تجري على نطاق الأمة . وفي ١٨ آذار سنة ١٩٢٦ حصلت تظاهرة في بكين اشترك فيها اكثر من ٣٠٠٠٠ شخص احتجاجا على التدخل الاستعماري في الصين لاثارة حرب اهلية . وقد اطلق الرصاص على المتظاهرين أمام دار الحكومة ، وقتل وجرح اكثر من مائتي شخص .

---

(١) في ٣٠ أيار سنة ١٩٢٥ انطلق صوت الاحتجاج من انحاء الصين على قتل البوليس البريطاني الصينيين في شانغهاي .

وقد وقف لوشين من البداية حتى النهاية في طليعة هذا النضال لمعارضة المذبحة الرهيبة التي قام بها امراء الحرب العسكريون الذين خانوا الصين ، ولمناوئة اضطهاد رجال الثقافة الانتهازيين للطلاب الوطنيين . ومنذ ذلك الحين اصدرت حكومة امراء الحرب امر اعتقاله حتى اضطر في آب سنة ١٩٢٦ الى ترك بكين ملتجئا الى آموي . وفي كانون الثاني سنة ١٩٢٧ سافر الى كانتون . وبعض كتاباته في « العشب البري » و « نوار الفجر يقطف في الغبش » تعود الى ذلك التاريخ ، وكذلك قصتاه المستندتان على الاساطير « الطيران الى القمر » و « صانع السيوف » .

وكان ذلك في فترة حملة الشمال التي نظمها الحزب الشيوعي الصيني بالمشاركة مع الكومينتانغ . وكان الجيش الثوري قد استولى استيلاء كاملا ، على ووهان ، وتشانغشا ، وكوييانغ ، ونانتشانغ ، وخانتشو . وفي ٢١ آذار سنة ١٩٢٧ نهض ٨٠٠٠٠٠ عامل من عمال شانغهاي تحت قيادة الحزب الشيوعي في انتفاضة مسلحة لطرد قوات امراء الحرب ، والترحيب بجيش حملة الشمال . وبعد ثلاثة أيام احتل الجيش الثوري نانكين . ولكن الجناح اليميني من الكومينتانغ بقيادة تشيانغ كاي شيك ، وبتأييد من المستعمرين قام في شانغهاي في ١٢ نيسان سنة ١٩٢٧ بانقلاب معاد للثورة . وهكذا انتهت ثورة سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٧ بالفشل . وقد استقبل الطلاب لوشين لدى وصوله الى كانتون بترحاب حار . وعندما كان يدرس في جامعة « صون يات صن » كان يحتفظ بصلات مع كثير من الثوريين الشبان . بيد ان مذبحة أخرى حصلت في كانتون

أيضا ضد الثوريين الشبان في ١٥ نيسان سنة ١٩٢٧ بعد خيانة تشيانغ كاي شيك للثورة .

كان لوشين قبل حركة الرابع من ايار يؤمن بنظرية النشوء وتحرير الفرد . وبعد حركة الرابع من أيار كان متأثراً بالماركسية فساعده هذا بالامتزاج مع تجربته الخاصة في الكفاح السياسي على أن ينقل فكرة التطور في نظرية النشوء ، ويستخدمها في مراقبته للمجتمع . وقد عارض بشدة كل ما هوبال وفاسد في المجتمع الاقطاعي القديم ، مؤمنا بان ما هوجديد سينتصر في النهاية . واخذ يسوط الكهنوتية الاقطاعية ، والاستعمار وامراء الحرب والبيروقراطيين الرجعيين وعملاءهم على اختلافهم . وكان موقنا بان المستقبل سيكون افضل من الماضي والشباب اليانع الزاهر أفضل من الشيخوخة اليائسة المظلمة . وهكذا اخذ يتملكه ادراك « مادي للتطور الاجتماعي . وبعد انقلاب سنة ١٩٢٧ أدرك ان هناك ثوريين ومعادين للثورة بين الشبان ، وان اعداء الثورة الذين يعملون مخبرين ، او يساعدون السلطات على القاء القبض ، ما هم الا قساة ومحتقرون كسادتهم وقد قوّض ذلك ايمان لوشين بنظرية النشوء ، واحل محلها بالتدريج موقفا طبقيا فجعل يؤمن بان « المستقبل هو للبروليتاريا الناهضة وحدها » . وبعبارة اخرى انه اصبح مؤمنا بوجهة النظر الطبقية للمادية التاريخية .

في تشرين الاول سنة ١٩٢٧ انتقل لوشين الى شانغهاي ولما كان تيار الثورة في جزر فقد كانت تلك الفترة عسيرة على الثوريين ومحفوفة بالاخطار . وفي ذلك العهد قام لوشين بدراسة دقيقة

للنظريات الماركسية عن الفن . كما جذب حوله الكتاب التقدميين الشبان من امثال جوشيه وين فو ليستخدم الادب سلاحا ضد الكتاب البرجوازيين الرجعيين ، وضد الادب الرجعي .

وفي ربيع سنة ١٩٣٠ وتحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني شكل لوشين والكتاب الثوريون الآخرون جبهة متحدة للادب الثوري — هي رابطة الكتاب اليساريين في الصين . وقد اصبح لوشين حامل الراية في هذه الرابطة . وبين عام ١٩٣٠ و ١٩٣٦ حارب لوشين بتوجيه الحزب ومساعدة كثير من الكتاب الثوريين الشبان الاجراءات التعسفية لحكومة الكومينتانغ . وشن مع اعوانه حركة واسعة ضد الادب الرجعي وعمل بعناء لايصال الادب للشعب ، وتشجيع فن الخشب المقطوع كشكل شعبي للفن التخطيطي . كما شنوا معركة اثر معركة ضد « جمعية الهلال » ، وهي زمرة ادبية برجوازية يمينية ، وضد الكتاب « القوميين » الذين يعملون للرجعيين الكومينتانغيين ، والذين يدعون الى « الحرية في الكتابة » . وفي الوقت الذي يعترفون فيه بانهم ثوريون ينكرون الطبيعة الطبقية للادب وكذلك ضد ما يسمون بـ « الفئة الثالثة » . وقد كان لوشين البطل في كل ذلك الكفاح . وبفضل الهزيمة التي الحقها بأولئك الرجعيين الذين هاجموا الادب الثوري أصبح الادب الثوري للبروليتاريا الادب الوحيد في الصين في ذلك الحين .

ومابين عام ١٩٣١ و١٩٣٣ اصبح لوشين صديقا حميما لـ « تشيوكيوباي » ، احد قادة الحزب الشيوعي الصيني . وقد كافح الرجلان معا ضد « الفئة الثالثة » ورجال الادب البرجوازيين

الذين ينادون بـ « الحرية في الكتابة » ونقلا وفسرا معاً النظرية الماركسية في الفن . وقد قام تشيوكيو باي ايضا بدراسة مقالات لوشين وصنف مجموعة مختارة منها ، وكتب مقدمة لم تكتف باعطاء تحليل نظامي نافذ لتطور لوشين الفكري ، بل اشارت ايضا الى دوره المهم في تاريخ معركة الأفكار في الصين . وقد كانت هذه مشجعة وحافزة للوشين ومساعدة له على ان يرى بوضوح اكثر دوره في الكفاح ، والاخطاء في نظراته ، والهدف الذي ينبغي ان يكافح من أجله . وكان التأييد الذي قدمه تشيوكيو باي للوشين تعبيرا عن التقدير الرفيع والاهتمام الذي يكنه الحزب له . وبتشجيع الحزب كان يمارس لوشين باستمرار اشد انواع النضال صعوبة ، واكثرها تعقيدا . فأصبح محاربا من اجل الشيوعية . وأصبح اصدق واشجع واصلب حامل راية في الثورة الثقافية الصينية واحد عظماء المفكرين والكتاب المعاصرين في الصين .

وخلال تلك الفترة خاض لوشين معارك النضال بلا كلل مستخدما مقالاته سلاحا ايديولوجيا حادا ، فاضحا به جرائم الرجعيين الكومينتانغيين ، رافعا بحماس راية ثورية شعبية لخلق مد ثوري جديد في الثورة الثقافية . ويمكن الرجوع الى مقالات هذه السنوات الثلاث في مجموعة « مقالات تشيه تشيه تينغ » ومجموعات اخرى.

وفي اوائل تشرين الاول عام ١٩٣٥ أكمل الجيش الأحمر الصيني للعمال والفلاحين المسيرة الكبرى بنجاح تحت القيادة الحكيمة للجنة الحزب المركزية برئاسة الرفيق ماو تسي تونغ ، وأسس قاعدة ثورية في شمال شنسي . وما ان بلغت هذه الأنباء شانغهاي حتى

ارسل لوشين وماوتون معا برقية تهنئة اعلنا فيها : « ان أمل الشعب الصيني بأسره مركز فيكم . »

وفي أثناء ذلك كان المستعمرون اليابانيون يوغلون في اعتدائهم على الصين خطوة بعد خطـوة . وفي ٩ كانون الاول سنة ١٩٣٥ قام أكثر من ٨٠٠٠ طالب في بكين تحت قيادة الحزب بحركة وطنية جديدة مطالبين بأن توقف حكومة الكومينتانغ الحرب الأهلية ضد الشيوعيين ، وبان توحد جميع القوات لمقاومة اليابان . ففتكت سلطات الكومينتانغ بهؤلاء الوطنيين العزل من السلاح ، واعتقلت قسما كبيرا منهم وعندئذ قامت موجة سخط عظيمة في كل البلاد . وتبعت ذلك حركة شعبية لمقاومة اليابان وانقاذ الصين . واستجابة لنداء الحزب قام الكتاب ورجال الثقافة في شانغهاي بحل منظمات ثورية مثل رابطة الكتاب اليساريين الصينيين لتأليف جبهة متحدة وطنية ضد اليابان ، ولتأييد الحركة الشعبية ورغم أن لوشين كان في ذلك الحين يعاني مرضا شـديدا فقد أسهـم بدور فعال في هذا العمل ، وجند كثيرا من المؤيدين الآخرين .

وفي ١٩ تشرين الاول سنة ١٩٣٦ مات لوشين بعد مرض طويل ، وتقاطر لتشييع جثمانه اكثر من ١٠٠٠٠ شخص من مختلف مناحي الحياة ، محولين حزنهم على موته الى تظاهرة وطنية ضد العدوان الياباني .

— ٢ —

لقد كان لوشين كاتبا واقعياً مكافحاً عارض بقوة وحماس

ان تكون القصص لـ « محض المتعة » واراد منها ان تعكس « الحياة الحقيقية . . . الكفاح الفعلي المتحرك . . . النبضات الخفّاقة والعاطفة والافكار » – « حول حركتنا الأدبية المعاصرة » . وقد آمن بان « عمل الكاتب هو تقديم اوصاف حساسة للمجتمع واذا ما أدي هذا بقوة فسيؤثر بدوره في المجتمع ، ويحدث التغيرات . »

ومعظم قصصه كتبت ما بين عام ١٩١٨ وعام ١٩٢٥ . وهذه هي الفترة الاولى للثورة الصينية الحديثة ؛ زمن حركة الرابع من أيار التي قادها الماركسيون الأوائل . وتأسيس الحزب الشيوعي الصيني والحركة الشعبية ضد الاستعمار ، وحركة الثلاثين من أيار التي لعبت فيها الطبقة العاملة دورا رئيساً . وفي أثناء ظهور هذه الأحداث التاريخية المهمة وكثير غيرها ، واندلاع الحرب الاهلية الثورية الأولى . . . في خلال ذلك أصبح لوشين متمرسا بالنضال الثوري . وبدأ يتأثر بالافكار الاشتراكية . وقد اختار موقفا مكافحا غير مهادن ازاء المجتمع شبه الاقطاعي وشبه المستعمر. واكثر قصصه تعالج الحياة من زمن ثورة عام١٩١١ الى حركة الرابع من أيار . وقد قال « ان موضوعاتي هي في الغالب عن التعساء في هذا المجتمع الممقوت . . . لأوجه الانظار اليهم » – « كيف اصبحت اكتب القصص » . وقصته الاولى « يوميات مجنون » هي بمثابة اعلان حرب على الاقطاع ، وقد وضع على لسان المجنون هذه الكلمات « حاولت ان انقب عن ذلك ، غير ان كتاب التاريخ الذي أملكه ليس مسلسلا في حوادثه وكلمات ' الفضيلة والاخلاق ' ملأت كل الكتاب . . . ثم امعنت النظر الى ما وراء

الكلمات فوجدت كل الكتاب ممتلئا بهاتين الكلمتين 'كلوا البشر'. »

والتاريخ الذي يعنيه هو التاريخ الطويل للمجتمع الاقطاعي في الصين . وفي هذا المجتمع الاقطاعي المتفسخ الذي دام آلاف السنين كان مايسمى بـ « الفضيلة والاخلاق » لا شيء غير لافتات خادعات تزين بيوت الطبقة الحاكمة ، واسلحة يمكن ان يقتل المضطهد بها دون ان يراق دم .

في هذا المجتمع كان « اكل البشـر يجري منذ القدم » . وقد صرح لوشين بوضوح في هذه القصة بعد ان آمن بأن مجتمعا كهذا ينبغي ان يصلح « يجب ان تعلموا ان ليس هناك في المستقبل مكان في العالم لأكلة لحوم البشر. »

وكان لوشين يكن في نفسه حباً عميقاً نحو « تعساء » الصين شبه الاقطاعية وشبه المستعمرة ويعطف عليها وطبيعي ودون ريب ان الفلاحات والفلاحين كانوا يحتلون المكان البارز بين « التعساء » . ذلك لأن هؤلاء الفقراء في الصين الاقطاعية كانوا الطبقة التي وقع عليها أبشع انواع الاستثمار والاستغلال والنساء الفقيرات في الريف هن ادنى هذه الطبقة وأكثرها بؤسا . ان آه كيو فلاح فقيـربلا ارض . وجون تو في قصة « بيتي القديم » فلاح بسيط كدود تعذب طويلا دون « ان يكون له شيء يأكله » . وزوجة شيانغ لين في قصة « ضحية العام الجديد » التي اختطف زوجها وابنها كانت نهايتها قاسية ، فقد اهملت وفي نفسها احساس بالذنب حتى اصبحت في آخر الأمر شحاذة ، ونبذت فماتت ميتة مجهولة . وآي كو الشجاعة في قصة « الطلاق » تلك الفتاة الراغبة في ان تخاطر بحياتها

اضطرت آخر الأمر الى ان تخضع لوطأة السلطة الاقطاعية اللئيمة المفزعة . . . وهذه الشخصيات الحية تعيش في اذهان القراء الصينيين لأنها تعكس معالم الريف الصيني البائسة من زمن ثورة عام ١٩١١ حتى تأسيس الحزب الشيوعي الصيني . وكان للوشين تعاطف ثوري انساني مع هذه الشخصيات وكان قلمه يطفح عاطفة فياضة لانه قد تأثر أعمق التأثر بمصيرهم التعيس . لقد وجه — وذلك حق — اشد النقد للبلادة والجمود اللذين يتصف بهما هؤلاء الناس الذين اصبحت سجاياهم « شاحبة » و « مسحوقة » تحت رحى طاحونة « الفضيلة والاخلاق » التي صنعتها الطبقة الحاكمة كما هي الحال مع آه كيو والشاب « د » . وليس ذلك سخرية بهم على اية حال ، بل غضبا لهم تعوزهم معرفة وجوب النضال وتنقصهم الشجاعة ليقاوموا . وكان الاشفاق على مصيرهم القاسي والغضب على قصورهم الذاتي هما سببان اساسيان في رد الفعل بنفس لوشين ازاء الفلاحين الفقراء الذين لم يصبحوا واعين سياسيا بعد . وهو غالبا ما يعبر كذلك عن الأمل الواثق بأن مستقبلا افضل ينتظرهم . وهكذا يقول في قصة « بيتي القديم » « لابد من ان تكون لهم حياة جديدة ، حياة لم نجربها نحن . . . فالواقع ان الأرض لم تكن فيها طرقات منذ البداية ، ولكن حين يسير كثير من الناس في اتجاه واحد يصنع الطريق . » وكان يتطلع بلهفة الى يقظة اولئك « التعساء » والى الزمن الذي سيجمعون فيه قواهم ليشقوا طريقا لم يخلقه احد من قبل ، وليخلقوا حياة جديدة لأنفسهم .

والفئة الثانية من « التعساء » الذين وصفهم لوشين هم سكان المدن المستعبدون المسحوقون الذين يعيشون في ظروف وضيعة مثل الارملة زوجة « تان الرابع » في قصة « الغد » تلك المرأة التي كانت تعيل نفسها وابنها الصغير بالغزل ، او تشوان العجوز الذي كان يدير مع زوجته مشربا للشاي صغيراً . فهؤلاء أناس رؤوفون كدودون شرفاء يحبون اطفالهم ويتجاوبون مع متاعب الآخرين . غير انهم في ذلك المجتمع الفظيع الذي يفترس فيه الناس بعضهم بعضا لاقوة لهم لحماية اطفالهم . وحين يصيب المرض طفلا فليس لديهم معرفة طبية ، ولا مهارة في التمريض ، لأن اذهانهم قد خدرتها طلاسيم الاقطاع . فكانوا يتخلون عن كل ما ادخروه انقاذا لاطفالهم مخدوعين بأكاذيب الحكام وخدامهم . ومع ذلك فان أطفالهم يموتون ، فيهجم البياض الى شعورهم سريعا ، ويجدون دورهم صامتة فارغة على نحو لا يطاق ، وهم لا يستطيعون فهم السبب في خسارتهم ، ولا يحاولون ان يحللوا سبب فشلهم . . . ورغم ان لوشين يعطف عليهم الا أنه لايرى مخرجا لهم ، فكان يهدئهم فقط بالأمل في ان « الليل المتلهف الى ان يصبح صبحا مشرقا كان يرحل في صمت » . وكان يؤمن بان يوما جديدا سيطلع فجره حتما جالبا معه حياة جديدة لأولئك « التعساء » .

اما موقف لوشين من المثقفين سواء أكانوا من المدرسة القديمة ام الحديثة ، خلال تلك السنين من التقدم السريع فنجد فيه النقد اكثر من العطف . ان كونغ ئي تشي الذي دربه رجال العلم الاقطاعيون ، ونبذوه فيما بعد يستعمل الانماط القديمة

الكلاسيكية من الكلام . ورغم انه لص حقير فانه ما يزال يعتبر نفسه « مهذبا » ولا يستطيع ان ينقذ نفسه بالتخلي عن قفطانه القذر البالي الطويل — وهو سمة العالم . وقد كسرت ساقاه لأنه سرق ، وكان عليه ان يزحف على يديه وركبتيه حتى اختفى آخر الأمر من عالم هازئ دون ان يفطن اليه احد .

و « لو وي فو » في قصة « في حانة النبيذ » رجل له بعض الذكاء كان يدرس في زمن يقارب زمن ثورة عام ١٩١١ . ولأنه شاب كانت له مثله العليا ، وكان يريد ان يعيش لغاية مجدية ، غير انه بعد ادعاء يوان شيه كاي للعرش ، ومحاولة تشانغ شون لاعادة الملكية ، والتيار المضاد الذي اعقب حركة الرابع من ايار سلم نفسه طائعاً للآخرين ، وأخذ يكسب رزقه من تعليم الاطفال الكلاسيكيات الكونفوشيوسية . ومثل ذبابة ترك موضعه الأصلي ليدور دورة صغيرة ويعود ثانية . وكان لا يجرؤ على التفكير بالمستقبل ، ولا بما سيكون هو نفسه ، ولا بما يجلب اليه الغد .

و« وي لين شو » في قصة « كاره البشر » قد درس العلم في الخارج وهو يؤمن بأن « الاطفال دائما طيبون . . . وأن أمل الصين الوحيد منوط بهم . » وكان يعرف بـ « العصري » و « الراديكالي » وينشر دائما « الاقوال الغريبة » ولكنه لافتقاره الى فلسفة سليمة وادراك واضح للعالم تبدأ الشكوك تخامره ، ويصبح بالتدريج كارها للبشر . وفي النهاية يصبح « محترما » بعد أن يبيع نفسه للعدو — الطبقة الحاكمة للمجتمع القديم . « انني الآن أفعل ماكنت أكرهه في الماضي وأعارضه . انني الآن أتخلى

عن كل ما آمنت وتمسكت به في الماضي . » فهو يصبح مستشارا لأمير من أمراء الحرب ، ويعيش عيشة متفسخة ، ويلعب « الماهجونغ » ويشرب الخمر ، ويشتم الفقراء والشيوخ ، ويحتقر الأطفال غيز السعداء . . . ولكنه يمرض وهو يعاني العذاب الروحي ويموت .

و «تشوان شنغ» في قصة « أسف على الماضي » مثقف نموذجي — جبانٍ ومنافق وضعيف . وكان يتشدق بطريقة فخورة عن « طغيان العائلة ، والحاجة الى تحطيم التقاليد ، ومساواة الرجل بالمرأة » وعن ابسن ، وطاغور وشيللي . غير انه لم يطبق ما يعظ به . فقد بقي جبانا أنانيا . فان وحدته قد حملته على ان يطلب الود من فتاة جريئة — هي تسو تشون . ولكنها بعد ان قدمت له الحب الاصيل الخالص أسف على خسارة الاتصالات الاجتماعية وعزا كل متاعبه اليها ، واعتقد بأنه اذا تخلص منها فسيكون في وسعه ان يبدأ بداية جديدة ، وينهض في العالم وهكذا يهجر تسو تشون . وتموت تسو تشون التي رفضت بجرأة ان تساوم المجتمع القديم ، تموت بين الجهامة والنظرات الباردة . وهو يدعي بأنه يتعذب من تبكيت الضمير ومن الحزن . غير انما يسميها بداية جديدة في الحياة قد جاءت عن طريق النسيان والكذب . ولم يكن لوشين يضمر غير الاحتقار للمثقفين الجبناء الانانيين المحتالين المتقلبين من هذا النمط . ولم تأخذه ريبة في مهاجمتهم في قصصه بقسوة ، والتشهير بهم . وفي قصة « في حانة النبيذ » يكتب على لسان المتكلم ليفصل نفسه عن أمثال

لووي فو : « واذ كنت اسير وحدي نحو فندقي كانت الريح الباردة والثلج يضربان وجهي . ولكنني احسست بانتعاش . » وفي قصة « كاره البشر » يتحدث المؤلف مرة اخرى بلسان المتكلم عن مشاعره بعد تركه لـ وي لين شو : « سرت في خطى سريعة ، وكأنني مشوق الى ان أخترق حاجزا ثقيلا . ولكنني وجدت ذلك مستحيلا ان شيئا ما يتصارع في أذني ، وبعد زمن طويل وطويل جدا انفجر . لقد كان مثل عواء طويل ، عواء ذئب جريح يصرخ في البرية في اعماق الليل ، والغضب والأسف يمتزجان بعذابة . ثم شعر قلبي بترويح . » وفي قصة « أسف على الماضي » يجعل تشوان شنغ يكشف عن خلقه الحقير : « يجب ان يكسب الانسان رزقه قبل ان يكون للحب أي مكان . . . ومادمت حيا يجب ان أبدأ بداية جديدة . »

وهناك شخص واحد من بين المثقفين جميعا أزجى له لوشين مدحا اكثر من القدح . تلك هي تسو تشونفانه يصفها كطراز جديد من الفتيات شجاعة في معتقداتها . وفي البداية تصرح : « أنا سيدة نفسي . وما لأحد منهم حق في التدخل بشؤوني . » وتلك وجهة نظر ثورية بالنسبة لامرأة صينية بعد آلاف السنين من الاقطاع . وهي تتجاهل تهكمات المجتمع القديم وافتراءاته ونظراته المتفحصة : ونقاؤها وبراءتها تجعلان من المستحيل ان يظل الجبناء يحافظون على رباطة جأشهم . وحين يهجرها حبيبها لا تنسى تجمع ما تبقى من مال وطعام كيما يستطيع الرجل الذي أحبها من قبل ثم هجرها ان يحتفظ بوجوده زمنا اطول .

وهي حتى بعد ان تهجر لا تستسلم للمجتمع القديم ، ولكنها تجعل من الانتحار آخر عمل لمناوأته . ورغم ان لوشين يوضح بان احتجاج تسوتشون الشخصي لا يأتي بشيء ، فان وصفه لهذه الفتاة يقنعنا بأن المرأة الصينية ليست خاملة واننا سنراها « في المستقبل القريب تتمتع بمجد . »

وثمة مثقف شاب آخر اعجب به لوشين اعجابا شديدا هو « شيايو » في قصة « الدواء » ، ذلك الشاب الذي فقد حياته قبل ثورة عام ١٩١١ بوقت وجيز . وبالرغم من ان هذا الشاب لايظهر بالذات ، غير أن لوشين يستخدم الاوصاف غير المباشرة ليرسم له صورة لا تنسى . ان شيايو بعد اعتقاله يصر على ان يقوم بعمل ثوري وبدعاية ثورية للاطاحة بالمانشو . وبعد ان يموت ميتة بطل يضع المؤلف اكليل ازهار حمراء وبيضاء على قبره مبينا ان الاحياء لن ينسوا مهمته التي لم تتم .

ويعطينا لوشين أيضا صورا مرسومة لحياة اولئك الذين يفتكون بالآخرين في الصين شبه الاقطاعية ، شبه المستعمرة . وكان يكره أمر الكراهية ويزدري أشد الازدراء اعضاء الطبقة الحاكمة وهكذا لا يضيع السيد تشاو في « قصة آه كيو الحقيقية » فرصة شراء بضاعة مسروقة رخيصة من آه كيو رغم انه يتظاهر بالوعي وأنه يحترم الخلق الرفيع . ويطوي ابنه المعلم ضفيرته حالما يسمع بدخول الثوريين الى المدينة ، ويجعل من اللوحة الامبراطورية في المعبد موضوعا لهجومه رغم انه يحمل مبخرة ثمينة من حرم إلاهة الرحمة . ان مقلد الشيطان الاجنبي الذي درس في طوكيو ،

وقص ضفيرته يهرع الى البلدة في عشية الثورة فيشتري خوخات كثيرة فضية علامة على انه من الحزب الثوري ، ويبيعها للآخرين بربح . و في قصة « عاصفة في فنجان » نجد السيد تشاو الذي يفزع القرويين باشاعة فحواها مادام الامبراطور قد اعتلى العرش ثانية « احفظ ضفيرك ، وافقد رأسك ؛ احفظ رأسك وافقد ضفيرك . » وفي قصة « صابونة » نجد سومين الذي كان ذات مرة يؤيد فتح مزيد من المدارس وبعد ذلك صار يؤمن بوجوب غلق جميع المدارس لأن الفتيات لودرسن فان كل الاشياء تنقلب رأسا على عقب ولكنه بينما يتشدق بالكلاسيكيات الكونفوشيوسية ، وام منشيوس اذا به يشتهي متسولة شابة . وفي قصة « الطلاق » نجد السيد السابع « وهو عالم يعرف الحقيقة » ، ويظهر بمظهر بطل العدالة يضغط على آي كو ضغطا ظالما . . . وقد عرى لوشين النفوس الشريرة لهؤلاء الرجال تلك النفوس المتخفية وراء قشرة الفضيلة ، وقام بذلك بصورة مؤثرة جدا حتى ليعسر على القراء نسيان هذه الشخصيات الشريرات .

وهناك تنوع لا حصر له في شخصيات لوشين التي تمثل اناسا من مختلف الفئات في ذلك العهد .

— ٣ —

وقبل فشل ثورة عام ١٩٢٧ لم يكن للوشين موقف طبقي واضح ، ولكن حقيقة انحداره من احدى قلاع شبه الاقطاع ، وامتلاكه ادراكا عميقا للمجتمع الرازح تحت الاستعمار والاقطاع

قد مكنه ذلك من ان يميز بوضوح ما بين افراد الطبقة الحاكمة (امراء الحرب العسكريين ، الموظفين الكبار ، الكومبرادور ، والاعيان المحليين ، ورجال العلم الذين يعملون للرجعيين والعملاء والمحتالين ومن اليهم) وبين المضطهدين (ومعظمهم كان من الفلاحين أو سكان المدن الفقراء) . وقد عرف من الذي ينهش لحم الآخرين ومن الذي يؤكل لحمه . وقد عرف ايضا آثام الحكومة الاقطاعية ، وفساد العصبة الحاكمة ، وكان مؤمنا بأن « الطبقات العليا ليست بطيبة الطبقات السفلى » . ووضع حدا واضحا بين الصديق والعدو في طبقات المجتمع . وقد عبر وهو ثابت في موقفه الديمقراطي الثوري عن الكراهية للعدو ، ولم يكل قط عن مهاجمته بقلمه البتار ، معريا ضعفه ، فاضحا روحه الوضيع . ومن جهة اخرى اظهر حبه وعطفه العميقين للمضطهدين والمستثمرين في المدن والارياف ، كاشفا عن عذابهم ، مظهرا نبلهم وشجاعتهم ، معربا عن حنقه على استرقاقهم ، والتضحية بحياتهم . فما من قصة من قصصه لا تتصف بأشد قوة للملاحظة وبالموقف السياسي الواضح ، أي شيوع روح كفاحية فيها . تلك مزية تشمل جميع قصص لوشين . وهكذا نجد بطله في « قصة آه كيو الحقيقية » رجلا فقيرا فلاحا لا مأوى له ، قد سواه المجتمع القديم ارضا ، فليس له الا أن يهدأ نفسه بـ « فواق روحي » على عذابه في المجتمع القديم وذلك أسى خيبة آه كيو في المقاومة مقوضا نبله الفطري وشجاعته ، جاعلا من الصعب عليه التيقظ وادراك النضال ومعرفة اعدائه الحقيقيين . وفضلا عن ذلك فان المؤلف ،

بالنسبة لمغامرات آه كيو ، يصور سلوك ملاكي الاراضي ، الاعيان المحليين ، والموظفين وامراء الحرب العسكريين حوالي الوقت الذي وقعت فيه ثورة عام ١٩١١ . ويوضح لماذا اقتصرت حماسة الفلاحين الثورية ولماذا فشلت الثورة . تلك هي الميزة الواضحة لـ « قصة آه كيو الحقيقية » ــ العمق والرؤية الواسعة للموضوع الرئيس الذي عرض عرضا تاما .

وقصص لوشين موجزة ومحكمة لأن لوشين قد اختار الطرق الصينية التقليدية في كتابته ، والاوبرات الصينية الشعبية وصور العام الجديد تستخدم دائما طريقة « الايجاز » . وهكذا تستغني الاوبرات عن معدات المسرح والمناظر المتأنق في صنعها ، ولا تستخدم غير ستارة خلفية من قماش بسيط كي تظهر الافعال على المسرح بصورة اكثر وضوحا . وقد قال لوشين : « لقد بذلت جهدي لتجنب الافراط في الكلام . فاذا ما شعرت بأنني جعلت المعاني واضحة بما فيه الكفاية فأنا سعيد في ان أستغني عن الحواشي. فالمسرح الصيني القديم ليست له مناظر ، وصور العام الجديد التي تباع للأطفال تظهر بعض الاشكال الرئيسة فقط . وبعد ان آمنت بأن مثل هذه الطرق تلائم مبتغاي لم أطنب في التفاصيل الموضوعة في غير محلها ، واقتصرت على الحد الادنى من الحوار» ــ « كيف اصبحت أكتب القصص » ويتضح من ذلك انه استخدم الطرق الصينية التقليدية في كتاباته بحذاقة . وعلى هذا النحولم تحتو « قصة آه كيو الحقيقية » على اوصاف بناء أثاث معبد الآله الحارس أوقاعة منزل السيد تشاو او غرف الجلوس فيه

اوسرادقاته اوحداثقه . غير ان المؤلف ينقل احساسا قويا بالجو بتصويره الشخصيات تصويرا كاملا كفوءا . وفي قصة « ضحية العام الجديد » لم يكن بحاجة الى ان يصف اسلوب الحياة المترف للاقطاعي الذي تعمل له زوجة شيانغ لين فان اشارات قليلة موجزة الى الطوامير والكتب في مكتبه تعطينا صورة لنظرة الرجل وخلقه ، والمصير المحتوم الذي ينتظر زوجة شيانغ لين في مجتمع كهذا .

ولم يأخذ لوشين شخصياته قط من اناس معينين بالرغم من ان محاولات لا ثمرة فيها قد بذلت للبرهنة على ذلك . وهو يخبرنا انه في خلقه لشخصية من الشخصيات يمزج دائما صفات مختلفة لكثير من الاشخاص . فقد قال : « ان هذه الطريقة قريبة النسب بعرفنا الصيني القديم . وعلى هذا النحو حين يرسم رسامونا اشخاصا يدرسون موضوعهم حتى يتعودوا عليه . ثم بعد تفكير دقيق يرسمونه . فلم يرسموا قط من نموذج واحد . » — « حول ترك الممر » . وقد استخدم لوشين هذه الطريقة . وبرع في تلخيص تجاربه المتراكمة لمختلف مراحل الثورة الديموقراطية (من الثورة البرجوازية الديمـوقراطية الى الثورة الديموقراطية التـي قادتها البروليتـاريا) ولرجال جميع طبقات المجتمع . وخلق من كثرة التحليل والدراسة ، ومن استيعاب مادته وهضمها أنواعا كثيرة من الشخصيات النموذجية التي لها تأثير واسع . وبهذه الطريقة خلق آه كيو وزوجة شيانغ لين ، وكثير من الشخصيات الأخر . ولأن هذه الشخصيات مستقون من الحياة المألوفة لدى جميع الصينيين فان مغامراتهـم واخلاقهم

تستهوي رجال ونساء كل طبقة وهي تقدم لهم مرآة يرون فيها أنفسهم.

ان الصفة المميزة لطريقة لوشين في خلق الشخصيات هي انه يقدم اكثر الصور حيوية بالحد الأدنى من الكلمات . وقد كان لوشين معجبا كثيرا بأولئك المتفننين الذين « لا يرسمون كل تفاصيل حواجب العيـون ، بل ينقلون الروح بضربات قليلة » — اقتباسا من مقالة « العلماء يحتقر بعضهم بعضا — تعليق خامس» ويبالغون في بعض الصفات سواء أكانت فضائل أورذائل . وكان يؤمن بأن « احسن طريقة لنقل شخصية انسان بحد أدنى من الضربات هو رسم عينيه . . . فاذا رسمت كل شعررأسه ، مهما كنت دقيقا ، فليس من فائدة كبيرة في ذلك » — « كيف اصبحت اكتب القصص » . وكان بارعا في هذه الطريقة ، طريقة التلخيص والايجاز ومن هنا كانت قصصه على رغم قصرها ترسم الصور الكاملة وعلى هذا الاساس يشدد في وصفه لـ « آه كيو » على ضفيرته البنية ، وعلى ملاحظته الدائمية « هذا ابن يضرب أباه » وحين يصف عراك آه كيو يذكر اكثر من مرة كيف تمسك ضفيرته البنية ، وكيف يضـرب رأسـه في الحائط ، ومع ذلك فقد كان يقول او يفكر دائما : « هذا ابن يضرب اباه . » وهذا هو جوهر آه كيو . ويشدد لوشين في وصفه زوجة شيانغ لين على ملامح معينة من مظهرها . « كان شعرها مشدودا بشرائط بيضاء ، وكانت ترتدي تنورة سوداء ، وجاكتة زرقاء وصدرة خضراء حانية . . . وكان لها وجه شاحب ، ولكن خديها متوردان . » فقد نقل لنا ببساطة ، ولكن بصورة زاهية ، الطريقة التي كان يصور بها الفقر

والعذاب في هذه الارملة ، فبالتضاد بين « الخدين المتوردين » وبين « خداها قد فقدا لونهما » يبلغ عن التغير الحاصل بين عهود مختلفة . وهذه الامثلة تبرهن على استخدامه طريقة « رسم العيون ، دون رسم كل شعرة . »

واخيرا اطلع لوشين على التقاليد الوطنية اطلاعا واسعا فاستطاع ان يميز بمهارة ودقة بين الجميلة منها والرديئة ثم استقصى الأدب الروسي وآداب أقطار اوربا الجنوبية الشرقية ليعبر عن تفهمه الواسع ومعرفته العميقة بحياة الصين شبه الاقطاعية وشبه المستعمرة. وطور بجرأة الاسلوب الفريد الخاص به ، ووضع أساساً قوياً للادب الواقعي الجديد الوطني في الصين . وهو يحتل منزلة مهمة في تاريخ الادب الصيني لأنه قد طور تقليدا قديما ، وخلق أدبا جديدا . وهو أعظم كاتب واقعي في الصين الحديثة وأكثر تقدما ، وهو الذي مهد الطريق لكتاباتنا الواقعية الاشتراكية . وطريق لوشين هو طريق أدب الصين الوطني الجديد .

شانغهاي ١٧ آب ١٩٥٩

مقدمة المجموعة الاولى من القصص القصيرة

دعوة الى السلاح

حين كنت شاباً ، كانت لي أحلام كثيرة كالآخرين، أتى النسيان على كثير منها ، ولست آسفا على شيء من ذلك . رغم أن تذكر الماضي قد يبعث السرور الا انه في نفس الوقت قد يعيد الى القلب ذكريات وحشة الأيام الماضية ، ولكنني على كل حال لا أستطيع محو القصص التي سأسردها الآن .

منذ اكثر من اربع سنوات تعودت ان أذهب كل يوم تقريبا الى محل للرهون ، وآخر لشراء العقاقير . وليس في ميسوري ان أتذكر كم كانت سني حين ذاك ؛ غير ان منصة دكان العقاقير كانت بارتفاع قامتي ، ومنصة محل الرهون اطول منها بمرتين . وكنت أسلم الثياب والمصوغات الى صاحب المنصة التي هي اعلى مني مرتين ، ثم اذهب الى المنصة التي هي في ارتفاع قامتي

لأشتري الدواء لأبي الذي كان طريح الفراش منذ زمن طويل . وعند عودتي الى البيت كانت عندي أشياء أخرى تشغلني ؛ فلما كان الطبيب الذي يعطي وصفات الدواء مشهورا جدا ، كان يعطي وصفات غير مألوفة كمثل جذور الصبير المقلوعة في الشتاء ، وقصب السكر الذي تعرض ثلاث سنوات الى الصقيع ، والصرصار المتوأم ، والارديسيا (١) . . . وكل ذلك كان عسيراً مناله .غير ان مرض أبي تحول من سيء الى أسوأ حتى وافاه الأجل .

وأعتقد ان الذين يتدهورون من الرفاه الى الفاقة سيدركون بالتدريج أي شيء هو العالم حقا . لقد كنت أريد الذهاب الى مدرسة « ك » في مدينة « ن » ، ولعل ذلك في نظر الآخرين أني أريد ان أغير البيئة وأختبيء في مكان بعيد . فما كان من والدتي الا أن دبرت ثمانية دولارات لنفقات سفري ، وقالت إن في وسعك ان تفعل ما تشاء ، ثم بكت وبكاؤها كان امرا طبيعيا ، ذلك لأن الشيء اللائق بي في ذلك العهد هو ان أدرس التراث القديم ، وأؤدي الامتحانات الرسمية . وكان كل من يدرس « المواضيع الاجنبية » يحتقر باعتباره شخصا لا نفع فيه ، وانه قد باع روحه للشياطين الاجانب بدافع اليأس . وبالاضافة الى ذلك كانت آسفة على فراقي . ولكنني ، رغما عن ذلك ، ذهبت الى مدينة « ن » ، ودخلت مدرسة « ك » . وهناك سمعت لأول مرة أسماء مواضيع جديدة علي وهي العلوم ، والحساب ، والجغرافية ،

---

(١) نوع من الشجيرات .

والتاريخ ، والرسم ، والتمارين الرياضية . ولم يكن هناك درس للتشريح ، ولكننا رأينا طبعات خشبية لمؤلفات مثل « درس جديد عن الجسم البشري » و « مقالات عن الكيمياء والصحة » . وبعد ان استعدت الى ذاكرتي الاطباء الذين عرفتهم ، وقارنتهم بما عرفت الآن انتهيت الى نتيجة وهي ان اولئك الاطباء اما ان يكونوا غير حاذقين ، أو دجالين ماهرين في الدجل . وبدأت أعطف على المرضى والعوائل التي قاست على أيديهم الأعذبة والمصائب وعرفت من التواريخ المترجمة أيضا ان حركة الاصلاح اليابانية قد نشأت ، بنحو واسع ، عند دخول علم الطب الغربي الى اليابان .

وقد دفعتني هذه المعارف الى ان أقصد كلية طبية في احدى المقاطعات في اليابان . وقد حلمت حلما جميلا وهو انني سأعالج لدى عودتي الى الصين ، المرضى من امثال والدي ، الذي عولج معالجة خاطئة ، واذا اندلعت الحرب فسأقوم بخدمات طبية للجيش ، وفي نفس الوقت أقوي إيمان ابناء وطني في الاصلاح .

لم أكن أعرف ما هي الطرق المتقدمة التي تستعمل الآن في تدريس علم الجراثيم ، ولكن المصباح السحري كان يستخدم في ذلك الحين لاظهار الجراثيم ، وحين كانت المحاضرات تنتهي مبكرا كان المحاضر يعرض في بعض المرات صور مناظر طبيعة ، أو أخبارا ليملأ الفراغ . وكان ذلك ابان الحرب الروسية اليابانية ، فكانت هناك عدة أفلام كان علي ان ألهب يدي بالتصفيق والهتاف لها في قاعة المحاضرات اسوة بالطلاب الآخرين وكان قد مضى زمن طويل لم أر أحدا فيه من ابناء وطني ، وذات

يوم رأيت فلما يظهر أحد الصينيين ، وقد شد بوثاق ، والتف حوله جماعة . وكانوا جميعا فتيانا معافين ، ولكنهم يبدون في خمول تام . وحسب التعليق كان الرجل المشدود الوثاق جاسوسا يعمل لحساب الروس ، وكان ينبغي ان تقطع العسكرية اليابانية رأسه نذيرا للآخرين ، بينما حضر الصينيون الذين بجانبه ليستمتعوا بالمنظر .

وقبل ان ينتهي الفصل الدراسي ذهبت الى طوكيو لأنني بعد ان رأيت الفلم ، شعرت ان علم الطب ليس مهما جدا فان شعب بلاد ضعيفة متأخرة ، مهما كان معافى لا يمكن ان يقدم الا مثل هذه الامثلة ، او يكون شاهدا لمثل هذه المناظر الباطلة ، وليس من الضروري ان يبعث في النفس الأسى مقدار من يموت منهم مرضا . لذلك فان أهم شيء هو تغيير نفوسهم ، ومنذ ذلك الحين شعرت بان الأدب هو أحسن وسيلة لهذه الغاية ، وصممت على خلق حركة ادبية . وكان في طوكيو كثير من الطلاب الصينيين يدرسون القانون والعلوم السياسية ، والفيزياء ، والكيمياء والهندسة ، وحتى أعمال البوليس ، ولكن ما من أحد منهم كان يدرس الأدب أو الفن وعلى أية حال فحتى في مثل هذه الظروف واتاني الحظ في ان أجد بعض النفوس الطيبة . وقد جمعنا الأخرين القلائل الذين نحتاجهم ، وبعد المناقشة كانت خطوتنا الاولى ، هي اصدار مجلة يدل اسمها على ان هذا ميلاد جديد . ولما كنا حينذاك نميل الى القديم قليلا ، فقد دعوناها « شين شنغ » (الحياة الجديدة) .

وحين كان موعد الاصدار يقترب ، كان بعض المشاركين ينسحبون ، وبذلك أخذت ماليتنا تتناقص ، وفي آخر الامر لم يبق الا ثلاثة منا لا يملكون فلسا واحدا . وما دمنا قد بدأنا مجلتنا في ساعة سيئة الحظ فمن الطبيعي ان ليس هناك احد نستطيع ان نشكو اليه خيبتنا ، وحتى نحن الثلاثة صار مصيرنا في آخر الامر الى الفراق ، وانتهت مناقشاتنا كحلم من احلام المستقبل . وهكذا اختفت « الحياة الجديدة » .

ولم أشعر بسأمة وملل الا فيما بعد ؛ ففي ذلك الحين لم أكن أفهم حقا أي شيء . وفيما بعد شعرت بان مشاريع الانسان اذا لاقت قبولا فان ذلك يشجعه ، واذا كان الامر على العكس فان ذلك يدفعه للنضال ولكن المأساة الحقيقية بالنسبة له هي ان يرفع صوته بين الاحياء ولا يلقى جوابا ، في قبول أو اعتراض . . . تماما كأنه متروك في صحراء بلا معين . وعلى هذا النحو أخذت أشعر بالوحدة .

وقد نما هذا الشعور بالوحدة يوما بعد يوم ، ملتفا حول روحي مثل افعى هائلة سامة ، ولكن بالرغم من كآبتي التي لا يمكن تعليلها فلم أشعر بالحنق لأن هذه التجربة جعلتني أتأمل ، وأرى أنني قطعا لست بالنموذج البطولي الذي يستطيع ان يجمع الجموع بندائه .

ومهما يكن من شيء فقد كان على وحدتي ان تزول لانها سببت لي ألما ممضا . وقد استخدمت طرقا مختلفة لتبليد حواسي ، بالامتثال لروح العصر ، وبالعودة الى الماضي . وفيما بعد عانيت

أو شهدت وحدة وكآبة أشد لا أود ان أسترجع ذكراها، مفضلا ان تفنى معي . وربما أفلحت محاولتي لقتل حواسي ، فقد فقدت الحماس وحرارة صباي .

كان في نزل « ش » ثلاث غرف . وقيل ان امرأة قد شنقت نفسها على شجرة خرنوب في فنائه . ورغم ان الشجرة قد أصبحت طويلة حتى لا يقدر المرء على الوصول الى اغصانها ، فان الغرف ظلت مقفرة . وبقيت هناك عدة سنين أنسخ المخطوطات القديمة . وكان يزورني زوار قليلون . ولم يكن في تلك المخطوطات مشاكل سياسية أو نزاعات ، وكانت رغبتي الوحيدة هي ان تجري حياتي هادئة على هذا النحو . وفي ليالي الصيف ، في الاوقات التي لا يكون فيها بعوض كثير كنت اجلس تحت شجرة الخرنوب اروح علي الهواء بمروحتي ، وانظر الى السماء من خلال الاوراق الكثيفة ، بينما كانت تتساقط على عنقي ديدان شجرة الخرنوب التي خرجت في المساء .

كان الزائر الوحيد الذي يزورني بالمناسبة هو صديقي القديم « تشين شين ئي » . وكان يضع محفظته الكبيرة على الطاولة المحطمة ، ويخلع قفطانه الطويل ، ويجلس ازائي ، وهويبدو كأن قلبه ما زال يدق دقات سريعة بعد ان تحدى الكلاب .

سألني ذات ليلة مستطلعا بعد ان نظر في المخطوطات التي أستنسخها : « ما الفائدة من استنساخ هذه ؟ »

« لا فائدة ، البتة . »

« فلماذا تستنسخها ؟ »

« لا لسبب معين . »

« أرى ، لعلك تكتب شيئا . »

وعرفت من قوله انه يقصد بأنني أكتب لمجلتهم موضوعا ، فانه مع اصحابه كانوا يصدرون مجلة باسم « الشباب الجديد » (١) ولكن لم يبد حتى حينذاك أي أثر جميل لها أوغير جميل وتصورت أنهم يشعرون بالوحدة لا محالة ومع ذلك فقد قلت له : « تصور بيتا من حديد ، لا نوافذ له ، ولا يمكن هدمه مطلقا ، وفي داخل البيت اناس كثيرون غارقون في سباتهم موشكون على الموت اختناقا . ولكنك تعرف انهم ماداموا سيموتون وهم نيام فلن يشعروا بألم الموت . والان لو صرخت عاليا لتوقظ جماعة من ذوي النوم الخفيف ، ولتشعر هؤلاء التعساء الحظ بعذاب الموت الذي لا يرد ، فهل تحسب أنك تؤدي لهم معروفا ؟ »

فأجاب : « ولكن ما دام قد استيقظ نفر منهم ، فلا يمكن ان تقول ليس من أمل في هدم البيت الحديدي . »

حقا انني بالرغم من اعتقادي لم استطع ان اشطب على الامل ، لان الامل يكمن في المستقبل . ولم اتمكن من استخدام دليلي الخاص لدحض رأيه الذي قد يكون له وجود . وهكذا وافقت على الكتابة . وكانت النتيجة قصتي الاولى « يوميات مجنون » . ومنذ ذلك الحين لم استطع الكف عن الكتابة . وكنت

---

(١) كانت أكثر المجلات تأثيرا في الثورة الثقافية في ذلك الحين .

أكتب نوعا من القصص القصيرة بين حين وآخر بناء على طلب الاصدقاء حتى أصبح عندي اكثر من عشرة .

وبالنسبة لي لم اعد أشعر بأي ميل كبير للافصاح عن نفسي، ومع ذلك ، فكنت اصرخ في بعض الاحيان مشجعا هؤلاء المحاربين الذين يخبون سائرين في وحدة لكيلا ييأسوا ولعل السبب في ذلك انني لم أنس كليا أسى وحدتي الماضية . وسواء أكانت صرختي بدافع الشجاعة أم الحزن أو كانت منفرة أم مضحكة ، فلاأكترث لذلك . وما دامت دعوة للسلاح فمن الطبيعي ان أطيع نظامي العام وهذا هو السبب في انني غالبا ما ألجأ الى التلميحات ، كما فعلت حين جعلت اكليلا يظهر من حيث لا يعرف ويوضع على قبر ابي في قصة « دواء » بينما لم اقل في قصة « الغد » ان زوجة تان الرابعة لم تكن لها احلام عن ابنها الصغير . لان إلهنا في المستقبل سيكون ضد التشاؤم . وأنا ، من جهتي ، لم أرد ان ألحق عدوى الوحدة التي وجدتها مريرة جدا باولئك الشبان الذين ما زالوا يحلمون احلاما بهيجة ، تماما كما كان مثل هذه الاحلام في صباي .

فواضح بعد هذا ان قصصي القصيرة هي بعيدة عن ان تكون اعمالا فنية ؛ ومن هنا أحسب نفسي محظوظا لأنها ما زالت معروفة بأنها قصص ، وأنها تجمع في كتاب واحد . ورغم ان الحظ هذا يجعلني قلقا فأنا مسرور على أية حال بأن اظن ان لها قراء في عالم الناس ، في الوقت الحاضر على الاقل .

ومادامت قصصي القصيرة هذه يعاد طبعها في مجموعة ،

للاسبـاب التي تقدمت فقد اخترت لها عنوان « ناهان » (دعوة الى السلاح) .

بكين ٣ ديسمبر ١٩٢٢

يوميّات مجنون

كان لي صديقان من اصدقائي الحميمين في المدرسة الثانوية، ولست بحاجة الى ذكر اسميهما هنا ، ولكن الصلة بيننا انقطعت بالتدريج بعد فراق دام اعواما كثيرة ، وصادف أني سمعت قبل زمن بمرض أحدهما مرضا خطيرا فقطعت رحلتي الى بيتي القديم لأزوره . وعندما وصلت منزلهما لم أر غير أحدهما فأخبرني بأن المريض هو أخوه الصغير .

وقال : « انني مقدر لك اجتيازك مثل هذه الطريق الطويلة لزيارتنا ، بيد أن أخي قد أبل من مرضه منذ حين ، وذهب الى مكان آخر ليتسلم منصبا رسمياً . » ثم قدم لي — وهو ضاحك — مجلدين من مذكرات أخيه اليومية ، قائلا ان من المستطاع معرفة طبيعة علة أخيه الماضية منها ، وليس من ضير في أن يعرضها



للفنان لي خوا

على صديق قديم . فأخذت المـذكرات ، وتصفحتهـا ، وتبين لي ان المريض كان يعاني لونا من مركب الاضطهاد وكانت الكتابة على اشـد ما تكـون ارتباكا وتفككـا ، وقد أدلى ببعض البيانات الغفل ، وفضلا عن ذلك أغفل كتابة التواريخ فلا يعرف المرء انها لم تكتب في وقت واحد الا من اختلاف لون الحبر ، وتغير الخط . ومع ذلك فكانت لبعض البيانات رابطة ، فاستنسخت جزءا منها ليستخدم موضوعا للبحث الطبي . وأنا لم أغير أية كلمة من المذكرات ما خلا الاسماء رغم ان الاشخاص المشار اليهم ريفيون جميعا ، غير معروفين ، وليس لهم أي شأن . أما بالنسبة لعنوان المذكرات فقد اختاره صاحب المذكرات نفسه بعد ابلاله ، ولم أغيره .

٢ نيسان

— ١ —

القمر في هذه الليلة ساطع جداً .

لم أر القمر منذ ثلاثين عاما ولما رأيته اليوم شعرت بسرور غريب . وبدأت أدرك أنني كنت أعيش في ظلام خلال الاعوام الثلاثين الماضية ، ولكن الآن ينبغي ان أكون شديد الحذر ، والا فما بال الكلب في منزل تشاو يصوب الي النظرات .

فمن الضرورة ان أحذر .

— ٢ —

في هذه الليلة لم يطلع القمر أبداً . وأنا أعلم ان ذلك نذير شر . وفي هذا الصباح عندما خرجت حذرا ، كانت في عيني السيد تشاو نظرة غريبة ، وكأنه يخاف مني ، أو كأنه يريد ان يقتلني . كما كان هناك سبعة اوثمانية اشخاص آخرين يتناقشون متهامسين . وكانوا خائفين من رؤيتي اياهم . وكل الناس الذين مررت بهم كانوا على هذه الشاكلة . وأشدهم ضراوة كان عندما يراني يكشر عن اسنانه . وعند ذلك كنت أرتعد من قمة رأسي ، الى أخمصي ، وأنا عارف ان استعداداتهم قد كملت .

وعلى أية حال لم أكن خائفا ، بل مضيت في سبيلي ، فشاهدت أمامي جماعة من الاطفال يتناقشون في امرى أيضا ، وكانت نظراتهم مثل نظرات السيد تشاو تماما بينما وجوههم كانت شديدة الشحوب . وعجبت أي موجدة يمكن ان تجعل هؤلاء الاطفال ضدي ، يتصرفون على هذا النحو . ولم أتمالك من أن اصيح : « اخبروني ! » ولكنهم ولوا هاربين .

انني لأستغرب ما الذي يجعل السيد تشاو يحقد علي ،وما الذي يجعل الناس في الطريق يضمرون لي البغضاء . لا يمكنني ان أفكر الا في شيء واحد هو أنني قبل عشرين عاما وطئت أوراق حسابات السيد « كوتشيو » (١) وقد ظل السيد «كو » مستاء لذلك

---

(١) تعني « كو تشيـو » في الصينية « الازمنة القديمة » . ولوشيـن يرمي في ذلك الى التاريخ الطويل للاضطهاد الاقطاعي في الصين .

سنين طويلة . ورغم ان السيد تشاو لا يعرفه فلعله سمع حديثا عن ذلك ، وعزم على الانتقام للسيد « كو » ، وهكذا صار يتآمر مع الناس الآخرين في الطريق ضدي . ولكن ما بال الاطفال ؟ ففي ذلك الحين لم يكونوا قد ولدوا بعد ، فلماذا نظروا الي نظرة غريبة هذا اليوم وكأنهم يخافون مني ، اوكأنهم يريدون قتلي ؟ ان هذا يفزعني حقا ، إنه أمر محير ومثير .

أنا اعرف ، لا بد انهم تعلموا ذلك من آبائهم .

— ٣ —

لا استطيع النوم هذه الليلة . فكل شيء يقتضي ترويا دقيقا اذا اراد الانسان فهم ذلك الشيء .

ان هؤلاء الناس — بعضهم ربطه الحكام على آلة التعذيب ، وبعضهم صفعه الاعيان على وجهه ، وبعضهم اغتصب الاشراف زوجاتهم ، وبعضهم حمل الدائنون آباءهم على الانتحار . ومع ذلك فلم يظهروا قط في مظهر الفزع والقسوة مثلما ظهروا يوم أمس .

وأكثر الاشياء غرابة هي تلك المرأة التي كانت تلطم ابنها في الشارع يوم أمس وتقول : « أيها الشيطان الصغير ! أود لو أنهش من لحمك ما يملأ فمي مرات ، لأنفس عن مشاعري ! » ومع ذلك فقد كانت تنظر اليّ طوال الوقت . وانتفضت وأنا عاجز عن ضبط نفسي ، ثم أخذ جميع اولئك الناس الخضر الوجوه ، الطوال الانياب يضحكون ساخرين . وهرع «تشن » العجوز ، نحوي ،

وجرني الى البيت .

عندما أدخلني الى بيتي تظاهر أهلي جميعا بأنهم لا يعرفونني ، وكانت في أعينهم نفس النظرة التي في عيون الاخرين . وحين ذهبت الى المكتب ، قفلوا الباب من الخارج وكأنما يحجزون دجاجة أوبطة . وقد جعلني هذا الحادث أكثر حيرة .

قبل بضعة أيام جاء مستأجر ارضنا في قرية « ابن الذئب » ليبلغ عن هبوط الحصيل ، وحكى لأخي الكبير ان شخصا سيء السمعة قد ضرب في قريتهم حتى مات ثم انتزع بعض الناس قلبه وكبده ، وقلاهما في الزيت ، وأكلهما ليكونا وسيلة يزيد بها شجاعته . وحين قاطعت الرجل حملق هو وأخي بي . واليوم فقط أدركت ان في عيونهما كانت نفس النظرة التي في عيون الآخرين .

ومجرد التفكير في ذلك يجعلني أرتجف من قمة رأسي الى أخمصي .

هم يأكلون الآدميين . فلعلهم سيأكلونني .

إنني لأرى في تلك المرأة التي كانت تقول لطفلها : أود ان انهش من لحمك ما يملأ فمي مرات . وفي ضحكة الناس الخضر الوجوه الطوال الانياب ، وفي قصة المستأجر التي رواها قبل أيام علامات خفية حقاً . لقد فطنت الى كل السم الذي يجري في كلامهم ، وكل الخناجر المتوارية وراء ضحكاتهم . والى اسنانهم البيضاء اللامعة ؛ انهم جميعا أكلة لحوم البشر .

يبدو لي ، رغم أنني لست رجلا سيئاً ، قد أصبحت رجلا مرتابا فيه منذ ان دست بقدمي على اوراق حسابات السيد

«كو» . ويبدو أن لهم اسرارا لا استطيع حدسها ، وما ان يغضبون على أحد حتى يسموه بأنه شخص سيء . وانني لأذكر حين علمني أخي الاكبر كتابة الانشاء كان يستحسن كتابتي اذا قدمت ادلة على ان رجلا ما سيء الخلق ، مهما كان ذلك الرجل في واقع الامر حسن الاخلاق وحين أختلق الاعذار للذين يأتون افعالا شريرة كان يقول : « بخ ، بخ ! ان ذلك يدل على أصالة ! » فكيف يمكن ان احدس افكارهم السرية — ولا سيما حين يتهيأون لأكل الناس ؟

كل شيء يتطلب رؤية اذا كان الانسان يريد فهمه وفي الزمان الغابر ، كما أتذكر ، غالبا ما كان الناس يأكلون الآدميين ولكنني مرتاب بعض الارتياب في هذا . فحاولت ان أبحث عن ذلك . لكن كتاب التاريخ الذي في حيازتي ليس مسلسلا في حوادثه وكل صفحة من صفحاته كانت تحمل كلمتي « الفضيلة والاخلاق » ولما كنت لا استطيع النوم بأية وسيلة فقد بقيت اقرأ الى نصف الليل في عناء حتى بدأت أرى الكلمات تتراقص بين السطور . لقد امتلأ الكتاب كله بكلمتين اثنتين « كلوا الناس » .

كل تلك الكلمات التي كتبت في الكتب ، وكل الكلمات التي قالها مستأجرنا حدقت بي في غرابة وابتسامة غامضة .

أنا ايضا انسان ، وهم يريدون أكلي .

— ٤ —

عندما استيقظت صباحا شعرت بهدوء قليل ، وبعد لحظات جلب لي « تشن » العجوز غذائي وكان صحن خضر ، وصحن سمك مطهي على البخار . وكانت عينا السمكة بيضاوين صلبتين وكان فمها مفتوحا مثل افواه الناس الذين يريدون أكل الآدميين . وبعد بضع لقمات لم استطع ان أعرف أكانت تلك اللقمات الزلقة سمكا أم لحما بشريا . ولذلك تقيأتها كلها .

قلت : « يا تشن العجوز قل لأخي أنني اشعر باختناق تام ، وأريد ان أتمشى في الحديقة . » ولم يقل تشن العجوز شيئا ، بل خرج ثم عاد على الفور وفتح الباب .

لم أتحرك ، وراقبت كيف سيعاملونني . وأنا أعرف على وجه التأكيد انهم لن يدعوني اذهب . ذلك شيء أكيد . وخرج أخي بطيء الخطى يقود رجلا عجوزا . وكان في عيني الرجل بريق فتاك ، وحين خشي من رؤيتي له ، خفض رأسه ، واختلس النظر الي من طرف نظارته .

قال أخي : « يبدو أنك في حال طيبة جدا اليوم . »

قلت : « نعم . »

قال أخي : « لقد دعوت السيد 'هو' الى هنا اليوم ليفحصك . »

قلت : « حسنا . » ولكنني في الواقع اعرف حق المعرفة ان هذا العجوز هو الجلاد متخفيا فقد استخدم ببساطة حجة جس نبضي

ليعرف مقدار امتلائي باللحم ، وهو بهذا العمل يأخذ نصيبا من لحمي . ومع ذلك فلم أكن خائفا . فرغم انني لا آكل لحم البشر فان شجاعتي اعظم من شجاعتهم . مددت قبضتي وانا أراقب ماذا سيفعل . وجلس العجوز وأغمض عينيه ، وتحسس يدي قليلا ووقف ساكنا ، ثم فتح عينيه الماكرتين وقال : « لا تدع خيالك يجنح بك . واسترح هادئا بضعة ايام ، وستكون في حال جيدة . »

لا تدع خيالك يجنح بك ! استرح هادئا بضعة ايام ! وتصورت أنني عندما اسمن سأصبح لهم طعاما وافرا يأكلونه ، ولكن اي نفع لي في ذلك ؟ وكيف أكون « في حال جيدة ؟ » كل هؤلاء الناس يريدون أكل اللحم البشري وفي الوقت ذاته يحاولون التستر والاحتفاظ بالمظاهر ، ولا يجرأون على العمل جهارا . حقا ان ذلك قد جعلني استغرق في الضحك ولم استطع ان امنع نفسي من القهقهة وكنت في غاية الانبساط . وانا اعرف ان في هذا الضحك شجاعة وعدالة . وامتقع وجه العجوز ووجه أخي وخافا من شجاعتي وعافيتي .

ولأنني شجاع كانوا أكثر تشوقاً إلى أكلي ليحصلوا على شيء من الشجاعة . وخرج العجرز من الباب ولكنه قال لأخي في صوت خفيض قبل ان يبتعد : « ليؤكل في الحال ! » وأومأ أخي برأسه . اذن فأنت معهم ايضا ! ان هذا الاكتشاف الهائل ، رغم انه جاء صدمة لي ، لم يكن أكثر مما كنت اتوقع . ان الشريك في أكلي هو اخي الكبير .

ان آكل لحوم البشر هو اخي الكبير !
وأنا الاخ الصغير لآكل لحوم البشر !
وأنا نفسي سيأكلني الآخرون ، ولوكنت الاخ الصغير لآكل لحم بشري .

— ٥ —

في هذه الايام القليلة اخذت أفكر ثانية . أفرض ان ذلك العجوز لم يكن جلادا متنكرا ، بل طبيبا حقيقيا ، فلن يكون أكثر من آكل لحم بشري . وفي ذلك الكتاب عن الاعشاب الذي كتبه سلفه « لي شيه تشن » (١) ذكر بصريح العبارة ان اللحم البشري يمكن ان يسلق ويؤكل ، فهل في وسعه ان يقول بعد هذا انه لا يأكل لحم الناس ؟

أما عن أخي الكبير ، فلي أيضا سبب وجيه في ارتيابي به. فحين كان يعلمني قال بلسان صريح : « ان الناس يبيعون أبناءهم لِيُؤكلوا » (٢) . وذات مرة حين كنا نتناقش في شخص سيء قال انه يستحق القتل ويستحق كذلك ان « يؤكل لحمه ويفترش جلده » . وكنت آنذاك حديث السن ، فخفق قلبي خفقانا شديدا ثم انه لم يستغرب مطلقا القصة التي رواها لنا مستأجرنا في قرية ابن الذئب عن أكل قلب رجل وكبده ، بل ظل ينود برأسه.

---

(١) عقاري مشهور (١٥١٨ – ١٥٩٣) ومؤلف كتاب « بن تساو كانغ مو» (المواد الطبية) .

(٢) اقتباس من الكتاب القديم « تسو تشوان » .

وواضح انه مازال قاسياً مثلما كان من قبل . وما دام من الممكن « بيع الابناء للأكل » ، فمن الممكن بيع كل شيء وأكل كل شخص . وفي الماضي كنت اصغي الى ايضاحاته ببساطة ، وأترك الامور تجري على علاتها ، والآن عرفت انه حين كان يشرح لي فكأنما كان الدهن البشري يسيل على شفتيه بل كأن قلبه كله يتحرك لأكل لحوم الناس .

— ٦ —

الظلمة حالكة . وأنا لا أعرف : الوقت أهو نهار أم ليل ؟ وكلب عائلة تشاو طفق ينبح مرة أخرى .

ضراوة أسد ، ووجل أرنب ، ومكر ثعلب ...

— ٧ —

أنا اعرف طريقتهم ، انهم لا يريدون قتل كل انسان على الفور ، ولا يجرأون على ذلك ، خوفا من العواقب . لهذا فهم يتكاتفون جميعا ، وينصبون الأشراك في كل مكان ليرغموني على قتل نفسي . وما عليك الا ان تنظر الى سلوك الرجال والنساء في الشارع قبل بضعة ايام ، والى موقف اخي الكبير في هذه الايام القليلة ذاتها ، فذلك واضح تمام الوضوح . وأحب الاشياء اليهم هو ان يفك الانسان حزامه ، ويشنق نفسه في السقف . فبذلك يمكن ان يحققوا شهوة قلوبهم دون ان يلاموا على القتل . وطبيعي ان ذلك يجعلهم يرسلون ضحكات هادرة من الفرح . ومن جهة

اخرى اذا تملك الخوف أحدا من الناس ، أو ركبه القلق من الموت فان هذا يضويه قليلا ومع ذلك فانهم مستعدون لأكله .

سيأكلون اللحم الميت فحسب . أتذكر انني قرأت في كتاب ما عن حيوان مريع في عينيه نظرة قبيحة يسمونه « الهيينا » يأكل اللحم الميت في الغالب . وهو يسحق أكبر العظام ويحولها الى قطع صغيرة ويبتلعها ، ومجرد التفكير في ذلك يجعلني ارتعب . وللهيينا صلة قرابة بالذئاب ، والذئاب اقرباء لفصائل الكلاب . وذات يوم حدق بي كلب عائلة تشاو مرات كثيرة ، والظاهر انه شريك بالمؤامرة ايضا ، وانه شريكهم في الجريمة . وكانت عينا الرجل العجوز منكستين . ولكن كيف يمكن ان يخدعني ذلك !

والشيء الاكثر ايلاما هو أخي الكبير . فهو انسان ايضا ، فلماذا هو لا يخاف ؟ ولماذا يتآمر مع الآخرين على اكلي ؟ فهل الانسان اذا تعود أكل لحوم البشر لا يحسب ذلك جريمة ؟ أو أنه قسا قلبه فأصبح لا يبالي ان يرتكب ما يعرف انه خطأ ؟

إنني في لعني أكلة لحوم البشر سأبتدئ بأخي ، وفي محاولة اقناعي لأكلة لحوم البشر ان ينصرفوا عن غيهم، سأبتدئ بأخي أيضا .

— ٨ —

في الواقع ان هذه البراهين يجب ان تقنعهم بالعدول منذ زمن طويل . . .

وفجأة جاء أحد الناس . كان في نحو العشرين من العمر ليس غير ، وانا لم أتبين ملامحه بوضوح شديد . كان وجهه مكللا بالبسمات ، وحين هز رأسه لي لم تبد بسمته أصيلة . ثم سألته : « هل من الصواب أكل الآدميين ؟ »

فأجاب وهو مايزال يبتسم : « حين لا تكون ثمة مجاعة كيف يمكن أكل الآدميين ؟ »

وأدركت في الحال انه واحد منهم ، ولكنني استجمعت قوتي وأعدت سؤالي :

« هل من الصواب ؟ »

« ما الذي جعلك تسأل عن شيء كهذا ؟ أنت في الحقيقة ... ولوع بالمزاح ... اليوم يوم جميل . »

« يوم جميل ، والقمر ساطع جدا . ولكنني أريد ان اسألك هل من الصواب ؟ »

فبدا عليه الارتباك ، وتمتم : « لا ... »

« لا ؟ ولكن لماذا مازالوا دائبين عليه ؟ »

« عم تتحدث ؟ »

« عم أتحدث ؟ انهم الآن يأكلون الآدميين في قرية ابن الذئب ، وفي وسعك ان ترى ذلك مكتوبا في كل الكتب ، وفي حبر أحمر لم يجف . »

وتغيرت سحنته ، وامتقع لونه وقال وهو يحدق بي : « قد يكون ذلك . وهو كذلك دائما . »

«هل هو صواب لأنه كذلك دائما ؟ »

«انا ارفض مناقشة هذه الامور معك . وعلى أية حال ينبغي لك ان لا تتحدث بها . فمن الخطأ ان يتحدث بها أحد مهما يكن . »

وقفزت ، وفتحت عيني على وسعهما غير ان الرجل قد اختفى وتصببت عرقا . انه اصغر من أخي الكبير بكثير ، ولكنه شريك معهم هو الآخر . فلابد من ان والديه قد علماه ذلك . وأخاف انه قد علم ابنه الآن . ولهذا السبب حتى الاطفال كانوا ينظرون الي بقساوة .

— ٩ —

يريدون أكل الناس ، وفي نفس الوقت يخافون من ان يؤكلوا هم انفسهم . فلهذا ينظر أحدهم الآخر بارتياب شديد . . .

فأية حياة مريحة ستكون لهم لو استطاعوا التخلص من هذه الهواجس التي تلازمهم ، وخرجوا للعمل والمشي والاكل والنوم في طمأنينة . وليس امامهم غير هذه الخطوة . ومع ذلك فان الآباء والابناء ، والازواج والزوجات ، والاخوات ، والاصدقاء ، والمعلمين والطلاب والاعداء المتحالفين ، وحتى الغرباء قد انضموا الى هذه المؤامرة وأحدهم يثبط عزم الآخر ، ويمنعه من ان يخطو هذه الخطوة .

— ١٠ —

في صباح باكر هذا اليوم ذهبت لألقي نظرة على أخي الكبير .

وكان واقفا خارج باب القاعة ينظر الى السماء حين مشيت خلفه ، ووقفت بينه وبين الباب . وقلت له في اتزان وأدب فائقين : « أخي ، عندي شيء أريد ان أقوله لك . »

قال : « أجل ، ما هو ؟ » واسرع متجها نحوي وهو يهز رأسه .

« انه صغير جدا ، ولكنني أجد صعوبة في قوله . ياأخي من الممكن ان يكون جميع الاقوام البدائيين قد أكلوا اللحم البشري . وفيما بعد ، وبسبب من تغير نظرتهم توقفت بعض الاقوام عن الاكل ، ولأنهم حاولوا ان يكونوا طيبين تحولوا الى أناس حقيقيين. ولكن بعضهم مازال يأكل اللحم البشري – تماما كالتماسيح ، وانقلب آخرون الى اسماك وطيور وقرود والى اناس في آخر الامر؛ والبعض الآخر لا يحاول ان يكون طيبا ، وبقي كتماسيح ! وحين يقارن الذين يأكلون الناس أنفسهم بالذين لا يأكلونهم فلا بد ان يكون خجلهم شديدا . ولعله أشد من خجل التماسيح امام القرود .

« في الازمنة القديمة سلق ' ئي يا ' ابنه ليأكله تشيه وتشو . تلك هي القصة القديمة (١) . ولكن الحقيقة ان الناس كان يأكل بعضهم بعضا منذ ان خلق « بان كو » السماء والارض الى زمن

---

(١) تقول التواريخ القديمة ان ئي يا طبخ ولده وقدمه الى تشي امير هوان الذي حكم من عام ٦٨٥ الى عام ٦٤٣ قبل الميلاد . اما تشيه وتشو فقد كانا طاغيين في زمن سابق لذلك . وقد اخطأ المجنون حين خلط بين التاريخين .

ابن ثي يا ، والى زمن شوشي لين (١) ، ومن عهد شوشي لين الى الرجل الذي قبض عليه في قرية ابن الذئب . وفي العام الماضي أعدموا مجرما في المدينة ، وقد بلل مصدور قطعة من الخبز في دمه ، ومصها (٢) .

« هم يريدون أكلي . وأرى انك لا تستطيع ان تفعل شيئا بكف واحدة ، ولكنك لماذا تنضم اليهم ؟ أكلة لحوم البشر قادرون على كل شيء . فلو أكلوني قد يصبح في مقدورهم ان يأكلوك أيضا : وافراد الجماعة الواحدة قادرون على أن يأكل بعضهم بعضا . ولكن لو تغير تصرفك في الحال لتنعم كل انسان بالسلام . ورغم ان هذا الشيء حدث منذ القدم ، ففي وسعنا اليوم ان نبذل جهدا خاصا ، لنستطيع ان نقول : لن يحدث هذا أبدا . انا واثق من انك تستطيع ان تقول هذا يا أخي . فقد قلت في اليوم الذي جاء فيه المستأجر يطلب تخفيض الايجار : لن يحدث . »

وفي بادىء الامر ابتسم بسخرية ، ثم ظهر في عينيه بريق فتاك ، وحين أفضيت بسرهم شحب لونه ووقف وراء الباب جمع من الناس من بينهم السيد تشاو وكلبه . وقد اشرأبوا بأعناقهم

---

(١) ثوري في نهاية اسرة تشينغ الملكية (١٦٤٤ – ١٩١١) . وقد أعدم شوشي لين في عام ١٩٠٧ لاغتياله موظفا من حكومة المانشو وقد أكل قلبه وكبده .

(٢) كان يعتقد بان الدم البشري يشفي السل . لهذا فقد كان الجلاد حين يعدم احد المجرمين يبيع خبزا مقليا بدمه .

جميعا لينظروا في الداخل . ولم استطع ان أرى وجوههم كلها ، فقد لاحوا كأنهم يتقنعون بالثياب ، وبعضهم كشـر عن أنيابه رغم محاولته كتم ضحكه . وأنا اعرف انهم عصابة واحدة ، كلهم أكلة اللحم البشري . ولكنني اعرف أيضا انهم لا يفكرون نفس التفكير . ففريق منهم يحسب ان اللحم البشري ينبغي ان يؤكل مادام هذا اللحم كان يؤكل في جميع الازمان . وفريق منهم يقول ان اللحم البشري ينبغي ان لا يؤكل ، ولكنه ما يزال يريد ان يأكله ، وهم خائفون من ان يكتشف الناس سرهم ، وهكذا حين سمعوني تملكهم الغضب ، ولكنهم ظلوا يبتسمون ابتسامات ساخرة ، من شفاه مزمومة .

وفجأة بدا أخي مهتاجا ، وصاح بصوت عال : « اخرجوا من هنا جميعا ! ما الغاية من التفرج على مجنون ؟ »

وعند ذاك ادركت جزءاً من مكرهم . إنهم لن يرغبوا أبداً في تغيير موقفهم ، وقد أصبحت خططهم جاهزة ، ووصموني بالجنون وفي المستقبل حين أؤكل فلن يمسهم سوء ، بل سيكون الناس شاكرين لهم . ومن حديث مستأجرنا عن القرويين الذين أكلوا شخصا شريراً يتبين أنهم استخدموا الحيلة نفسها . تلك هي مكيدتهم القديمة .

ودخل تشن العجوز ايضا في هياج شديد ، غير أنهم لم يستطيعوا كم فمي ، وتحدثت الى اولئك الناس قائلا : « ينبغي ان تتغيروا ، ان تتغيروا من اعماق قلوبكم . ويجب ان تعلموا ان ليس هناك في المستقبل مكان في العالم لأكلة لحوم البشر .

واذا لم تتغيروا ، فقد يأكل بعضكم بعضا . ورغم ان الناس يولدون كثيرا فسيقتلهم الناس الحقيقيون ، تماما كما يقتل الصيادون الذئاب والتماسيح ! »

وابعد تشن العجوزجميع الناس . وقد اختفى أخي . ونصحني تشن العجوز بالعودة الى غرفتي . وكانت الغرفة حالكة الظلام . وكانت الدسر والمساند الخشبية تتراقص وتهتز فوقي . وبعد ان اهتزت زمنا تضخمت ، وتكدست فوق قمة رأسي .

كان الثقل عظيما جدا فلم أقدر على ان اتحرك انهم يرومون قتلي . أنا اعرف ان الثقل كان خداعا كاذبا ، فناضلت ، وتصببت عرقا . ولكن ، كان علي ان اقول : « ينبغي ان تتغيروا في الحال ، ان تتغيروا من اعماق قلوبكم ! ويجب ان تعرفوا ان ليس هناك في المستقبل مكان في العالم لأكلة لحوم البشر . . . »

— ١١ —

لم تسطع الشمس ، ولم يفتح الباب . وفي كل يوم وجبتان من الطعام .

تناولت اعواد الاكل ، ثم فكرت في أخي ، لقد عرفت الآن كيف ماتت اختي الصغيرة ، كان كل ذلك بسببه . كانت أختي آنذاك في الخامسة . وما زال في وسعي ان أتذكر كم كانت تبدو محبوبة وشجية . وبكت امي وبكت ، ولكنه توسل اليها ان لا تبكي ، فلعل ذلك لأنه قد أكلها بنفسه ، ولو كان له

ادنى شعور بالخجل والاسف لجعله هذا البكاء خجلان أسيفا.

أكل أخي اختي الصغيرة ، ولكنني لا اعرف أفطنت أمي الى ذلك ام لا .

أعتقد ان أمي لا بد ، قد عرفت . ولكنها حين كانت تبكي لم تقل شيئا بصراحة فلعلها حسبت ذلك من اللياقة ايضا . انني اتذكر عندما كنت في الرابعة او الخامسة من عمري جالسا بالظل في القاعة قال لي أخي ان المرء حين يمرض ابواه يجب ان يقتطع قطعة من لحمه ، ويطبخها لهما اذا اراد ان يعتبر ابنا بارا ، ولم تعترض أمي على ذلك . واذا أمكن أكل قطعة واحدة فمن الواضح ان من الممكن أكل الكل ايضا . ومع ذلك فان مجرد التفكير في الحداد آنذاك ما يزال يدمي قلبي . ان ذلك أمر شديد الغرابة في هذه المسألة .

— ١٢ —

أنا لا أتحمل التفكير في ذلك .

الآن ادركت الحقيقة — أنني قد عشت كل هذه السنين في مكان ظل الناس يأكلون فيه اللحم البشري اربعة آلاف عام . وقد تولى أخي ادارة المنزل حين توفيت أختي ، فلعله قد استعمل لحمها كثيرا في ارزنا وطعامنا ، وجعلنا نأكله دون ان ندري .

أظن انني أكلت عدة قطع من لحم أختي دون ان أدري ، والآن جاء دوري . . .

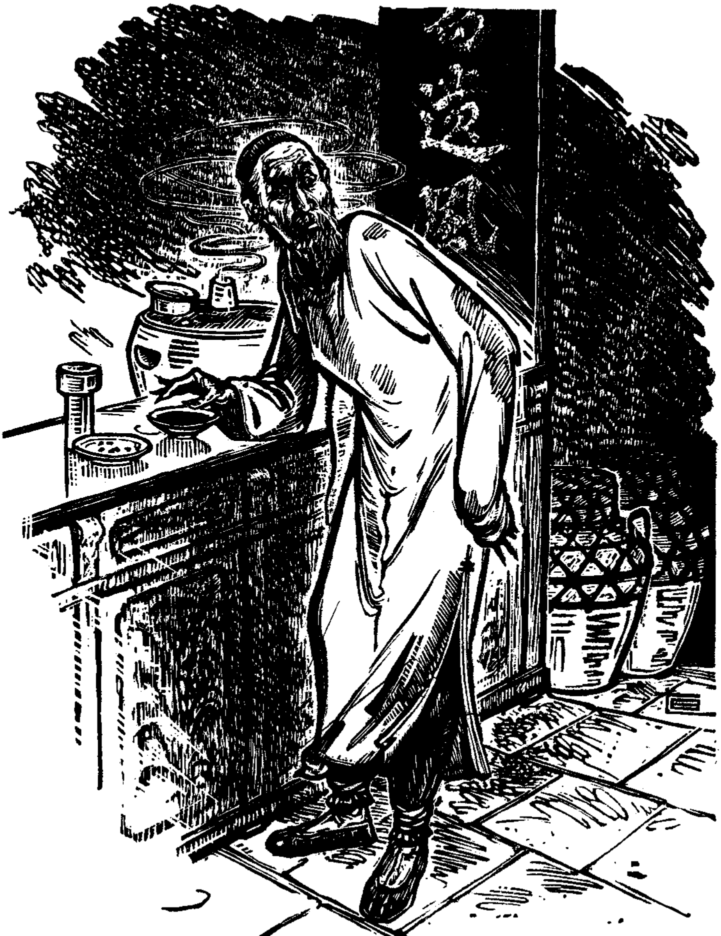
فكيف يأمل رجل مثلي ، بعد اربعة آلاف سنة من تاريخ

أكل اللحم البشري — حتى لو كان لا يعرف شيئا عنه في بادئ الامر — ان يلقى أناسا حقيقيين ؟

— ١٣ —

من الجائز ان هناك أطفالا ما زالوا لم يأكلوا الآدميين ؟
فانقذوا الاطفال . . .

نيسان ١٩١٨



للفنان سون بنغ خنغ

كونغ أي تشي

حانات النبيذ في لوتشن لا تشبه غيرها في الاجزاء الاخرى من الصين . ففي جميعها منصات قائمات الزوايا تواجه الشارع وتحتفظ هذه الحانات دائما بماء ساخن لتدفئة النبيذ وحين يخرج الناس من أعمالهم في منتصف النهار ، وفي المساء يبتاعون أكوازا من النبيذ كان يكلف الواحد منها قبل عشرين عاما أربعة دراهم . أما الآن فيكلف عشرة . وكان رواد الحانة يقفون الى جانب المنصة ويحتسون النبيذ دافئا ليسترخوا . ويشترون بدرهم واحد صحنا من اعواد البامبو المملحة ، او من البقول المطعمة باليانسون ليؤكل مع النبيذ ، وفي وسعك ان تدفع عشرة دراهم ثمنا لصحن من اللحم . غير ان معظم رواد الحانة كانوا من ذوي المعاطف القصيرة لا يقتدر على ذلك الا القليل منهم . وكان

ذوو المعاطف الطويلة وحدهم يدخلون الى الغرفة الخاصة ، ويطلبون نبيذا وأطباقا ، ويجلسون ليحتسوا الشراب على مهل .

عندما كنت في الثانية عشرة اشتغلت خادما بحانة الرفاه في مدخل البلدة . وقد قال لي صاحب الحانة انني أبدو شديد الحماقة فلا أليق لخدمة الزائرين ذوي المعاطف الطويلة ، فعهد الي عملا في الغرفة الخارجية . ورغم ان الزائرين ذوي المعاطف القصيرة كان ارضاؤهم أيسر فقد كان هناك عدد قليل جدا من صانعي المتاعب ايضا . فقد كانوا يصرون على ان يراقبوا بأعينهم النبيذ الاصفر وهو يغرف من البرميل الصغير ، ويتطلعون ليروا هل في قعر ابريق النبيذ ماء ، ويتفقدون بأنفسهم تغطيس الابريق في الماء الحار . ومن جراء هذا التحديق الدقيق كان من العسير جدا غش النبيذ . ولهذا قرر رئيسي بعد ايام قليلة انني غير صالح لهذا العمل . ومن حسن الحظ ان واحدا من ذوي النفوذ قد أوصاه بي فلم يستطع طردي ، وانتقلت الى عمل مضجر ، عمل تدفئة النبيذ .

ومنذ ذاك الحين كنت اقف طوال النهار وراء المنصة منهمكا في اداء واجباتي . ورغم انني قد ارتضيت هذا العمل فقد وجدته عملا مكررا من دون جدوى . وكان صاحب الحانة رجلا صارم النظرات ، وكان الزبائن خشني الطباع كثيرا ، ومن المستحيل ان يبتهج المرء في مثل هذه الحال . ولم يكن في ميسوري ان أضحك قليلا الا حين يأتي كونغ ئي تشي الى حانتنا . وهذا هو السبب الذي يجعلني أتذكره حتى الآن .

كان كونغ الزائر الوحيد من ذوي المعاطف الطويلة الذي يحتسي النبيذ واقفا . وكان رجلا كبير الجسم شاحبا على نحو غريب وغالبا ما تظهر الندوب بين غضون وجهه . وكانت له لحية كبيرة شعثاء وخطها الشيب . ورغم انه كان يرتدي معطفا طويلا ، فقد كان معطفه قذرا ممزقا يبدو كأنه لم يغسل ولم يصلح منذ عشرة اعوام . وكان يستخدم كثيرا من الكلمات التي تحمل معاني العنجهية والعجرفة ، فمن المستحيل فهم نصف ما يقول . وكان لقبه كونغ أو « كونغ ئي تشي » . والحروف الثلاثة الاولى مأخوذة من كراسة للاطفال . وكان كلما يأتي الى الحانة ينظر اليه كل الحاضرين ، ويضحكون بخفوت . وكان بعضهم يقول له : « كونغ ئي تشي . في وجهك ندوب جديدة . »

وكان كونغ ئي تشي يتجاهل هذا القول ، ويأتي الى المنصة ليطلب كوزين من النبيذ المدفأ ، وطبقا من البقول المطعمة باليانسون . وكان يقدم تسعة دراهم . ثم يدعوه احد الناس بصوت عال عن قصد : « لا بد من أنك عدت الى السرقة ثانية . »

فكان كونغ ئي تشي يسأل وهو يفتح عينيه على وسعهما : « لماذا تشوه سمعة انسان طيب دون أساس ؟ »

فأجاب أحد الزبائن : « وي ! انسان طيب ؟ ! لقد رأيتك يوم أمس بأم عيني معلقا وهم يضربونك لسرقتك الكتب من عائلة "هو" . »

فيحمر كونغ وتتصلب شرايين جبهته ويقول معترضا : «أخذ كتاب لا يمكن ان يعتبر سرقة . . . اخذ كتاب ، هو شأن

العلماء . لا يمكن ان يعتبر سرقة ! » ثم يردف ذلك بشواهد من التراث القديم مثل « الماجد يحافظ بنزاهته حتى عند الاملاق» (١) . ثم يستمر متقعرا في كلمات غير مفهومة ، حتى ينفجر كل انسان ضاحكا ، ويسود المرح الحانة .

سمعت في احدى الاشاعات ان كونغ ئي تشي كان قد درس التراث القديم . لكنه لم ينجح في امتحان رسمي قط . ولما كان لا يملك وسيلة للرزق فقد تردى في مهاوي الفقر اكثر فاكثر ، حتى انحدرت به الحال الى الاستجداء . ومن حسن الحظ انه كان يحسن تجويد الخط ، واستطاع ان يقوم بعمل استنساخ الكتب ، وينال منها رزقه . وله حظ سيئ ، ومعايب كثيرة ، فهويعاقر الخمر ، كسول ، وكان يختفي على الدوام بضعة ايام آخذا معه الكتب والاوراق والريش وحجر الحبرثم يبيعها ، ويصرف ثمنها . وبعد ان حصل ذاك عدة مرات لم يعد الناس راغبين في استخدامه ناسخا . وحينذاك لم يكن امامه غير طريق النشل ، الا ان سلوكه كان في حانتنا نموذجيا . فبالرغم من ان اسمه كان يظهر ، في بعض الاحايين حين لا يكون في حوزته مال ، في اللوحة التي نسطر عليها اسماء المدينين. ومع ذلك فانه كان يسدد ديونه دائما في اقل من شهر ويمسح اسمه من اللوحة مرة اخرى .

وبعد ان يشرب نصف كوز من النبيذ يستعيد رصانته،

---

(١) من مختارات كونفوشيوس .

ويكاد ينسى آلامه ، ولكن يفاجئه أحد الناس بسؤال : « كونغ ثي تشي ، هل تعرف القراءة حقا ؟ »

وحين يبدو كونغ كأن مثل هذا السؤال أحقر من ان يرد عليه كانوا يتابعون السؤال : « كيف لم تنجح قط في أسهل امتحان رسمي ؟ »

حينذاك يبدو كونغ مكتئبا قلقا ، ويمتقع وجهه وترتجف شفتاه ، ولكنه لا ينطق بغير تلك التعابير القديمة العويصة . وهناك يضحك كل الحاضرين من اعماق قلوبهم ، ويسود المرح القاعة مرة اخرى .

وفي تلك الاحايين كان في ميسوري ان اشترك في الضحك دون ان أنال توبيخ سيدي . وفي الحقيقة كان سيدي نفسه يسأل كونغ مثل هذه الاسئلة ليثير الضحك . وكان كونغ يتحدث معنا نحن الاطفال وهو يعلم ان ليس من فائدة للتحدث مع اولئك الناس . وذات مرة سألني : « هل دخلت لأي مدرسة ؟ »

وحين هززت رأسي بالايجاب قال : « حسنا اذن سأختبرك كيف تكتب كلمة " هوي " في كلمة " هوي شيانغ " (١) ؟ »

وفكرت في نفسي : « لا أريد ان يختبرني شحاذ ! » فانصرفت عنه ، وتجاهلته . وبعد ان انتظر برهة قال بلهجة جادة جداً : « ألا تستطيع كتابتها ؟ سأريك ذلك . » ثم التفت الي وتابع قوله : « يجدر بك ان تتذكر مثل هذه الحروف ، لأنك حين تمتلك

---

(١) هوي شيانغ : بقلة يانسون .

حانة فيما بعد فستحتاجها حين تجري حساباتك . »

وبدا لي ان امتلاكي حانة خاصة بي ما يزال بعيدا . وفضلا عن ذلك فان صاحب الحانة لم يدخل بقول الهوي شيانغ في دفتر الحسابات قط . فرددت في هزء وغيظ وفتور : « من الذي اختارك ان تكون معلما . أليس لهوي حروف هاء ، واو ، ياء ؟ »

ابتهج كونغ ، وضرب المنصة بظفرين طويلين وقال هازا رأسه : « حقا ! حقا ليس هناك غير أربع طرق لكتابة هوي . هل تعرفها ؟ » نفد صبري ، فقطبت وجهي ، وابتعدت .

غمس كونغ ئي تشي اصبعه في النبيذ ليخط الحرف على المنصة وحين رأى شدة انصرافي عنه تنهد ، وبدا على أشد ما يكون من الاكتئاب .

في بعض الاحيان كان اطفال جيراننا حين يسمعون الضحك يأتون ليشتركوا في المزاح ، وحين يحيطون بكونغ ئي تشي يعطي كل طفل من الباقلاء المطعمة باليانسون باقلة واحدة . ويظل الاطفال متلكئين بعد ان يأكلوها ، وعيونهم عالقة في الطبق فيضطرب كونغ ، ويغطي الطبق بيده ، ويميل بجذعه ويقول : « ليس هناك كثير ، ليس عندي أكثر من هذا . » ثم ينتصب لينظر الى الباقلاء ثانية ، ويهز رأسه : « ليس كثيرا ، يقيناً ليس كثيرا ! » عند ذاك يتفرق الاطفال صارخين ضاحكين .

لقد كان كونغ ئي تشي طريفا جدا . بيد أن امورنا كانت تمشي من دونه ايضا .

وذات يوم ، قبل ان يحل مهرجان منتصف الخريف بأيام ،

كان صاحب الحانة منكبا على مراجعة حساباته . وأنزل اللوحة من الحائط . وقال فجأة : « منذ زمن طويل لم يأت الينا كونغ ئي تشي . هو ما يزال مدينا لنا بتسعة عشر درهما ! »

وأدركت من ذلك ان زمنا طويلا قد انقضى منذ ان رأينا فيه كونغ آخر مرة .

قال احد الزبائن : «كيف يستطيع أن يأتي . لقد كسرت ساقاه حين ضرب في المرة الأخيرة . »

« وي ! أعاد الى السرقة ؟ ! »

«نعم . . . عاد الى السرقة مرة اخرى . وفي هذه المرة وصل غباؤه الى حد انه سرق السيد تينغ احد الاعيان ! وهل في استطاعة احد ان يفلت منه ؟ ! »

« وماذا بعد ؟ »

« ماذا بعد ؟ في بادىء الامر كان عليه ان يكتب اعترافا ثم ضرب ، وظل يضرب الليل كله تقريبا ، حتى كسرت ساقاه . »

« وبعد ذلك ؟ »

« بعد ذلك اصبحت ساقاه مكسورتين . »

« نعم ، ولكن بعد ذلك ؟ »

« بعد ذلك ؟ . . . من يدري ! لعله قد مات . »

ولم يتابع صاحب الحانة اسئلته ، ولكنه مضى يراجع حساباته ببطء .

وبعد مهرجان منتصف الخريف اخذت الريح تشتد برودتها

كل يوم ، حتى حل الشتاء . ورغم انني كنت اقضي كل وقتي بالقرب من الموقد ، فقد كان علي ان ألبس لبادة مبطنة . وذات يوم بعد الظهر ، حين كانت الحانة فارغة وكنت جالسا ، وعيناي مقفلتان سمعت صوتا : « ادفئ كوزا من النبيذ . »

وكان الصوت خفيضا جدا ، ولكنه مألوف . وحين رفعت بصري لم أر احدا هناك . فنهضت ونظرت نحو الباب . فاذا كونغ ئي تشي جالس هناك تحت المنصة في مواجهة الباب وكان وجهه مزرقا هزيلا ، وهو يلوح في حال مزرية ويرتدي معطفا مخططا رثاً ، ويجلس متربعا على حصيرة تتصل في منكبيه بحبل من القش . وحين رآني كرر القول : « أدفء كوزا من النبيذ . »

وفي تلك اللحظة أمال صاحب الحانة رأسه نحو المنصة وقال : « أ هذا كونغ ئي تشي ؟ أنت ما تزال مدينا لي بتسعة عشر درهما . »

فأجاب كونغ ئي تشي وهو يبدومكتئبا : « ذلك . . . سأسدده في المرة القادمة . . . والآن عندي نقود جاهزة فليكن نبيذا جيدا . »

ضحك صاحب الحانة بصوت خفيض كما كان يفعل في الماضي وقال : « يا كونغ ئي تشي ! هل عدت الى السرقة ؟ »

وبدلا من ان يحتج بشدة قال مبتسما : « انت تحب المزاح. »

فأجاب صاحب الحانة : « مزاح ؟ اذا كنت لم تسرق ، فلم كسروا ساقيك ؟ »

قال كونغ بصوت خفيض : « سقطت . لقد كسرتا في

سقطة . » وتوسلت عيناه الى صاحب الحانة ان يكف عن هذا الامر . وفي غضون ذلك تجمع بعض الناس ، وطفقوا يضحكون جميعا . وأدفأت النبيذ ، وحملته ووضعته على العتبة . وأخرج كونغ من معطفه الرث اربعة دراهم ، ووضعها في يدي . وحين فعل ذلك رأيت يديه مغطاتين بالطين ، فلا بد من انه زحف الى هنا على هذا النحو . وعلى الفور انتهى من احتساء النبيذ ، ووسط الضحك وتعليقات الآخرين سحب نفسه ببطء زاحفا على يديه .

وانقضى زمن طويل دون ان نرى كونغ ثانية وفي نهاية العام ، حين أنزل صاحب الحانة اللوحة قال : « ما يزال كونغ ئي تشي مدينا بتسعة عشر درهما ! » وفي مهرجان زورق التنين في العام التالي أعاد نفس القول . ولكنه لم يذكر ذلك عند ما جاء مهرجان منتصف الخريف . وحل عام جديد آخر دون ان يقع نظرنا عليه .

وحتى الآن لم أره — فلعل كونغ ئي تشي قد مات حقا .

مارس ١٩١٩

دواء

— ١ —

كان الفصل خريفا ، في الساعات الأول من الصباح . وقد أفل القمر ، والشمس لم تطلع بعد ، ولاحت السماء كصفحة زرقاء داكنة . . كان كل شيء نائما باستثناء جوابي الليل . وفجأة نهض تشوان العجوز وجلس في الفراش . وأشعل عود ثقاب ، وأوقد مصباح غاز مغطى سطحه بالزيت ، فأرسل المصباح ضوءا شاحبا في غرفتي مشرب الشاي .

وصاحت امرأة عجوز تقول : « هل أنت ذاهب الآن ؟ »

وسمع من الحجرة الصغيرة الداخلية سعال : « أوه . . أوه . . أوه . »



للفنان قو بنغ سين

وأصغى تشوان العجوز الى سعال طفله الصغير وهو يزرر ملابسه ، ثم مد يده وقال : « أعطيني اياها . »

وبعد أن بحثت زوجته تحت المخدة قليلا أخرجت صرة دنانير فضية ، وأعطتها له . فوضعها تشوان العجوز في جيبه بحذر وتألم ، وضغط على جيبه مرتين ، ثم أشعل فانوسا ورقيا ، وأطفأ مصباح الغاز ، وذهب الى الغرفة الداخلية وسمعت خشخشة ثياب ، ثم سعال شديد . وحين عاد السكون نادى تشوان العجوز برقة : « ولدي ! . . . لا تنهض من فراشك . ان والدتك ستتفقد المشرب . »

وعندما لم يتلق جوابا ظن ان ابنه ما زال غارقا في نومه ، فخرج الى الشارع . وفي الظلمة لم يكن من الميسور رؤية شيء ما خلا الطريق الرمادي . وكان ضوء الفانوس يسقط على قدميه المتحركتين وبين تارة وأخرى يمر بكلاب ، ولكن ! لم ينبح أحد منها . وكان الجو أشد برودة من داخل البيت ، ومع ذلك فقد ارتفعت معنويته ، وكأنه عاد أكثر شبابا فامتلك قوة خارقة تجدّد الحياة . فزاد من سرعة خطاه ، وأصبح الطريق أكثر وضوحا ، والسماء أكثر تألقا .

وبينا هو منهمك في سيره إذ أحس بالخوف عندما رأى مفترق الطرق يمتد أمامه بوضوح ، فارتد خطوات ليقف تحت ظليلة دكان أمام بابه الموصد . وبعد قليل أحس برعشة برد . فقال احدهم بسخرية : « آه . حتى العجوز خرج للتفرج . » وقال آخر : « يبدو ان هذا العجوز مرح ايضا ! »

سار تشوان العجوز ثانية ، فاتحا عينيه ، فرأى أناسا كثيرين يمرون . واستدار احدهم لينظر اليه ، ورغم انه لم يستطع ان يتبينه بوضوح فان عيني الرجل أرسلتا بريقا نهما مثل نظرات رجل متضور جوعا الى الطعام . نظر تشوان العجوز الى فانوسه فرآه منطفئا . وربت على جيبه – ما زالت الصرة الصلبة هناك . ثم نظر فيما حوله ، فرأى عددا من غرباء الناس يتسكعون زرافات ووحدانا مثل ارواح هائمة . ولكنه حين حدق بهم لم ير أي شيء غريب آخر حوله .

وفي الحال رأى بعض الجنود يتجولون ، وعلى ملابسهم العسكرية دوائر كبيرة بيضاء من امام ومن خلف كانت تلوح واضحة حتى عن بعد . وكلما اقتربوا كان من الميسور رؤية الحواشي الحمراء الداكنة . وفي اللحظة الثانية اندفعت جماعة تطرق الارض باقدامها . وحينذاك تقاربت الجماعات قليلا قليلا حتى وصلت في وقت مبكر ، مندفعة الى الامام وقبيل وصولها الى مفترق الطرق توقفت بغتة ، وتجمعت في نصف دائرة .

نظر تشوان العجوز في ذلك الاتجاه ايضا ، غير انه لم يستطع ان يرى غير ظهورهم . كانوا يمدون اعناقهم الى اقصى ما يستطيعون وبدوا كأنهم سرب كبير من البط ، تمسك بهم وترفعهم الى اعلى يد غير منظورة . وظل كل شيء هادئا برهة من الزمن ، ثم سمع صوت ، وسرى اضطراب بين المشاهدين . . . وتراجعوا بتدافع وقعقعة ساحبين في طريقهم تشوان العجوز حتى كادوا يلقونه أرضا .

«هيه ! اعطني النقود ، أسلم لك البضاعة . »

قالها رجل مسربل بملابس سوداء واقفا امامه . وعيناه الحادتان كخنجرين جعلتا تشوان العجوز ينكمش الى نصف حجمه . كان الرجل يبسط كفا ضخمة ، ويمسك بالكف الاخرى قرصا من الخبز المخبوز على البخار تتساقط منه قطرات حمراء قانية على الارض.

أسرع تشوان العجوز يفتش عن دنانيره ، وعندما كان يسلمها الى الرجل كانت يده ترتجف ، ولم يجرؤ على اخذ الشيء . ونفد صبر الرجل ، وصاح فيه : « مم تخاف ؟ لماذا لا تأخذه ؟» وحين استمر تشوان العجوز على تردده ، انتزع الرجل ذو الحلة السوداء فانوسه ، وشق ورقة ، ولف فيها كرة الخبز ، ووضع اللفة في يد تشوان العجوز ، وفي نفس الوقت ، أمسك بالقطع الفضية ، وتحسسها بعجالة ، ثم مضى في سبيله وهو يتمتم : « عجوز معتوه . »

وبدا تشوان العجوز كأنه يسمع شخصا يسأله : « لعلاج أي مرض هذه ؟ » غير انه لم يجب بشيء . وكان فكره كله مركزا في اللفة التي يحملها بعناية وكأنها الوارث الوحيد لبيت قديم . لا شيء آخر يهم الآن . وهو في الوقت الحاضر موشك على ان يزرع هذه الحياةالجديدة في بيته ، ويجني سعادة جمة . وقد حان وقت شروق الشمس ، فأضاءت امامه الطريق الواسعة التي تؤدي به الى بيته ، ووراءه كانت لوحة مفترق الطرق البالية بكلماتها الذهبية الباهتة : « جناح ” قوو “» .

— ٢ —

حين وصل تشوان العجوز الى البيت كان المشرب قد نظف ، وكانت صفوف موائد الشاي لامعة زاهية . ولكن احدا من الزوار لم يصل بعد . كان ابنه وحده يجلس امام مائدة موضوعة الى جانب الحائط يأكل . وحبات العرق تتبعثر على جبينه ومعطفه المخطط ملتصق على ظهره ، ولوحتا منكبيه بارزتان بوضوح تبدوان كأنهما تشكلان قوسا . وحين رأى تشوان العجوز ذلك عاد حاجباه الى التقطيب بعد ان كانا منبسطين . وهرعت اليه زوجته من المطبخ بعينين والهتين ، وشفتين مرتجفتين :

« أ حصلت عليه ؟ »

« نعم ! »

ودخلا المطبخ معا ، وتداولا الامر زمنا . ثم خرجت العجوز ، وعادت بعد هنيهة ومعها ورقة « لوتس » مجففة بسطتها على المائدة ، وفك تشوان العجوز الكرة القرمزية من ورق الفانوس ونقلها الى ورقة اللوتس . وانتهى تشوان الصغير من طعامه غير ان امه صاحت بسرعة : « اجلس ساكنا ، يا تشوان الصغير ، ولا تأت الى هنا ! »

وبعد ان أصلح تشوان العجوز النار في الموقد ، رمى اللفة الخضراء ، وورق الفانوس الاحمر والابيض في الموقد ، فتصاعد لهب داكن ، وامتلأ المشرب برائحة غريبة .

« رائحة طيبة ! ماذا تأكل ؟ » قالها الاحدب . وهو من

اولئك الذين يمضون كل اوقاتهم في المشارب ، وكان اول من يأتي في الصباح ، وآخر من يغادر المشرب . والآن وصل متعثرا ثم اتجه الى مائدة في احد الاركان تواجه الطريق ، وجلس . ولكن احدا لم يجب على سؤاله : « أ تأكلون عصيدة رز ؟ »

ما زال دون جواب . وهرع تشوان العجوز ليصنع له شايا .

« تعال هنا يا تشوان الصغير ! » نادته امه من الغرفة الداخلية ، ووضعت مقعدا في الوسط ، واجلست الطفل عليه ، ثم قدمت له شيئا اسود مدورا في صحن ، وقالت له برقة : «كله حتى آخره . . . وستكون في حال أحسن . »

وتناول تشوان الصغير الشيء الاسود ، وحدق به . وخامرته أغرب المشاعر ، وكأنه يمسك حياته بين يديه . وفي الحال فتحه في عناية ، فانبعثت من القشرة المحروقة نفثة دخان ابيض ، ثم تبعثرت دون ان تترك وراءها غير نصفين من قطعة الدقيق الابيض المبخر . واذ فرغ من اكلها لم يبق للبخار من أثر ، وبقي الصحن فارغا . وكان ابوه وأمه واقفين الى جانبيه ، وعيونهما تبدوكأنها تصب شيئا في الطفل ، وتستخرج منه شيئا آخر . وبدا قلبه الصغير يخفق خفقانا سريعا ، وطفق يسعل ثانية واضعا يديه على صدره . فقالت أمه : « نم قليلا ، وستتحسن حالك . »

وامتثل تشوان الصغير قولها ، وسعل يهيء نفسه للنوم وانتظرت المرأة حتى انتظم تنفسه ، ثم غطته في هدوء بدثار مرقع برقع كثيرة .

— ٣ —

كان مشرب الشاي مزدحما ، وتشوان العجوز مشغولا يحمل مغلاة نحاس كبيرة ليصب الشاي للزائرين واحدا بعد آخر . وكانت تحت عينيه دو ائر داكنة :

سأله رجل ذو لحية وخطها الشيب :

« لست في حال جيدة يا تشوان العجوز . ماذا دهاك ؟ »

« لا شيء . »

« لا شيء ؟ . . . احسب من ابتسامتك ان لا يمكن . . . »

وأصلح العجوز من شأنه .

وقال الاحدب : « ان تشوان العجوز مشغول ليس غير . لو ان ابنه . . . » وقبل ان ينتهي من كلامه اندفع الى الداخل رجل ضخم الفكين ، يضع على كتفيه قميصا داكنا غير مزرر ، يشده دون انتظام حزام عريض داكن مشدود الى وسطه . وفي الحال صاح في تشوان العجوز : « هل تناوله ؟ أ لم تتحسن حاله قليلا ؟ ليسعدك الحظ يا تشوان العجوز . وأي حظ كبير عندك يا تشوان العجوز . . لو لم اسمع بخبر الاعدام لضاع الدواء . »

انصت تشوان العجوز مبتسما ، واحدى يديه ممسكة بالمغلاة والثانية ممتدة الى جانبه تعبيراً عن الاحترام . والواقع ان الحاضرين جميعا كانوا يصغون باحترام . واقبلت المرأة العجوز مبتسمة ، وتحت عينيها هي الاخرى دوائر سوداء ، وفي يدها كوب وابريق فيه اوراق الشاي مضافا اليها زيتون ، فسكب تشوان العجوز على

الاوراق ماء مغليا ليعد الشاي لقادم جديد .

«هذا علاج مضمون ! ليس كالاشياء الاخرى . فما عليك الا ان تفكر بأن الدواء جلب دافئا ، وأكل دافئا . » اعلن ذلك ذو الفكين الكبيرين .

قالت المرأة العجوز وهي تشكره بحرارة : « نعم حقا ، لم يكن في ميسورنا ان ندبره لو لا معونة العم كانغ . »

« علاج مضمون ! يؤكل دافئا على هذا النحو . ان قرصا مغموسا بالدم البشري مثل هذا يستطيع ان يشفي أي مسلول ! »

وبدت المرأة العجوز مرتبكة قليلا لدى سماعها كلمة « مسلول » ولاح عليها ظل من الشحوب ، بيد انها اجبرت نفسها على الابتسام ثانية وفي الحال ، وجدت لها عذرا للانصراف . وفي نفس الوقت ظل ذو القميص الداكن سادرا حتى تكلم بأعلى صوته فاستيقظ الطفل في الغرفة الداخلية ، وطفق يسعل .

« اذن فقد واتاك الحظ بالنسبة لابنك تشوان الصغير . انه سيشفى من علته تماما . فلاعجب ان يظل تشوان العجوز مبتسما . » حين كان ذو اللحية الرمادية يقول هذا ، مشى الى الرجل ذي الملابس الداكنة ، وخفض صوته ليسأله :

« يا سيد كانغ ! سمعت ان المجرم الذي اعدم اليوم هو من عائلة شيا . . فمن هو ؟ ولماذا اعدم ؟ »

« من هو ؟ . . ابن الارملة شيا ، شاب محتال . »

وعندما رآهم متعلقين جميعا بكلماته ارتفعت معنويته أكثر ، واخذ فكاه يرتجفان ، وجعل صوته يرتفع الى أعلى ما يستطيع : «لم

يكن المحتال يريد ان يعيش ، انه لم يرد أن يعيش ! ولم يكن لي شأن به هذه المرة ، وحتى الملابس التي نزعت منه ، اخذها السجان ذو العين الحمراء . وكان تشوان العجوز صاحبنا أكثر حظا ، ويأتي بعده العم الثالث هو شيا . فقد وضع في جيبه المكافأة كلها — خمسة وعشرين قطعة من الفضة البراقة — ولم يكن عليه ان يصرف فلسا واحدا ! »

وخرج تشوان الصغير من الغرفة الداخلية ماشيا ببطء ويداه على صدره ، وهو يسعل باستمرار ، ومضى الى المطبخ ، وملأ طاسا بالرز البارد ، واضاف اليه ماء حارا ، وجلس يأكل . وسألته أمه برقة ، وكانت تحوم حوله : « هل تحس بتحسن يا ولدي . أ ما زلت تحس بالجوع كما تحسه من قبل ؟ »

نظر كانغ الى الطفل قائلا : « علاج مضمون ! » والتفت وخاطب الحاضرين : « العم الثالث شيا رجل ذكي حقا . فلو لم يبلغ عنه لأعدمت حتى عائلته ، وصودرت املاكها . ولكن بدلا من ذلك ؟ . . فضة ! ان ذلك الشاب المحتال كان نذلا حقيقيا ! فانه استطاع ان يغوي حتى السجان على التمرد ! »

« آه ! كيف جرأ على ذلك ! » قال رجل في العقد الثالث ، وهو يجلس في الصف الخلفي ، معبرا عن الحنق .

« انت تعرف ، ان ذا العين الحمراء ذهب ليستنطقه ، ولكنه طفق يجاذبه الحديث . فقال ان امبراطورية مانشو العظيمة هي لنا . ففكر : أ هذا حديث معقول ؟ وقد علم ذو العين الحمراء ان ليس له في البيت غير ام عجوز ولكنه لم يتصور قط انه بهذه

الحال من الفقر . فلم يستطع اعتصار أي شيء منه ، وقد تملكه الغضب الشديد ، ثم ان الشاب الاحمق "حك رأس النمر" فصفعه صفعتين . »

هتف الاحدب فرحا وهو في ركنه بجوار الحائط : « ذو العين الحمراء ملاكم كبير ، فلا بد من ان تينك الصفعتين قد آذتاه . »

ثم تابع كانغ قوله : « ان السفيه لم يكن خائفا من ان يضرب. بل قال : لشد ما هو آسف . »

قال ذو اللحية الشمطاء : « لا شيء يؤسفه في ضرب شرير كهذا . »

نظر كانغ اليه في انفة ، وقال في ازدراء : « أخطأت الفهم . ان الطريقة التي قال بها هي أنه كان آسفا على ذي العين الحمراء . »

وأومضت عيون المستمعين اليه ، ولم ينبس أي واحد منهم ببنت شفة . وانتهى تشوان الصغير من تناول رزه ، وقد عرق عرقا غزيرا ، وتوهج رأسه .

قال ذو اللحية الشمطاء وكأنه رأى النور فجأة : « آسف على ذي العين الحمراء – معتوه ! لا بد من انه معتوه ! »

فردد الشاب في العقد الثالث من العمر : « لا بد من انه معتوه ! »

وانتعش الحاضرون مرة اخرى ، واستؤنف الحديث . وفي خضم الضوضاء تملكت الطفل نوبة سعال . وجاء كانغ اليه ، وأمسكه من كتفه وقال : « علاج مضمون ! لا تسعل هكذا يا تشوان الصغير ! علاج مضمون ! »

« معتوه ! » قال الاحدب موافقا وهو يهز رأسه .

— ٤ —

في الاصل كانت الارض المجاورة لسور المدينة خارج الباب الغربي ارضا عامة . وأصبح الدرب الملتوي المنحدر عبرها، والمتأكل من وطء الاقدام الباحثة عن طريق قصير خط حدود طبيعيا لها . والى يسار الدرب تدفن جثث المجرمين الذين يعدمون ، أو السجناء الذين يموتون اهمالا وهم في السجن . وفي يمين الدرب كانت قبور الفقراء . وتبدو صفوف القبور المرتفعة قليلا على كلا الجانبين مثل كرات الخبز المتراكمة المعروضة في عيد ميلاد رجل غني .

وفي ذلك العام كان الطقس في مهرجان تشينغ مينغ باردا على نحو غير مألوف . وأشجار الصفصاف لم تتفتح عليها الا براعم صغيرة بحجم حبات القمح . وبعد بزوغ النهار بوقت قصير جاءت زوجة تشوان العجوز بأربعة اطباق وطاس رز لتضعها أمام قبر جديد في الجانب الايمن من الدرب ، واخذت تبكي أمامه . وحين أحرقت اوراق النقد جلست على الارض صامتة ساكنة كأنها تنتظر شيئا . ولكن اي شيء؟ هي نفسها لم تعرف . وهبت نسمة عبثت بشعرها القصير الذي كان — بلا ريب — أشد بياضا من العام المنصرم .

وهبطت الدرب امرأة اخرى ذات شعر أشيب ترتدي أسمالا. وكانت تحمل سلة قديمة مدورة ذات لون أحمر يتدلى منها

سلك من اوراق النقد ، وسارت تظلع . وحين رأت زوجة تشوان العجوز جالسة على الارض تراقبها ، ترددت ، ولاح على وجهها الشاحب وميض من الخجل . ولكنها استجمعت شجاعتها لتعبر الدرب الى قبر في الجانب الايسر ، وهناك وضعت سلتها .

كان ذلك القبر مواجها تماما لقبر تشوان الصغير لا يفصلهما غير الدرب . وحين كانت زوجة تشوان العجوز تراقب المرأة الاخرى وهي تضع اربعة اطباق ، وطاس رز ، ثم تقف منتحبة حارقة اوراق النقد فكرت في نفسها : لا بد من انه ابنها ايضا . وخطت المرأة العجوز خطوات على غير هدى ، وحدقت حولها ذاهلة ، ثم طفقت فجأة ترتجف ، وتتمايل الى الوراء . وأصابها دوار .

لعل الحزن قد سلبها رشدها ! ونهضت زوجة تشوان العجوز ، وعبرت الدرب لتقول بخفوت : « لا تحزني ، ولنعد الى البيت . »

وهزت الاخرى رأسها ، ولكن عينيها ما زالتا جامدتين وتمتمت : « انظري . . . ما هذا ؟ »

ونظرت زوجة تشوان العجوز الى حيث اشارت المرأة فرأت القبر أمامها لم ينم العشب حوله بعد . وما زالت بقع التربة القبيحة بادية للعيان . ولكنها حين امعنت النظر دهشت اذ رأت في اعلى القبر باقة من الازهار البيضاء والحمراء .

كانت كلتاهما تعانيان ضعف البصر بيد انهما استطاعتا ان تريا الازهار الحمراء والبيضاء بوضوح . ولم تكن ازهارا كثيرة ولكنها كانت موضوعة في حلقة ، ورغم انها لم تكن فتية جدا ،

الا انها كانت مرتبة في عناية ، وادارت ام تشوان الصغير طرفها فيما حولها فرأت قبر ابنها ، كمعظم القبور ، عليه ازهار صغيرة شاحبة قليلة ترتجف بالبرد . وفجأة اعتراها شعور بالكدر والفراغ ، غير انها لم ترض عن استدراك مصدره .

وفي غضون ذلك كانت المرأة العجوز قد اقتربت من القبر لتنظر اليه عن كثب . وقالت لنفسها : « ليستلها جذور ، فلا يمكن ان تنمو هنا . فمن الذي جاء الى هنا ؟ الاطفال لا يأتون الى هنا ليلعبوا . وما من احد من اقربائنا يأتي الى هنا ابدا . فما الذي حصل ؟ » وتملكتها الحيرة من الامر ، حتى تحدرت الدموع من عينيها فجأة ، وطفقت تبكي بصوت عال : « يا ولدي ، لقد جاروا عليك جميعا وأنت لم تنس ، أما زال حزنك شديدا حتى صنعت اليوم هذه الاعجوبة لتجعلني أعرف ؟ »

ونظرت فيما حولها ، ولكنها لم تر غير غراب يحط على فرع لا أوراق له . واستمرت تقول : « انا أعرف . لقد قتلوك ولكن يوم الحساب آت ، وستتكفل السماء بذلك . فأغمض عينيك في سلام . . . فاذا كنت هنا حقا ، وفي وسعك ان تسمعني فاجعل ذلك الغراب يطير الى قبرك علامة على ذلك . »

كان النسيم قد هدأ منذ زمن ، وانتصبت الاعشاب الجافة ساكنة مستقيمة كأسلاك من النحاس ، واهتز في الهواء صوت خافت مرتعش ، ثم ضمر وتلاشى . وكان كل شيء فيما حول العجوزين ساكنا كالموت . فجلستا على العشب الجاف تتطلعان الى الغراب بينما وقف الغراب على الغصن الصلب ، منحني

الرأس ، ساكنا كغراب من حديد .

ومر وقت . وجاء جمع من الناس ، شبان وشيوخ لزيارة القبور .

وأحست زوجة تشوان العجوز على نحو غامض كأن ثقلا قد أزيح عن ذهنها ، وأرادت ان تغادر فقالت للأخرى حاثة اياها : « لنذهب . »

وزفرت المرأة العجوز زفرة ، وتناولت الاطباق والرز بفتور. وبعد لحظة من التردد ، مشت ببطء ، وهي تتمتم في نفسها : « ماذا يعني هذا ؟ »

وقبل ان تتخطيا ثلاثين خطوة سمعتا خلفهما نعيبا . فالتفتتا وراءهما فزعتين ، فرأتا الغراب يبسط جناحيه ، ويهيء نفسه للانطلاق ، ثم طار كالسهم نحو الافق البعيد .

نيسان ١٩١٩

الغد

« لا صوت ـ ما الذي جرى للطفل ؟ »

هز كونغ ذو الانف الأحمر رأسه نحو البيت المجاور وهو يتكلم ، وقدح النبيذ الاصفر بين يديه . ووضع آه او ذو الجلد الازرق قدحه ، وقرص الرجل الآخر قرصة قوية في ظهره . ودمدم بكلمات غير مفهومة :

« وي ! . . أ عدت عاطفيا مرة اخرى ! »

ان لوتشين الواقعة على بعد من الطريق العام كانت قديمة في نمط حياتها . فالناس يغلقون أبوابهم ، ويأوون الى أفرشتهم في الهزيع الاول من الليل . وعند ما ينتصف الليل لا يبقى مستيقظ فيها غير دارين : حانة الرفاهية حيث بعض الشرهين يعبون الخمر حول المشرب ، والبيت المجاور حيث تعيش زوجة « تان الرابع »



للفنان قو بنغ سين

وقد ترملت قبل عامين ولم يكن لها ما يعيلها ويعيل ابنها الطفل في الثالثة من العمر غير غزل القطن ، وعلى هذا النحو تظل مستيقظة الى وقت متأخر من الليل .

والحق ان أي صوت للغزل لم يسمع من البيت منذ عدة ايام . ولما لم يكن هناك غير بيتين يظلان مستيقظين حتى منتصف الليل فطبيعي ان كونغ وندماءه هم وحدهم الذين يستطيعون ان يلاحظوا اذا صدر صوت من بيت زوجة تان الرابع ، اولم يصدر.

وبعد ان قرص كونغ تلك القرصة أحس بارتياح تام ، وجرع جرعة كبيرة من خمره ، وترنم بنغم شعبي .

وفي نفس الوقت كانت زوجة تان الرابع جالسة على حافة سريرها ، و « باو اره » — كنزها — بين ذراعيها ، بينما كان مغزلها ملقى على الارض صامتا . وضوء المصباح الكابي يسقط على وجه باو اره الذي يبدو مزرقا تحت وهج الحمى .

قالت لنفسها مفكرة : لقد سحبت الاقداح امام المحراب ، ونذرت للآلهة نذرا وهو يتناول دواء مضمونا فماذا في وسعي ان أفعل اذا لم تتحسن حاله ؟ سآخذه الى الطبيب « هوو شياو شين » . ولكن قد يكون باو اره في حالة سيئة في الليل فحسب ، وحين تشرق الشمس في الغد تزول الحمى عنه ، ويتنفس بيسر ثانية . فان كثيرا من الامراض على هذا النحو .

كانت زوجة تان الرابع مرأة بسيطة ، لا تعرف أية كلمة مخيفة هي « لكن » . وبسبب « لكن » هذه تتحول كثير من الاشياء السيئة الى أشياء حسنة ، وتنقلب كثير من الاشياء الحسنة

الى أشياء سيئة . وليالي الصيف قصيرة وما ان كف كونغ والآخرون عن الغناء حتى أخذت السماء تتفتح منيرة في المشرق ، وفي الحال تسرب ضوء الفجر الفضي من خصاص النافذة .

وانتظار الفجر لم يكن امرا سهلا بالنسبة لزوجة تان الرابع ، كسهولته على الناس الآخرين . فالوقت يسير ببطء مفزع ، وكل نفس يلتقطه باو اره يبدو كأنه يستغرق دهرا . ولكن الدنيا الآن أنارت في آخر الامر ، وغطى ضوء النهار الثاقب على نور المصباح . وارتجف منخرا باو اره وهو يلتقط النفس لاهثا .

وخنقت زوجة تان الرابع عبرة ، لأنها عرفت أن ذلك نذير شؤم . ولكن ماذا في وسعها أن تفعل ؟ وفكرت بأن همها الوحيد أن تحمله الى الطبيب هوو . وقد تكون امرأة بسيطة ، ولكنها تملك ارادة نفسها . فنهضت ، ومضت الى الدولاب واخذت كل ما ادخرته ثلاثة عشر دينارا فضيا صغيرا ، ومئة وثمانين درهما نحاسيا ، ذلك كل ما تملك ووضعت النقود في جيبها ، وقفلت الباب ، وحملت باو اره الى بيت الطبيب هوو بأسرع ما استطاعت.

وفي ذلك الوقت المبكر كان هناك اربعة مرضى ينتظرون وأعطت أربعين درهما فضيا لورقة التسجيل ، وكان باو اره الخامس في قائمة الانتظار .

مد الطبيب هوو اصبعين ليحس نبض الطفل وكان اظفرا اصبعيه طويلين جدا وتعجبت زوجة تان الرابع في سرها ، وفكرت : « بالتأكيد سيصير ولدي باو اره الى شفاء . » ولكنها لم تستطع ان تتخلص من شعور القلق ، ولم تستطع أن تكف نفسها عن

التساؤل بعصبية .

« ما علة ولدي باو اره ، ايها الطبيب ؟ »

« انسداد في الجهاز الهضمي . »

« هل هو خطير ؟ . . . هل سيد . . . ؟ »

« خذي هاتين الوصفتين اولا . »

« هو لا يستطيع ان يتنفس ، ومنخراه يختلجان . »

« عنصر النار أقوى من عنصر المعدن . » (١)

وترك الطبيب جملته ناقصة ، وأغمض عينيه ، ولم ترغب زوجة تان الرابع في ان تقول شيئا آخر . وكان يجلس مقابل الطبيب رجل في العقد الرابع من العمر فرغ الآن من كتابة الوصفة . وقال لها مشيرا الى الحروف في احدى زوايا الورقة : « الاول حبات واقية للطفل . ولا تستطيعين ان تحصلي عليها الا في مخزن الانقاذ لعائلة تشيا . »

وتناولت زوجة تان الرابع الورقة ، وخرجت وهي تفكر . انها قد تكون امرأة بسيطة ، ولكنها كانت تعرف أن دار الطبيب هوو ومخزن الانقاذ ، ودارها تشكل مثلثا ، لهذا فالأمر أيسر بالطبع اذا ذهبت لتشتري الدواء قبل عودتها الى البيت وأسرعت الى مخزن الانقاذ بأكثر ما في مقدرتها . ورفع مأمور المخزن

---

(١) كان الصينيون القدامى يعتقدون بأن هناك خمسة عناصر : النار ، والخشب ، والتراب ، والمعدن ، والماء . والنار تغلب المعدن كما اعتبر الاطباء الصينيون القدامى أن القلب والرئتين والكبد ، والطحال ، والكلية تقابل العناصر الخمسة . وهنا يشير الدكتور بقوله هذا الى أن علة القلب قد أثرت في الرئتين .

هو الآخر أظافر طويلة وهو يقرأ الوصفة ببطء ، ثم لف الدواء بتؤدة . وانتظرت زوجة تان الرابع وباو اره بين ذراعيها . وبغتة بسط باو اره يدا صغيرة وشد خصلة شعره المتهدلة . وفي الماضي لم يفعل هذا قط ، فامتلأت أمه رعبا .

كانت الشمس قد ارتفعت عاليا . وكانت زوجة تان الرابع تحمل الطفل وحزمة الدواء ، وكلما أوغلت في المسير ثقل عليها حملها . كما استمر الطفل في اضطرابه ، فبدا الطريق أطول . واضطرت ان تجلس على عتبة بيت كبير الى جانب الطريق لتستريح قليلا . وكانت ثيابها قد دبقت على جلدها فعرفت أنها تتصبب عرقا وكان باو اره نائما على ذراعيها . وحين نهضت ثانية لتسير ببطء كانت ما تزال تحسه ثقيلا . وسمعت صوتا بجانبها : « دعيني أحمله لك يا زوجة تان الرابع ! » وبدا كأنه صوت آه او ذو الجلد الازرق .

وحين رفعت بصرها تأكدت أنه آه او يتبعها بعينين ما زال النعاس يثقلهما .

وبالرغم من ان زوجة تان الرابع كانت تتلهف الى ملاك يهبط اليها لنجدتها الاأنها لم ترد أن يكون فارسها آه او . لكن شيئا من النخوة قد أصاب آه او ، فقد أصر على مساعدتها تمام الاصرار ، وبعد أن رفضت عدة مرات ، استجابت له آخر الامر . وحين مد ذراعه ما بين صدرها وطفلها ، ثم حشره ليأخذ باو اره ، أحست بموجة من الحرارة تجتاح صدرها واحمرت حتى أذنيها .

ومشيا يفصلهما قدمان ونصف ، وتفوه آه او ببعض الملاحظات لم ترد زوجة تان الرابع على معظمها . ولم يقطعا مسافة طويلة حين اعاد الطفل لها قائلا انه قد اتفق يوم أمس على أن يتناول الطعام مع صديق له في هذه الساعة . واسترجعت زوجة تان الرابع باو اره . ومن حسن الحظ أن لم تبق من الطريق مسافة طويلة ، فهي قد استطاعت أن ترى العمة التاسعة وانغ جالسة على جانب الطريق تناديها :

« يا زوجة تان الرابع ، كيف حال الطفل ؟ . . . هل ذهبت لزيارة الطبيب ؟ »

« زرناه . . . ايتها العمة التاسعة وانغ . وأنت كبيرة في السن ، ورأيت الشيء الكثير ، فهلا فحصته لي ، وقلت لي رأيك . . . ؟ »

فقالت : « أجل . »

« كيف . . . ؟ ! »

« أه . . . أه . . . »

حين فحصت العمة التاسعة وانغ ، باو اره هزت رأسها هزتين الى الامام ، وهزتين الى الجانبين .

لم يتناول باو اره دواءه الا بعد الظهر ، وراقبته زوجة تان الرابع عن كثب ، وبدا أهدأ كثيرا من ذي قبل . وفي الاصيل فتح عينيه فجأة ، ونادى : « ما ! » ثم اغمض عينيه ثانية ، وبدا نائما . ولم ينم طويلا حتى تصبب جبينه وأرنبة أنفه عرقا وحين تحسسته أمه التصق في أصابعها كالفراء .

وبعد أن هدأ ، خمدت أنفاسه ، فنشجت أمه وأعولت .

وسرعان ما تجمع جمهور من الناس ، في داخل الغرفة ، امثال العمة التاسعة وانغ ، وآه او ذو الجلد الازرق ، وفي الخارج آخرون من مثل صاحب حانة الرفاهية وكونغ ذي الأنف الاحمر . واوعزت العمة التاسعة وانغ بأن يحرق سلك من النقود الورقية ، ثم أخذت مقعدين ، وخمس قطع من الملابس ضمانا واقترضت دولارين لزوجة تان الرابع لتعد طعاما لجميع الذين أعانوا في الامر .

كان التابوت هو المشكلة الاولى . ولكن زوجة تان الرابع ماتزال تملك قرطين من الفضة ، ودبوس شعر فضيا مموها بالذهب أعطته لصاحب حانة الرفاهية ضمانا لشراء تابوت على أن يدفع نصف ثمنه ، ويبقى النصف الآخر دينا . ورفع آه او ذو الجلد الازرق يده متطوعا لمساعدتها ، ولكن العمة التاسعة وانغ لم تلتفت الى ذلك ، وكل ما سمحت له هو أن يحمل التابوت في اليوم التالي . « ايتها الكلبة ! » لعنها ووقف يدمدم ماطا شفتيه . وذهب صاحب الحانة ، وعاد في المساء ليقول ان التابوت ينبغي أن يصنع خصيصى ، ولن يكون جاهزا الا قبيل الصباح .

وفي الوقت الذي عاد منه صاحب الحانة فرغ الذين أعانوا في الأمر من طعامهم ، ولما كانت لوتشين مدينة قديمة في نمط حياتها ، فقد عادوا جميعا ليناموا قبل أن ينقضي الهزيع الاول من الليل . وبقي آهاو يميل بجذعه على مشرب حانة الرفاهية محتسيا خمرته ، بينما كان كونغ يترنم بأغنية .

وفي نفس الوقت كانت زوجة تان الرابع جالسة على حافة السرير تنتحب ، وباو اره راقد في الفراش ، والمغزل مهملا على

الارض . وبعد زمن طويل لم يبق لزوجة تان الرابع دمع في مآقيها ، ففتحت عينيها على وسعهما وجالت ببصرها حولها في دهشة . كل هذا مستحيل ! فكرت : « ليس هذا الا حلما . . . كله حلم ، وسأستيقظ في الغد ، فأجد نفسي مستريحة في الفراش ، وأجد باواره نائما بهدوء الى جانبي . ثم يستيقظ ، وينادي : ما ! وينزل من الفراش مثل نمر صغير ، ويلعب . »

كف كونغ عن الغناء منذ زمن طويل ، وانطفأ الضوء في حانة الرفاهية ، وجلست زوجة تان الرابع محدقة ، ولكن لم يكن في وسعها أن تصدق بكل ما حدث وصاح ديك الصباح . وتفتحت السماء منيرة في المشرق ، وتسرب ضوء الفجر الفضي من خصاص النافذة .

رويدا رويدا تحول ضوء الفجر ، الى ضوء نحاسي ، وظهرت الشمس عل السقف . وجلست زوجة تان الرابع محدقة حتى دق أحد الناس الباب ، فانتفضت وهرعت لفتحه . وكان في الباب رجل غريب يحمل شيئا على ظهره ، ووقفت وراءه العمة التاسعة وانغ .

أوه ، لقد جاء بالتابوت .

ولم يهبط الغطاء على التابوت الا بعد الظهر ، لأن زوجة تان الرابع كانت تبكي ، ثم تلقي نظرة على طفلها ولا تطيق أن يهبط الغطاء على التابوت . ولحسن الحظ ان العمة التاسعة وانغ قد فقدت صبرها من الانتظار ، فأسرعت مندفعة في حنق ، ونحتها جانبا ، فأغلقوا التابوت سريعا .

قامت زوجة تان الرابع بكل ما في استطاعتها لابنها باواره ولم تغفل شيئا . وأمس احرقت سلكا من النقود الورقية ، وفي هذا الصباح أحرقت تسعة وأربعين كتابا من « رقية الرحمة العظيمة »(١) . وقبل أن تضعه في التابوت ، ألبسته أحدث ملابسه ، ووضعت الى جانب وسادته كل اللعب التي كان يهواها أكثر من غيرها وكانت تمثالا صغيرا من الطين ، وقدحين خشبيين صغيرين ، وزجاجتين . وبالرغم من أن العمة التاسعة وانغ كانت تحسب بأصابعها بعناية ، فانها لم تستطع أن تفكر في شيء نسيته هي وزوجة تان الرابع .

ولما لم يعد آه او ذو الجلد الازرق طوال النهار فقد استأجر صاحب حانة الرفاهية حمالين لزوجة تان الرابع وأعطى لكل منهما مئتين وعشرة دراهم نحاسية ، فحملا التابوت الى المقبرة العامة ، وحفرا قبرا ، وأعدت العمة التاسعة وانغ طعاما دعت اليه كل من رفع اصبعا ، او فتح فما . وسرعان ما آذنت الشمس بالمغيب ، وانصرف الضيوف دون لياقة وعادوا جميعا الى البيت .

وأحست زوجة تان الرابع بدوار في بادىء الأمر ، وبعد قليل من الراحة هدأت ، ومع ذلك فقد تولد في نفسها بأن الاشياء التي حدثت غريبة بعض الغرابة ، وهي أشياء لم تحدث لها من قبل ، والذي ظنت انه لن يحدث ابدا قد حدث . وكلما أوغلت في التفكير أحست بمزيد من الغرابة . والشيء الآخر الذي صعقها

---

(١) تعويذة بوذية ، يعتقد البوذيون بأنها تساعد روح الميت على الصعود الى السماء .

لغرابته هو أن الغرفة كانت صامتة جدا .

ونهضت ، فأشعلت المصباح ، ولكن الغرفة بدت أكثر صمتا. وتلمست طريقها لتغلق الباب ، وعادت وجلست على السرير ، بينما كان المغزل ملقى على الأرض صامتا . وتحاملت على نفسها ، واجالت الطرف حولها ، شاعرة بأنها غير قادرة على القعود ، ولا على الوقوف . وكانت الغرفة شديدة الصمت ، واسعة ، فسيحة الجنبات ، والاشياء فيها فارغة خاوية . وضاقت بها الغرفة على رحابتها وثقل عليها الفراغ المحيط بها ثقلا عظيما حتى كادت لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها .

هي تعرف الآن أن ابنها باو اره قد مات حقا ، فلم ترد أن ترى هذه الغرفة ، فنفخت على المصباح فانطفأ ، واضطجعت تبكي وتفكر . وتذكرت كيف كان باو اره يجلس الى جانبها وهي تغزل ، يأكل الفول المطعم باليانسون . وكان يراقبها محدقا بعينيه السود اوين الصغيرتين ، ويفكر . وبغتة كان يقول لها : «ما ! بابا يبيع اللقم المحشوة باللحم ، وحين أكبر سأبيع اللقم ايضا ، وأجمع فلوسا وفلوسا سأعطيكها كلها . »

وفي مثل تلك الاوقات كان كل اصبع غزلته يبدو حيا وذا قيمة . ولكن ماذا الآن ؟ ولم تفكر زوجة تان الرابع في الحاضر على الاطلاق — وكما قلت من قبل لم تكن الا امرأة بسيطة . فأي حل يمكن ان تفكر فيه ؟ كل ما تعرفه أن هذه الغرفة صامتة جدا ، وواسعة جدا وفارغة جدا .

ولكن زوجة تان الرابع على بساطتها تعرف أن الميت لن

يعود الى الحياة ثانية ، وأنها لن ترى ابنها باواره بعد الآن . فتنهدت وقالت : « باواره ! لا بد من أنك ما تزال هنا ! فدعني أراك في أحلامي . » ثم أغمضت عينيها آملة بأن يأتيها النوم في الحال ، وبأن يتيسر لها رؤية باو اره . وسمعت أنفاسها الثقيلة بوضوح من خلال الصمت والرحابة ، والفراغ .

وفي آخر الأمر أغفت زوجة تان الرابع ، وكانت الغرفة كلها ساكنة جدا . وانقضى وقت طويل على فراغ كونغ ذو الأنف الاحمر من اغنيته الشعبية ، وخرج مترنحا من حانة الرفاهية يغني في نشاز : « أرثي لك يا حبيبتي — وحيدة . »

وأمسك آه او ذو الجلد الازرق كتف كونغ وسارا مترنحين مخمورين ضاحكين .

كانت زوجة تان الرابع نائمة ، وذهب كونغ والآخرون ، وأغلقت حانة الرفاهية أبوابها ، وغرقت لوتشين في صمت تام . وكان الليل المتعجل الى أن يتحول الى غد يسري في صمت ، وبعض الكلاب تنبح مختفية في الظلمة .

حزيران ١٩٢٠

حادثة

تصرمت ستة اعوام منذ ان جئت من الريف الى العاصمة ، وخلال تلك الفترة رأيت وسمعت الشيء الكثير عما يسمى بأحوال البلد غير ان أي حال منها لم يترك أثرا كبيرا في نفسي واذا طلب الي ان أحدد تأثيرها فليس في وسعي الا أن أقول انها زادت من سوء مزاجي ، وجعلتني ، بصراحة ، كارها للناس أكثر فأكثر . لكن حادثة واحدة لاحت لي ذات خطورة ، وانتشلتني من سوء مزاجي ، لهذا فانا لا أستطيع نسيانها الى الآن .

حدث ذلك في شتاء سنة ١٩١٧ . وقد هبت ريح شمالية قارسة ، وكان علي أن أستيقظ مبكرا لأسعى وراء رزقي فقصدت الشارع العام . وكنت نادرا ما ألتقي بمخلوق في طريقي . ولم أستطع

استئجار مركبة (١) الا بصعوبة ، لكي توصلني الى باب «س» . وفجأة خمت الريح قليلا ، بعد أن أزاحت التراب المتطاير تاركة الطريق نظيفة . وكان سائق المركبة يحث الخطى بسرعة . وكنا على مقربة من باب «س» حين عبر أحد الناس الطريق ، واشتبكت ملابسه بمركبتنا ، وسقط على مهل .

وكان العابر امرأة وخط الشيب شعرها ، مرتدية أسمالا . فنزلت من الرصيف دون ان تأخذ الحذر من العبور امامنا . ورغم أن سائق العربة قد أفسح لها الطريق الا أن معطفها الممزق غير المزرر ، المتطاير في الريح اشتبك في عريش المركبة . ومن حسن الحظ ان سائق المركبة كان يوقف المركبة ، والا لسقطت سقطة فظيعة ، دون ريب ، ولأصابها ضرر بالغ .

واستلقت على الارض ، وتوقف سائق العربة ولم أظن ان العجوز قد لحق بها أذى ، ولم يكن هناك من شاهد على ما حدث فلهذا نفرت من هذا الوقوف الذي قد يوقعه في مأزق ، ويؤخرني .

قلت : « كل شيء بخير ، سر في طريقك . »

ولكنه لم يلتفت الي ، ولعله لم يسمعني — وأنزل العريشين اللذين كان يمسكهما ، ، وساعد العجوز بلطف على النهوض ، وأسندها بذراع وسألها :

« هل أنت بخير ؟ »

« لقد أصابني أذى . »

---

(١) مركبة : هي التي تستخدم للركوب ذات عجلتين يجرها صاحبها . وكانت تستخدم في الصين القديمة .

لقد رأيت كيف سقطت على مهل ، وكنت واثقا ان أي أذى لم يلحقها . فلا بد من أنها تتظاهر ، وذلك شيء منفر . أما سائق العربة فكان يبحث عن مأزق ، والآن حصل عليه فيجب أن يجد لنفسه مخرجا منه .

ولم يضطرب سائق العربة لحظة حين قالت له العجوز انها قد تأذت . فساعدها بتؤدة لتسير الى الأمام وهو ما يزال ممسكا بذراعها . ودهشت . وحين تطلعت الى الأمام رأيت مركزا للشرطة . ولكن أي واحد منهم لم يكن في الخارج بسبب الريح الشديدة ، فساعد سائق العربة المرأة العجوز وقادها نحو الباب .

وفجأة اعتراني شعور غريب ومن بعيد بدا هيكله المترب المبتعد أكبر حجما ، وفي الحق كلما ابتعد السائق أكثر لاح لي أكبر حجما حتى كان علي أن أرفع بصري لأنظر اليه نظرة احترام . وفي نفس الوقت بدا هذا الشعور يضغط علي ضغطا تدريجيا مهددا بأن يخرج نفسي الصغيرة من تحت القفطان المخطط بالفراء .

وبدأت حيويتي تنهار ، وأنا جالس في المركبة دون حراك ، وذهني فارغ حتى خرج شرطي ، فنزلت منها .

جاء الي الشرطي وقال : «خذ مركبة أخرى . هو لا يستطيع أن يجرك بعد الآن . »

ودون تفكير اخرجت حفنة دراهم نحاسية من جيبي ، واعطيتها للشرطي قائلا : « أرجوك ان تعطيها اياه . »

وخفت الريح تماما ، ولكن الطريق ما يزال ساكنا .

وسرت أفكر ، بيد أنني كنت خائفا تقريبا من ان أحول افكاري الى نفسي . ماذا قصدت بهذه الحفنة من الدراهم النحاسية بعد أن أعرضت عما حدث قبل ذلك ؟ هل هي مكافأة ؟ ومن أنا لأحكم على سائق العربة ؟ ولم أستطع ان أجيب نفسي .

وحتى الآن بقي هذا حيا في ذاكرتي . وغالبا ما يسبب لي غما ، ويجعلني أحاول ان أفكر في نفسي . وقد نسيت الاحوال العسكرية والسياسية لتلك الاعوام تماما كما نسيت التراث القديم الذي قرأته في طفولتي . غير ان هذه الحادثة ما تزال تخطر على بالي ، أكثر سطوعا مما هي في واقع الحياة تعلمني الخجل ، وتحثني على أن أصلح من نفسي ، وتمدني بشجاعة وأمل جديدين .

حزيران ١٩٢٠

عاصفة في فنجان

ذوت أشعة الشمس الصفراء المتلألئة رويداً رويداً من على المساحة الطينية الى جانب النهر . وفي النهاية استطاعت أوراق الاشجار على الشاطىء أن تلتقط نفسا لافحا بينما كان قليل من البعوض المخطط يتراقص ويطن تحتها . وكان يتصاعد من مداخن المطابخ في بيوت الفلاحين على جانب النهر دخان قليل ، والنساء والأطفال ينثرون الماء على الأرض المقابلة لأبوابهم ويخرجون المقاعد والموائد الصغيرة وفي ميسورك أن تعرف أنها للعشاء .

جلس الشيوخ والرجال على المقاعد الواطئة ، يلهون أنفسهم بمراوح اوراق الطلح بينما هم يتجاذبون اطراف الحديث . وكان الأطفال يتراكضون ، أو يقرفصون تحت الاشجار ويلعبون باللعب

والحصى . وجاءت النساء بالخضر المجففة السوداء الحارة ، والرز . ومر بعض العلماء في زورق مرح فتخيلوا المنظر شاعريا ، وهتفوا : « طلقاء من كل هم ... هاهي السعادة الشاعرية لعوائل الفلاحين . »

ولكن العلماء كانوا بعيدين عن الحقيقة ، ذلك لأنهم لم يسمعوا ما كانت تقوله العجوز ذات تسعة الارطال . وكانت العجوز ذات تسعة الارطال محتدمة المزاج تضرب قوائم مقعدها بمروحتها الممزقة .

قالت : « لقد عشت تسعة وسبعين عاما ، وهذا عمر طويل. وأنا لا أحب أن أراقب السفلة – وأفضل ان أموت . ها نحن نجلس الى العشاء ، ومع ذلك فهم ما يزالون يأكلون البقول المحمصة يأكلون حتى ينفد ما عندنا . »

وكانت ابنة حفيدتها ذات ستة الارطال قد جاءت توا تركض نحوها ، وهي تمسك بحفنة من البقول ، ولكنها حين ألمت بالموقف هرعت قدما الى ضفة النهر ، واختفت وراء شجرة ، ثم صاحت ، وهي تمد رأسها ذا الخصلتين من الشعر : « عجوز أم سبعة اعمار ! »

ورغم أن العجوز ذات تسعة الأرطال قد تقدمت بها السن كثيرا الا انها لم تكن صماء على الاطلاق ، ولكنها لم تسمع ما قالته الطفلة ، ومضت تدمدم مع نفسها : « نعم ، وأيم الحق ! كل جيل أسوأ من سالفه ! »

كانت عادة غير مألوفة كثيرا في تلك القرية أن تزن الأمهات أطفالهن ساعة ولادتهم ، ثم يسمينهم بعدد الارطال التي يوزنون

بها . ومنذ أن احتفلت السيدة العجوز ذات تسعة الارطال بعيد ميلادها الخمسيني ، اصبحت بالتدريج همزة لمزة قائلة دائما ان الصيف في أيام صباها لم يكن قائظا على هذا النحو ، ولا كانت البقول صلبة قاسية كما هي الآن . وباختصار ان ثمة شيئا ليس على مايرام في العالم الحاضر ، والا فلماذا كانت ذات ستة الارطال أقل بثلاثة ارطال من جدتها ، وأقل برطل واحد من والدها ذي سبعة الارطال ؟ ذلك دليل بين حقا . فكانت تقول مؤكدة : « نعم ، وأيم الحق ! كل جيل أسوأ من سالفه ! »

وجاءت زوجة حفيدها ذات سبعة الارطال الى المائدة توا . ومعها سلة من الرز ، وألقتها على المائدة وقالت غاضبة : « ها انت تعودين ثانية ! ان ذات ستة الارطال كانت تزن ستة الارطال وخمسة اواق (١) حين ولدت ، أليس كذلك ؟ وعائلتك تستعمل ميزانا خاصا يطفف الوزن ، الرطل الواحد بثماني عشرة أوقية . وبالميزان الحقيقي ذي الست عشرة اوقية ينبغي أن يكون وزن ذات ستة الارطال اكثر من سبعة الارطال . وأنا لا أعتقد أن جدي وأبي كان وزنهما تسعة ارطال تماما ، أو حتى ثمانية ارطال . فلربما استخدموا في تلك الايام ميزان الاربع عشرة أوقية للرطل . . . »

« كل جيل أسوأ من سالفه ! »

وقبل أن تستطيع السيدة ذات سبعة الأرطال ان ترد رأت

---

(١) الرطل ترجمة لكلمة pound الانكليزية وهو يتألف من ١٦ اوقية كما هو معروف .

زوجها قادما من أعلى الزقاق ، فحولت هجومها وصاحت به : « لماذا تأخرت في عودتك هكذا ، أيها المتراخي ! اين كنت كل هذا الوقت ؟ انت لا يهمك أن تجعلنا ننتظرك على العشاء طويلا ! »

ورغم ان ذا سبعة الأرطال يعيش في القرية فقد كان يريد دائما أن يحسن حاله . فمن جده حتى هو نفسه وأي رجل من عائلته لم يمسك معزقة طوال ثلاثة أجيال . وقد اشتغل ، مثل والده من قبل ، على زورق يسير كل صباح من لوتشين الى البلدة ، ويعود منها في المساء . ونتيجة لذلك كان ملما على نحو طيب بما يجري في الدنيا ، فهو يعرف ، مثلا ، أين صعق إله الرعد العفريت المتقمص بروح ام أربع وأربعين او اين وضعت العذراء عفريتا . ورغم انه قد صنع له صيتا في القرية ، فان عائلته التزمت عادات الريف فلم توقد مصباحا عند العشاء في الصيف ، ولذلك كان اذا عاد متأخرا الى البيت صب عليه التعنيف صباً .

كان ذو سبعة الارطال يحمل في كفه غليونا من قصب مرقط ، يبلغ اكثر من ستة اقدام طولا وله مبسم عاجي ، واناء من تنك . ومشى في تؤدة ، مطرقا برأسه وجلس على احد المقاعد الواطئة . واهتبلت ذات ستة الارطال هذه الفرصة لتنسل وتجلس الى جانبه . وتحدثت اليه ولكنه لم يرد عليها .

دمدمت السيدة العجوز ذات تسعة الارطال : « كل جيل أسوأ من سالفه . »

فرفع ذو سبعة الارطال رأسه ببطء ، وقال متنهدا : « الامبراطور قد ارتقى العرش ثانية . »

وذهلت السيدة ذات سبعة الارطال برهة ، ثم صاحت فجأة وقد استوعبت النبأ : « عظيم ! هذا يعني أن الامبراطور سيصدر عفوا عاما آخر . أليس كذلك ؟ »

تنهد ذو سبعة الارطال ثانية وقال : « لست من اصحاب الضفائر . »

« هل يصر الامبراطور على الضفائر ؟ »

« نعم . . يصر . »

واضطربت ذات سبعة الارطال اضطرابا قليلا وسألت بعجالة : « كيف تعرف ؟ »

« كل واحد في حانة الرفاهية يقول ذلك . »

واذذاك ادركت السيدة ذات سبعة الارطال بغريزتها ان الأمور في حال سيئة ، لأن حانة الرفاهية هي المكان الذي تستطيع ان تلتقط منه كل الأخبار . ونظرت غاضبة الى رأس ذي سبعة الارطال الحليق بشعور من البغض والاشمئزاز ، ثم بصورة جبرية ملأت طاسا من الرز ، وألقتها امامه قائلة : « اسرع وكل ! الصياح لا يربي لك ضفيرة . . . أليس كذلك ؟ »

لملمت الشمس آخر اذيالها ، وأخذ ماء النهر يبرد شيئا فشيئا. وكان في الشاطىء الطيني صوت اصطكاك الطاسات واعواد الاكل . وكان العرق ينشر فوق ظهور الناس هناك . وقد فرغت السيدة ذات سبعة الارطال من ثلاث طاسات رز حين

رفعت رأسها مصادفة ، ورأت شيئا سحق قلبها سحقا . كان في وسعها أن ترى من خلال الأشجار قامة السيد تشاو القصيرة تقترب قادمة من الجسر الخشبي . كان يرتدي معطفه القطني الازرق . وكان السيد تشاو صاحب حانة الوفرة في قرية مجاورة ، وهو الوجيه الوحيد في دائرة نصف قطرها عشرة اميال ، وفضلا عن ذلك فهو يبدو كعالم . ولكن الاساليب القديمة التي اكتسب منها معلوماته قد اضفت عليه جمود العهد البائد . وكان يملك عشرة مجلدات من كتاب « قصة الممالك الثلاث » التي شرحها تشن شنغ تان (١) فكان يقرأ ويعيد فصلا اثر آخر . وكان في وسعه ، ان يخبرك بأسماء الجنرالات النمور الخمسة (٢) وفي وسعه كذلك أن يقول لك أن هوانغ تشونغ كان يعرف كذلك باسم « هان شنغ » وان ما تشاو كان يعرف باسم « منغ تشي » . وبعد الثورة طوى ضفيرته على قمة رأسه مثل قسيس من « تاو » ، وغالبا ما كان يقول متنهدا لو ان تشاو يون مايزال حيا لما كانت الامبراطورية في هذه الحال السيئة . وكان للسيدة ذات سبعة الارطال نظر قوي فلاحظت في الحال ان السيد تشاو لم يرتد شعره اليوم على هيئة القسيس التاوي فقد حلق الشعر من أمام ، وانزلت الضفيرة ، وقد علمت ان امبراطورا قد ارتقى العرش ،

---

(١) معلق أدبي (١٦٠٩ – ١٦٦١) .

(٢) في عهد الممالك الثلاث كان هناك خمسة جنرالات مشهورون في مملكة شو (٢٢١ – ٢٦٣) : كوان يو ، وتشوانغ في ، وتشاو يون ، وهوانغ تشونغ ، وماتشاو .

وان الضفائر عادت ضرورية مرة أخرى ، ولابد من أن ذا سبعة الارطال في خطر عظيم ايضا . أما ارتداء السيد تشاو هذا المعطف القطني الطويل ، فلم يكن لدون غاية — ففي الحقيقة انه لم يرتد هذا المعطف خلال السنوات الثلاث الماضيات غير مرتين . واحدة حين مرض عدوه آه سو ذوالوجه المصاب بآثار الجدري وثانية حين مات السيد لو الذي حطم حانته . وهذه هي المرة الثالثة ، فلابد من ان شيئا قد حدث أثلج قلبه ، وجلب الشر الى اعدائه .

وتذكرت السيدة ذات سبعة الارطال ان زوجها قبل عامين ، شرب وسكر ، وشتم السيد تشاو قائلا : انه « ابن زنى » . وفي الحال ادركت بفطرتها ان زوجها في خطر ، وطفق قلبها يخفق خفقانا شديدا .

ونهض الذين كانوا جالسين الى طعام العشاء حين رأوا السيد تشاو يمر بهم ، وأشاروا باعواد الأكل الى طاسات الرز قائلين : « نرجو أن تشاركنا ، يا سيد تشاو . »

وهز السيد تشاو يده مسلما على جميع الذين مر بهم قائلا : « استمروا في طعامكم . ارجوكم ! » ومشى مباشرة الى مائدة ذي سبعة الارطال . واسرع كل واحد يسلم عليه فقال السيد تشاو في بسمة : « استمروا في طعامكم ، ارجوكم ! » وفي نفس الوقت رمق الطعام الموضوع على المائدة بنظرة فاحصة .

« هذه الخضر الجافة ذات رائحة طيبة — هل سمعتم بالأنباء ؟ » وكان السيد تشاو واقفا وراء ذي سبعة الارطال مواجها

السيدة ذات سبعة الارطال .

قال ذو سبعة الارطال : « الامبراطور ارتقى العرش . »

ووضعت السيدة ذات سبعة الارطال ابتسامة على وجهها قسرا وهي تراقب ملامح السيد تشاو . وسألت : « الآن ارتقى الامبراطور العرش فمتى سيصدر عفوا عاما ؟ »

« عفوا عاما ؟ سيكون العفو العام في وقت مناسب . » ثم ازداد صوت السيد تشاو جهامة : « ولكن ماذا عن ضفيرة ذي سبعة الأرطال ، ايه ؟ هذا شيء مهم . انت تعرفين كيف كانت الحال في عهد ذوي الشعر الطويل (١) : احفظ شعرك وافقد رأسك ؛ احفظ رأسك ، وافقد شعرك . »

ولم يقرأ ذو سبعة الارطال ولا زوجته أي كتاب ، ولهذا فقد ضاع فيهما هذا القول المأثور ، ولكن ! مادام السيد تشاو المتعلم قال ذلك ، فقد قدرا ان الوضع خطير للغاية . تلك حقيقة واقعة . وشعرا كأنهما قد تلقيا الحكم عليهما بالموت . وطنت آذانهما ، ولم يقدرا على ان ينبسا بكلمة .

« كل جيل أسوأ من سالفه . » قالت السيدة العجوز ذات تسعة الارطال ذلك القول ثانية بهدوء ، واغتنمت الفرصة لتتحدث الى السيد تشاو : « يقطع الثوار في هذه الأيام ضفائر الناس حتى

---

(١) هم جيش التايبنغ لثورة الفلاحين (١٨٥١ — ١٨٦٤) . وبعد مجيء اسرة تشينغ الملكية أرغم الصينيون على حلاقة شعورهم من فوق جباههم ، وارسال الضفائر . ولما كان التايبنغيون يحتفظون بشعورهم الطويلة فقد سموا بذوي الشعور الطويلة .

يبدوا لا هم بوذيون ، ولاهم تاويون . فهل كان الثوار في الأيام السالفة على هذا النحو ايضا ؟ لقد عشت تسعة وسبعين عاما ، وهذا عمر طويل ، كان الثوار في الايام السالفة يعصبون رؤوسهم بقماش أطلس أحمر يتدلى الى كعوبهم . والأمير يلبس الاطلس الأصفر الذي يتدلى الى الأسفل . . . أطلس اصفر ، أطلس أحمر وأصفر – لقد عشت عمرا طويلا وانا في التاسعة والسبعين . »

فتمتمت السيدة ذات الارطال السبعة وهي واقفة : « ما العمل ؟ نحن عائلة كبيرة على هذا النحو ، شبانا وشيبا ، والجميع يعتمدون عليه . »

قال السيد تشاو : « لا شيء في وسعك عمله . لقد سجلت العقوبة على من لا ضفيرة له بوضوح تام ، جملة جملة في كتاب . وعائلتك مهما كبرت لا تغير من الامر شيئا . »

وحين سمعت السيدة ذات سبعة الارطال ان ذلك مكتوب في كتاب ، فقدت في الحق كل أملها . ولشدة قلقها كرهت ذا سبعة الارطال فجأة . واشارت باعواد الأكل الى ارنبة أنفه وصاحت : « من حفر حفيرا لأخيه كان حتفه فيه ! لقد قلت له اثناء الثورة ان من الخير ان لا يخرج في زورق ومن الخير ان لا يذهب الى البلدة . ولكنه ذهب وانطلق الى المدينة . فقصوا له ضفيرته . وكانت له ضفيرة صقيلة سوداء . اما الآن فهو لا يشبه البوذي ولا التاوي . لقد كان : كالباحث عن حتفه بظلفه . فأي حق له في أن يجرنا معه ؟ . . . جثة حية لربيب سجن . . . »

وأنهى القرويون عشاءهم سريعا حين رأوا السيد تشاو قد وصل، وتجمعوا حول مائدة ذي سبعة الارطال . ذو سبعة الارطال يعرف من الفظاعة ان يشتم مواطن بارز من قبل زوجته علنا على هذا النحو . فرفع رأسه ليقول ببطء :

« عندك اليوم أشياء كثيرة تقولينها ، ولكن في وقت . . . »

« جثة حية لربيب سجن . »

وكان للارملة « بائي » أرق قلب بين الواقفين جميعا . وكانت تقف الى جانب السيدة ذات سبعة الارطال تراقب المهزلة حاملة طفلها وهو في الثانية من العمر ، ولد بعد وفاة زوجها . والآن شعرت بأن المسألة قد طالت وعرضت فأسرعت تحاول ان تسعى في الصلح قائلة : « لا بأس يا ذات سبعة الأرطال ، فالناس ليسوا ارواحا فلا يمكنهم ان يتنبأوا بالمستقبل ؟ ألم تقل السيدة ذات سبعة الارطال في ذلك الحين أن لا عيب في أن يكون المرء بلاضفيرة ؟ وفضلا عن ذلك فان الموظف العظيم في مكتب الحكومة لم يصدر أي أمر حتى الآن . . . »

وقبل ان تتم كلامها احمرت اذنا السيدة ذات سبعة الارطال ، وأدارت اعواد الأكل التي تأكل بها لتشير الى انف الأرملة ، وقالت محتجة : « ماهذا القول يا زوجة بائي انا مازلت انسانا — أليس كذلك ؟ — كيف يمكن ان اقول شيئا هزليا كهذا ؟ لقد بكيت ثلاثة أيام كاملة حين حدث ذلك وكل الناس رأوا ذلك . . . حتى تلك العفريتة ذات ستة الارطال بكت . » وكانت ذات ستة الارطال قد انتهت تماما من طاس رز ،

وهي تمسك بها صارخة بأن تملأ ثانية . واحتدت السيدة ذات سبعة الارطال ، وهبطت بأعواد الأكل على رأس الطفل ما بين الخصلتين : «كفي عن الضجيج أيتها الداعرة ! »

وحدثت قرقعة حين سقط الطاس الفارغ من يد ذات ستة الارطال الى الارض . فقد ارتطمت بحافة آجرة ، وانكسرت قطعة كبيرة منها . وقفز ذو سبعة الارطال ليلتقط الطاس، وتفحصه حين وضع القطعة المكسورة في مكانها وصاح : « لعنة الشيطان عليك ! » وصفع ذات ستة الارطال على وجهها حتى وقعت . ورقدت هناك تبكي فأخذتها السيدة ذات تسعة الارطال من يدها ومشت معها متمتمة : « كل جيل أسوأ من سالفه . »

وجاء دور الأرملة بائي في الغضب فصاحت : « كم أنت حاذقة في لدغ الناس بكلماتك الخبيثة ياذات سبعة الارطال . »

وكان السيد تشاو يتفرج مبتسما ، ولكن تملكه الغضب عندما قالت الارملة بائي ان الموظف العظيم في مكتب الحكومة لم يصدر أي أمر بعد . والآن أقبل على المائدة تماما . وقال : « ماذا يهم لدغ الناس بكلمة ؟ من المتوقع ان يصل جيش الامبراطور الى هنا بين لحظة وأخرى . وأنتم تعرفون ان حامي الامبراطور هو الجنرال تشانغ الذي ينحدر من صلب تشانغ في من عهد الممالك الثلاث . وله رمح هائل طوله ثمانية عشر قدما، وله جرأة على مقاتلة عشرة آلاف رجل . لاأحد يستطيع الوقوف ضده . » ورفع يديه الخاليتين كأنه يمسك رمحا هائلا غير منظور ، وتقدم خطوات قليلة باتجاه الأرملة بائي قائلا : « هل

أنت نديدة له ؟ »

وكانت الارملة بائي ترتعش غيظا ، وهي تمسك بطفلها ، غير ان منظر السيد تشاو المفاجىء وهو ينقض عليها بوجه مترشح عرقا ، وعينين محملقتين ملأها رعبا . وقبل ان تتم ما كان لها أن تقول ، دارت ، وهربت . وغادر السيد تشاو أيضا وأنحى القرويون باللائمة على الأرملة بائي لتدخلها وهم يغادرون المكان . واختفى رجال قلائل كانوا قد قصوا ضفائرهم ، ثم طفقوا يربونها من جديد ، اختفوا وراء الجمع خوفا من ان يراهم السيد تشاو . ولكن السيد تشاو مر من خلال الجمع دون ان يجري تفحصا دقيقا . وفجأة اختفى وراء الاشجار ، وبعد ان قال بحزم وصرامة : « فكروا هل أنتم أنداد له . » مشى الى الجسر الخشبي ، واختفى عن الابصار .

وقف القرويون في اماكنهم حائرين ، مقلبين الأمور في أذهانهم . وأدركوا أنهم حقا ليسوا اندادا لتشانغ في ومن هنا كانت حياة ذي سبعة الارطال مفقودة تماما . ومادام ذو سبعة الارطال قد خرق القانون الامبراطوري فقد احسوا بأن عليه ان يترك هذه الهيئة المتشامخة حين كان يدخن غليونه ، ويقص عليهم أنباء المدينة . وهكذا جلب وقوعه في مأزق بعض المسرة لهم . وكانوا يودون ان يناقشوا الأمر ، ولكنهم لم يعرفوا ما يقولون . وكان البعوض يطنطن مارا على اذرعهم العارية ، ثم يهوي منقضا عائدا تحت الاشجار . وتفرق القرويون عائدين الى بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم ، وآووا الى فرشهم . ورفعت

السيدة ذات سبعة الارطال الصحون عن المائدة ، ورفعت المائدة والمقاعد كذلك وهي تدمدم في نفسها ، ودخلت أيضا ، لتغلق الباب وتنام .

وحمل ذو سبعة الارطال الطاس المكسور الى الداخل وجلس على عتبة الدار يدخن ، ولكنه كان ما يزال في قلق فنسي أن يسحب أنفاسا من الغليون ، وشيئا فشيئا أظلم النور في اناء التنك لغليونه القصبي المرقط الطويل ، ذي المبسم العاجي . وبدت الأمور بالغة حالة خطرة جدا ، وحاول ان يفكر في مخرج ، أو في خطة عمل . ولكن افكاره كانت في دوامة ، ولم يكن في ميسوره ان يفصل بعضها عن بعض « ضفائر ، ايه ، ضفائر ؟ ورمح طوله ثماني عشرة قدما . كل جيل أسوأ من سالفه ! والامبراطور ارتقى العرش . والطاس المكسور ينبغي ان يؤخذ الى المدينة ليرأب . من هو ند له ؟ انه مسجل في كتاب . ياللعنة ! . . . »

وفي الصباح التالي خرج ذو سبعة الارطال الى البلدة في الزورق كالعادة . وعاد قبيل المساء الى لوتشين . ومعه غليونه القصبي المرقط الطويل ، وطاس الرز . وعند العشاء قال للعجوز ذات تسعة الارطال انه قد رأب الطاس في المدينة . ولما كان الصدع كبيرا فقد احتيج الى ستة عشر مسمارا من نحاس ، كل مسمار بثلاثة نقود ، فكان المجموع ثمانية وأربعين نقدا .

قالت العجوز ذات تسعة الارطال مغتاظة : « كل جيل أسوأ من سالفه . لقد عشت عمرا طويلا . كل مسمار بثلاثة

نقود هذه لا تشبه المسامير التي كنا نستعملها . في الأيام السالفة . . . آه . . . لقد عشت تسعة وسبعين عاما . . . »

ورغم ان ذا سبعة الارطال كان يذهب كل يوم الى البلدة كما كان في الماضي ، فقد لاح بيته كأنه تحت سحابة . فان معظم الفلاحين قد تحاشوا طريقه . ولم يعودوا يأتون ليسألوه عن الاخبار في المدينة . وكانت السيدة ذات سبعة الارطال دائما حادة الطبع تخاطبه دائما بـ« ربيب السجن . »

وبعد أسبوعين تقريبا حين عاد ذو سبعة الارطال من البلدة رأى زوجته منشرحة الصدر على نحو نادر . وسألته : « هل سمعت شيئا في البلدة ؟ »

« لا، لم أسمع . »

« هل ارتقى الامبراطور العرش ؟ »

« لم يقولوا . »

« ألم يقل أحد في حانة الرفاهية شيئا ؟ »

« لا ، لم يقل . »

« لا أظن ان الامبراطور سيرتقي العرش . لقد مررت اليوم من حانة السيد تشاو ، وكان جالسا هناك يقرأ مرة أخرى وضفيرته مطوية في أعلى رأسه . بل حتى انه لم يكن مرتديا معطفه الطويل . »

« . . . . . . »

« هل تظن أنه ربما لم يرتق العرش ؟ »

« أظن ربما لا . »

اليوم عاد الى ذي سبعة الارطال احترامه السابق ، وعومل معاملة من قبل زوجته والقرويين . وفي الصيف كانت عائلته لما تزل تجلس على الشاطىء الطيني خارج البيت ، والمارون يحيونها بابتسام . واحتفلت العجوز ذات تسعة الارطال بعيد ميلادها الثمانين قبل زمن . وهي سالمة كما كانت من قبل ، وملأى بالشكاوى ، وتحولت خصلتنا ذات ستة الارطال الى ضفيرة كثة . ورغم انهم اخذوا يشدون قدميها مؤخرا فانها مازالت قادرة على ان تساعد السيدة ذات سبعة الارطال بالاعمال بين حين وآخر وتسير ، وهي تقزل على الشاطىء الطيني تحمل طاس الرز الذي رئب بستة عشر مسمارا من نحاس .

تشرين الاول ١٩٢٠

بيتي القديم

قطعت أكثر من سبع مئة ميل مقتحما البرد القارس لأعود الى بيتي القديم الذي تركته قبل أكثر من عشرين عاما .

كنا في أعماق الشتاء . وحين أخذنا نقترب من بيتي القديم ادلهم النهار ، وهبت الريح الباردة على حجرة زورقنا ، وكل ما يستطيع الانسان أن يراه من خلال خصاص غرفة الخيزران هوبعض القرى المنعزلة الخالية من أي مظهر من مظاهر الحياة مبعثرة هنا وهناك تحت السماء الصفراء الموحشة . ولم يكن بوسعي التغلب على الاحساس بالكآبة .

آه ! أهذا حقا بيتي القد يم الذي ظللت أتذكره خلال العشرين سنة الماضية ؟

لم يكن بيتي القديم الذي أتذكره على هذه الصورة أبدا .



للفنان قو بنغ سين

فقد كان أحسن مما أراه الآن . ولكنك لو طلبت الي أن أستعيد سحره الخاص ، أو أصف حسنه لما كان لدي انطباع واضح ، ولا كلمات لوصفه . والآن يبدو أن هذا كل ما تبقى منه . ثم سوغت لنفسي أن أقول : ان الدار كانت دائما بهذا الشكل ، ورغم أن حالها لم تتحسن ، فانها ليست موحشة كما أتخيل ، بل ان مزاجي هو الذي تغير ليس غير ، لأنني أعود الى الريف في هذه المرة دون خيالات .

في هذه المرة أعود لغرض واحد ، هو الوداع . ان البيت القديم الذي عاشت فيه عائلتنا أعواما طوالا قد بيع الى عائلة أخرى، وكان ينبغي تسليمه قبل نهاية العام. وكان علي أن أسرع الى هناك قبل رأس السنة الجديدة لأودع البيت الذي ألفته ، وانقل عائلتي الى مكان آخر أعمل فيه يبعد عن بلدة بيتي القديم كثيرا.

وصلت الى مدخل بيتي عند فجر اليوم التالي . وكانت سيقان العشب الذاوية في السقف ترتجف مع الريح ، وقد كشفت لي بوضوح عن السبب في بيع هذا البيت القديم . ولربما قد رحلت عنه بعض فروع عائلتنا ، فبدا هادئا على نحو غير اعتيادي . وفي الوقت الذي وصلت فيه الى البيت كانت أمي أمام الباب لترحب بي ، وقد اندفع خلفها ابن أخي هونغ اره ، وهو في الثامنة من عمره .

ورغم أن أمي كانت فرحة الاأنها كانت تحاول اخفاء شعور معين بالحزن . وطلبت مني أن أجلس ، وأستريح ، وأشرب من الشاي تاركة أمر الرحيل موقتا ، بينما وقف هونغ اره الذي

لم يرني من قبل يراقبني عن بعد .

وأخيرا كان علينا أن نتحدث عن الانتقال . وقلت ، لقد أجرت غرفا في مكان آخر ، واشتريت قليلا من الأثاث وفضلا عن ذلك فمن الضروري بيع جميع أثاث البيت لشراء أشياء أخرى . ووافقت أمي قائلة ان الأمتعة قد حزمت كلها تقريبا ، وأن ما يقرب من نصف الذي يصعب نقله قد بيع . والشيء الصعب هو أن نحصل على من يدفع الثمن .

قالت أمي : « يمكنك أن تستريح يوما أو يومين ، وتزور أقرباءنا ، وبعد ذلك نستطيع أن نرحل . »

« أجل . »

« ثم ان هناك جون تو . وهو يسأل عنك في كل مرة يأتي فيها الينا ، ويرغب كثيرا في أن يراك مرة أخرى . وقد أخبرته عن الموعد التقريبي لعودتك ، ومن الممكن أن يحضر بين لحظة وأخرى . »

وفي تلك الساعة لمعت في فكري فجأة صورة غريبة ، صورة قمر ذهبي يطل من كبد سماء زرقاء ، وتحته شاطىء البحر يمتد الى أقصى ما تصل اليه العين ، وقد فرش بالبطيخ الزاهي الخضرة ، وفي الوسط وقف صبي في الحادية عشرة أو الثانية عشرة يضع حول عنقه قلادة من فضة ويمسك بيده مذراة حديدية يضرب بها بكل ما أوتي من قوة ، حيوان « الجا » الذي يفلت من الضربة ويفر من بين ساقيه .

هذا الصبي هو جون تو ، حين التقيت به لأول مرة كان قد تجاوز العاشرة بشيء قليل — كان ذلك قبل ثلاثين عاما ،

وفي ذلك الزمن كان والدي مازال على قيد الحياة ، وعائلتي في سعة من العيش ، فكنت في الحق طفلا مدللا . وكان ذلك العام نوبة عائلتنا في أن تتعهد بتقديم تضحية كبيرة على أرواح الأجداد ، وهي تضحية تحل كل ثلاثين عاما ومن هنا كانت ذات شأن . وفي الشهر الأول عرضت صور الأجداد ، وقدمت القرابين ، ولما كانت قوارب التضحية جميلة جدا ، وكان جمع غفير من المتعبدين فقد أصبح من الضروري الاحتراس من السرقة. وكان لعائلتنا خادم واحد فقط يعمل جزءا من الوقت يسمى « خادم موقت » (في ناحيتنا نقسم الخدم الى ثلاث درجات : الذين يعملون عاماً كاملا لعائلة واحدة يسمون خدام عام كامل والذين يؤجرون باليوم ، يسمون خداما باليومية ، والذين يزرعون أرضهم الخاصة ، ويعملون لعائلة في رأس السنة ، أو خلال الاحتفالات أو حين تجمع الايجارات يسمون خداما موقتين .) ولما كان لدينا عمل كثير أخبر والدي بأنه سيرسل في طلب ابنه جون تو ليرعى قوارب التضحية .

وحين وافق والدي أخذني الفرح ، لأنني قد سمعت عن جون تو منذ زمن طويل ، وأعرف أنه في سن تقارب سني ، وقد ولد في شهر كبيس (١) . وحين كشف عن طالعه وجد أنه يفتقر الى عنصر التراب من بين العناصر الخمسة ، وهكذا سماه أبوه جون تو

---

(١) عدد أيام السنة القمرية الصينية ٣٦٠ يوما ، ويتألف كل شهر من ٢٩ أو ٣٠ يوما ليس ٣١ . ومن هنا كان يضاف الى التقويم كل بضع سنين شهر ثالث عشر أو كبيس .

(أي التراب الكبيس) . وكان في مقدوره أن ينصب الاشراك ، ويصيد الطيور الصغيرة .

وكنت أترقب السنة الجديدة كل يوم ، لأن السنة الجديدة تجلب اليّ جون تو . وفي النهاية جاءت نهاية السنة ، وذات يوم قالت لي أمي ان جون تو قد جاء . وهرعت للقياه ، فصادفته واقفا في المطبخ . كان له وجه أحمر مدور . وكان يلبس في رأسه طاقية من اللباد . وفي عنقه قلادة فضية لامعة تدل على شغف والده به ، فقد نذر للآلهة والبوذوات مخافة أن يتخطفه الموت واستعمل القلادة كطلسم . وكان شديد الخجل ، وقد كنت الشخص الوحيد الذي لا يخجل منه . وحين لم يبق أحد غيرنا صار يتحدث الي . وهكذا أصبحنا صديقين حميمين بعد ساعات قلائل .

أنا لا أعرف ماذا تحدثنا آنذاك ، ولكنني أتذكر أن جون تو كان منطلق النفس ، يقول انه جاء الى البلدة فرأى كثيرا من الأشياء الجديدة .

وفي اليوم التالي طلبت منه أن يصطاد طيورا .

قال : « لا يمكن هذا . فليس من الممكن اصطياد الطيور الا بعد تساقط ثلج كثير . فبعد أن تثلج الدنيا أنظف قطعة أرض من الثلج في رمالنا ، وأسند سلة كبيرة الى عصا قصيرة وأنثر تحتها قشور القمح ، ثم حين أرى الطيور آتية لتأكل أسحب الخيط المربوط بالعصا ، وأنا بعيد عنها ، فتسقط السلة على الطيور وتحبسها . ومنها أنواع كثيرة : الدراج البري ، والودقوق ،

وحمام الغاب ، والطير الأزرق . . . »

وتبعا الى ذلك أترقب سقوط الثلج بشوق شديد .

وقال جون تو في يوم آخر :

« الجو الآن بارد جدا . ولكن ينبغي أن تأتي الى قريتنا ، في الصيف . ففي النهار نخرج الى ساحل البحر لالتقاط المحار . وهناك محار أخضر ، ومحار أحمر ، فضلا عن محار " شيطان الرعب " و " يد البوذا " . وفي المساء حين نخرج أنا وأبي لتفقد البطيخ فستأتي معنا أيضا . »

« أ تذهبان لتترقبا اللصوص ؟ »

« لا . لو كان عابرو الطريق عطاشى ، وقطفوا بطيخة فان أهل ناحيتنا لا يعتبرونها سرقة . كل ما نبحث عنه هو حيوان " الفرير " والقنفذ و " الجا " . وحين تسمع صوت قرقشة في ضوء القمر يحدثها حيوان " الجا " وهو يقضم البطيخ ، فخذ مذراتك ، وازحف نحوه خلسة . . . »

وآنذاك لم تكن لي أية فكرة عما يسمى بـ « الجا » — ولست الآن أكثر معرفة من قبل — ولكنني شعرت على نحوما بأنه حيوان يشبه كلبا صغيرا ، وهو شرس للغاية .

« هل تعض هذه الحيوانات الناس ؟ »

« عندك مذراة . فامض قدما . وحين يراك تحاول ضربه فانه سيندفع نحوك لأنه مخلوق ماكر ثم يفر من بين ساقيك . ان فراءه زلق كالزيت . . . »

لم أكن أعرف بوجود كل هذه الأشياء الغريبة : فعلى ساحل

البحر هناك المحار بألوان قوس قزح ، والبطيخ له مثل هذا التاريخ الخطير ، وكل ما كنت أعرفه من قبل عن هذه الأشياء هو أنها كانت تباع عند البقال .

« في ساحلنا ، حين يأتي المد يأتي كثير من السمك القفاز ، لكل واحدة ساقان كالضفدعة . . . »

وقد كان رأس جون تو كنزاً لمثل هذه الغرائب وكلها كانت خارج مدارك أصدقائي السابقين . فقد كانوا يجهلون كل هذه الأشياء، وبينما كان جون تو يعيش على مقربة من البحر كانوا هم مثلي لا يستطيعون أن يروا غير أقطار السماء الأربعة فوق جدار الفناء العالي .

ولسوء الحظ كان على جون تو ان يعود الى البيت بعد انقضاء الشهر الأول من السنة الجديدة وقد انفجرت دموعي ، ولاذ هو في المطبخ باكيا ورافضا أن يخرج حتى حمله أبوه في آخر الأمر. وقد أرسل لي فيما بعد كيسا من المحار ، وعددا قليلا من الريش الجميلة ، وأرسلت أنا اليه هدايا مرة أو مرتين ، ولكن أحدنا لم ير الآخر مرة ثانية .

والآن حين ذكرته أمي ، عادت ذكرى الطفولة الى الحياة مثل وميض البرق . ولاح لي كأنني أرى بيتي القديم الجميل . فأجبت :

« جميل ! وهو — كيف حاله ؟ »

« هو ؟ هو الآخر ليس في حال طيبة مطلقا . . . » قالت أمي ثم تطلعت الى خارج الباب وقالت : « ها قد جاء هؤلاء

الناس ثانية ، يقولون انهم يريدون شراء أثاثنا . ولكنهم في الحقيقة يريدون فقط أن يروا ما يستطيعون التقاطه . ينبغي أن أذهب وأراقبهم . »

ونهضت أمي وخرجت . وكان من الميسور سماع عدة أصوات نسائية في الخارج . ودعوت هونغ اره الي ، وأخذت أتكلم معه فسألته هل في وسعه أن يكتب ؟ وهل هو مسرور في الرحيل ؟

« هل سنذهب بالقطار ؟ »

« نعم سنذهب بالقطار . »

« والمركب ؟ »

« سنركب فيه أولا . »

« أوه ! هكذا ! بهذا الشارب الطويل ؟ » رن صوت مجلجل غريب فجأة .

رفعت بصري جافلا ، فرأيت امرأة في نحو الخمسين من العمر لها وجنتان بارزتان وشفتان رقيقتان تقف أمامي ، ويداها على ردفيها ، وكانت ترتدي سروالا بدلا من الثوب وقد انفجرت ساقاها فكانت مثل البركار في صندوق للآلات الهندسية .

ودهشت ! !

« ألا تعرفني ؟ وقد حملتك على ذراعي ! »

وزادت دهشتي . ومن حسن الحظ أن أمي جاءت في تلك اللحظة ، وقالت :

« كان بعيدا عنا منذ زمن طويل ، فأعذريه لنسيانه . »

ثم تحولت الي وقالت : « يجب أن تتذكر انها السيدة يانغ من الجهة المقابلة للطريق . صاحبة دكان جبن الفول . »

وتذكرت حقا . عندما كنت طفلا كانت السيدة يانغ تجلس النهار كله تقريبا في دكان جبن الفول في الجانب الآخر من الطريق ، وكان الناس جميعا يسمونها « جمال جبن الفول » . ولكنها كانت تزين نفسها ، ولم تكن وجنتاها بارزتين على هذا النحو ، ولم تكن شفتاها على هذا النحو من الرقة ، وفضلا عن ذلك فقد كانت تجلس طوال اليوم فلم أفطن الى شبهها بالبركار . وفي تلك الأيام كان الناس يقولون ان دكان جبن الفول يدربفضلها رزقا عميما . ولكن من الممكن أنها لم تترك في نفسي أي انطباع لصغر سني ، فنسيتها فيما بعد كليا . وعلى أية حال كان البركار في حنق بالغ ، وقد نظرت الي بازدراء شديد ، تماما كما ينظر الانسان الى فرنسي لم يسمع بنابليون ، أو الى أميركي لم يسمع قط بواشنطون . وابتسمت بسخرية وقالت :

« لقد نسيت ؟ وبالطبع لا بد أنني كنت تحت مستوى نظرك . . . »

« بالتأكيد لا . . أنا ! » أجبت بحدة ، ونهضت على قدمي .

« اذن فأصغ الي ياسيد سين . لقد أصبحت غنيا ، وأثاثك أثقل من أن ينقل . فلعلك لا تريد قطع الأثاث القديمة هذه . فمن الخير أن تدعني آخذها . فالفقراء من أمثالنا يفيدون منها . »

« لم أصبح غنيا . يجب أن أبيع هذه لأشتري . . . »

« أوه ، اصغ الي ، لقد جعلوك مدير دائرة ومازلت تقول انك لست غنيا ؟ ولك الآن ثلاث محظيات ، ولا تخرج الا في محفة يحملها ثمانية حمالين ، ومع ذلك تقول انك لست غنيا ، هاه ! لا تستطيع أن تخفي أي شيء عني . »

لزمت الصمت عالما بأنني لا أستطيع أن أقول شيئا .

« التفت الي . حقا ! كلما حصل الناس على مال أكثر ازدادوا بخلا ، وكلما ازدادوا بخلا ، حصلوا على مال أكثر . . . » قالت شبيهة البركار ، وتحولت غاضبة ، ومشت بتثاقل ، والتقطت عرضا قفازات أمي ، وحشرتها في جيبها بينما هي ماضية في سبيلها .

وبعد ذلك ، جاء الى زيارتنا نفر من الأقرباء والجيران . وفي الفترات التي تخللت الترحيب بهم حزمت بعض الحاجيات . وعلى هذا المنوال مرت ثلاثة أيام أو أربعة .

وفي أصيل يوم بارد كنت جالسا أشرب الشاي بعد الغداء حين تبينت شخصا دخل البيت فأدرت وجهي لأعرف من هو . ومن النظرة الأولى اعترتني رعشة غير ارادية ، ونهضت مستعجلا لأرحب به .

كان القادم الجديد هو جون تو . ولكن رغم أنني عرفته بنظرة واحدة فلم يكن الشخص الذي أتذكره . فقد كبر الى ضعف حجمه السابق وقد علت وجهه المدور الأحمر صفرة، وخددته الخطوط والتجاعيد ، كما أصبحت عيناه أيضا مثل عيني والده لهما أشفار حمراء منتفخة ، وهذه صورة مألوفة لجميع

الفلاحين الذين يعملون على مقربة من البحر ، يتعرضون النهار كله الى الريح الهابة من المحيط . وكان يلبس قلنسوة من لبد رثة ، وسترة مبطنة تبطينا رقيقا ليس غير ، فكان يرتجف من قمة رأسه الى أخمصيه . وهو يحمل حزمة ورقية ، وغليونا طويلا . ولم تكن يداه تينك اليدين الحمراوين الممتلئتين اللتين أتذكرهما ، بل كانتا عجفاوين خشنتين ، وفيهما شقوق مثل لحاء شجرة الصنوبر .

واعتمل فيّ الفرح فلم أعرف كيف أعبر عما في نفسي ، ولم أستطع الا أن أقول :

« أوه ! جون تو . . هذا أنت . . هنا ! » و بعد . . . فهنا أمور كثيرة جدا أردت أن أتحدث عنها ، كانت تتدفق مثل حبات العقد : الودقوق والسمك القفاز والمحار ، والجا . . . ولكنني كنت معقود اللسان غير قادر على أن أضع كل ما كنت أفكر به في كلمات .

وقف . . وقد ظهر على وجهه مزيج من الغبطة والحزن . وتحركت شفتاه ، ولكنه لم يفه بكلمة . وفي الأخير قال بوضوح ، وهو يتخذ سمة تنم عن الاحترام :

« سيدي ! »

وشعرت برجفة تسري في كياني ، لإنني عرفت حينذاك أي جدار سميك مفزع يفصل بيننا . ومع ذلك فلم أستطع أن أقول شيئا .

وأدار رأسه لينادي :

« شي شنغ ، انحن للسيد . » ثم دفع الى الأمام بصبي

كان مختفيا وراء ظهره . وكان يشبه جون تو تماما قبل عشرين عاما، ولكنه أكثر شحوبا ونحافة ليس غير ، ولم تكن له قلادة في عنقه .

قال : « هذا ولدي الخامس . وهو لم ير مجتمعا من الناس ، لهذا فهو خجول ومرتبك . »

ونزلت أمي من الطابق العلوي ومعها هونغ اره فأغلب الظن أنها جاءت بعد أن سمعت أصواتنا .

قال جون تو : « لقد تسلمت الرسالة قبل زمن يا سيدتي والحق أنني سررت كثيرا لعلمي بعودة السيد . . . »

قالت أمي بانشراح :

« والآن ! لماذا أنت متكلف على هذا الشكل ، ألم تكونا صديقين في اللعب في الماضي ؟ من الخير أن تظل تدعوه أخي سين كما كنت تفعل من قبل . »

« أوه ، كيف يكون الأمر على هذا النحو . أية أخلاق سيئة ستكون هذه ؟ كنت آنذاك طفلا ، ولم أكن أفهم . »

وحين كان يتكلم كان يومىء الى شوي‌شنغ بأن يتقدم وينحني غير أن الطفل كان حييا جدا ، فلم يكن منه الا أن وقف وراء أبيه ساكنا .

سألت أمي : « أهذا شوي شنغ ابنك الخامس ؟ نحن غرباء جميعا فلا تنتقد شعوره بالخجل . من الأفضل أن يأخذه هونغ‌اره الى الخارج ليلعب . »

وحين سمع هونغ اره بذلك أقبل على شوي شنغ ، وخرج

معه في يسر تام . وطلبت أمي من جون تو أن يجلس ، وبعد أن تردد قليلا جلس ، ثم مال بغليونه الطويل على المنضدة ، وقدم حزمة ملفوفة بورق قائلا :

« ليس هناك في الشتاء مايستحق أن يؤتي به . ولكن هذا بعض الفول الذي جففناه بأنفسنا . فاعذرني على هذا التجاوز يا سيدي ! »

وحين سألته كيف تسير أموره لم يكن منه الا أن هز رأسه وقال :

« في حال سيئة جدا . حتى ابني السادس يمارس عملا صغيرا ، ولكن مانزال فاقدين ما يكفي . . . ثم ليس هناك من ضمان . . . كل الناس يريدون المال ، وما من قاعدة ثابتة . . . والمحصول سيء . أنت تزرع الزروع ، وحين تأخذه لتبيعه يجب عليك دائما أن تدفع ضرائب كثيرة ، وتخسر فلوسا . واذا لم تحاول بيعها خسرت كل شيء . . . »

ومضى يهز رأسه ، ومع ذلك ، فرغم أن وجهه قد خددته الخطوط والتجاعيد فان أي واحد منها لم يتحرك ، وكأنما هو تمثال قد من حجر . وما من ريب في أنه أحس بمرارة شديدة ، ولكنه لم يستطع الافصاح عن نفسه . وبعد أن توقف قليلا تناول غليونه وطفق يدخن في صمت .

وعلمت أمي من حديثها معه أنه مشغول في قريته ، وأن عليه أن يعود في اليوم التالي ، ولما كان لم يتناول الغداء فقد أخبرته بأن يذهب الى المطبخ ، ويسلق شيئا من الرز له .

وبعد أن ذهب ، هز كلانا ، أنا وأمي رأسه أسى على حياته القاسية ، أطفال كثيرون ، مجاعات ، ضرائب ، عساكر ، لصوص ، موظفون وأصحاب أراض ، كل هؤلاء قد عصروه حتى أصبح هيكلا كالصنم . وقالت أمي ينبغي أن نقدم له كل الأشياء التي لا نأخذها معنا وندعه يختار بنفسه .

وفي ذلك الأصيل حزم هو عددا من الأشياء : منضدتين طويلتين ، وأربعة كراسي ، ومحرقة بخور ، وشمعدانا ، وميزانا . كما طلب جميع الرماد الموجود في الموقد (في ناحيتنا نطهي الطعام بالقش ، ويمكن أن يستخدم الرماد لتسميد التربة الرملية) قائلا انه سيعود ليأخذ الرماد في قارب عندما نرحل .

في تلك الليلة تحدثنا طويلا ، ولكن لم نتحدث عن شيء جدي . وفي صباح اليوم التالي غادر مع شوي شنغ .

وبعد أن انقضت تسعة أيام أخرى حل يوم رحيلنا . وقد جاء جون تو في الصباح ، ولم يأت شوي شنغ معه — بل جلب معه فتاة صغيرة في الخامسة من العمر لتراقب القارب . وكنا جد مشغولين طوال اليوم ولم يكن لنا متسع من الوقت نتحدث فيه . وكان عندنا عدد كبير من الزوار أيضا ، بعضهم جاء لتوديعنا ، وبعضهم لأخذ الأشياء ، والبعض الآخر لكلا الأمرين . وكان المساء موشكا على الهبوط حين صعدنا الى المركب . وفي ذلك الوقت أصبح البيت فارغا من كل ما فيه ، مهما كان قديما أو رثا ، صغيرا أو كبيرا ، بديعا أو غير بديع .

وحين سار المركب كانت الجبال الخضر في الجهة الأخرى

من النهر قد أصبحت عميقة الزرقة في الغسق تتراجع خلف المركب .

وانحنينا ، أنا وهونغ اره ، على نافذة حجرة المركب ، ننظر معا الى المنظر المغبش في الخارج . وفجأة سأل :

« عمي ، متى سنعود ؟ »

« نعود ؟ هل تريد أن تعود ؟ نحن لم نفارق بلدنا الا قبل قليل فكيف نعود ؟ »

« نعم ، لقد دعاني شوي شنغ الى بيته . » وفتح عينيه الواسعتين في تفكير قلق .

وشعرت أنا وأمي بشيء من الأسى ، وهكذا عاد اسم جون تو ثانية . وقالت أمي منذ أن بدأت عائلتنا تحزم الأمتعة أخذت السيدة يانغ صاحبة دكان جبن الفول تأتي كل يوم . وفي اليوم السابق يوم سفرنا أخرجت من كومة الرماد كمّية من الطاسات والصحون ، أصرت بعد مناقشة قليلة على أن جون تو هو الذي دفنها حتى يستطيع أن يأخذها حين يأتي لنقل الرماد . وبعد هذا الاكتشاف كانت السيدة يانغ في غاية الرضا عن نفسها ، وانطلقت لتأخذ « مؤذي الكلاب » (في ناحيتنا يستخدم مربو الدجاج « مؤذي الكلاب » وهو قفص خشبي يوضع في داخله الطعام كيما تستطيع الدجاج أن تمد أعناقها وتأكل ، بينما لا تستطيع الكلاب الا أن تنظر في غيظ) . وكان عجبا أن تجري على هذا النحو ، وقدماها بهذا الحجم الصغير .

ها أنا أبتعد عن بيتي القديم أكثر فأكثر ، بينما كانت

التلال والأنهار في موطني القديم تتقهقر هي الأخرى شيئا فشيئا في المدى القصي . بيد أنني لم أشعر بأسف . بل لم أشعر الا بأن كل ما حولي كان جدارا عاليا يفصلني عن رفقائي . ولقد غمني ذلك غما شديدا . . وكانت صورة ذلك البطل الصغير ذي القلادة الفضية واقفا وسط حقل البطيخ واضحة وضوح النهار ، أما الآن فقد تضاءلت فجأة وزادت غمي .

نامت أمي وهونغ اره .

استلقيت أنا مصغيا الى الماء يتكسر تحت المركب عارفا أنني سائر في طريقي . وفكرت : رغم وجود حاجز كهذا بيني وبين جون تو فإن أطفالنا مازالوا يشتركون في أشياء كثيرة ، أ فلم يفكر هونغ اره بشوي شنغ منذ لحظة ؟ وآمل أن لا يكونوا مثلنا ، وأن لا يسمحوا بأن ينهض حاجز بينهم . ولكنني مرة أخرى لا أود أن تكون لهم حياة معذبة مثلي ولا أن يعانوا ما عاناه جون تو حتى يتنابهم الخبل ، ولا أن يكرسوا ، كالآخرين ، كل طاقاتهم للتهتك ، بل ينبغي أن تكون لهم حياة جديدة ، حياة لم يجربها قط .

والافراط في الأمل قد جعلني أخاف فجأة . حين طلب جون تو المبخرة ، والشمعدانات وقد ضحكت في سري لظني بأنه مايزال يعبد الأوثان ، وبأنه لن يبعدها عن ذهنه أبدا . ومع ذلك سميته أنا أملا لم يكن الا وثنا خلقته لنفسي . والفرق الوحيد هو أن ما يريده قريب من متناول يده ، وما أريده أنا ليس تحقيقه أيسر من ذلك .

كان شاطىء البحر الزاهي الخضرة يسبح في ظلام ويمتد أمام عيني ، وفوقه قمرذهبي مدور يتدلى من سماء عميقة الزرقة . وفكرت : لا يمكن أن تتحقق الآماني لمجرد أننا نقولها ، ولا يمكن أن تقال لأن تتحقق . انها مثل الطرقات في الأرض وفي الواقع لم يكن في الأرض طرقات عنـد البداية ، ولكن حين يسير كثير من الناس في اتجاه واحد يصنع الطريق .

كانون الثاني ١٩٢١



للفنان قو بنغ سين

قصة آه كيو الحقيقية

الفصل الاول

مقدمة

كنت أريد أن أكتب قصة « آه كيو » الحقيقية منذ عدة سنوات ، ولكن ! لما كانت لدي رغبة في الكتابة كانت في نفسي شكوك تدل على انني لست من اولئك الذين يحرزون المجد بالكتابة ، لأن القلم الخالد يبتغي دائما أن يسجل مآثر رجل خالد ، فالرجل يصبح معروفا لدى الاجيال المقبلة عن طريق الكتابة . والكتابة تصبح معروفة لدى الاجيال المقبلة عن طريق الرجل – حتى يصبح من غير الواضح في النهاية من منهما أصاب

الشهرة عن طريق الآخر . ولكنني في نهاية الأمر كأنما تقمصني جني فعدت الى التفكير في كتابة قصة آه كيو .

ومع ذلك فلم يمض على امتشاقي القلم زمن طويل حتى أصبحت أشعر بالمصاعب الجسيمة في كتابة قصة آه كيو البعيدة عن الخلود . ففي البدء كانت المسألة ماذا أسميه . لقد قال كونفوشيوس : « اذا كان الاسم غير صحيح ؛ فلن تبدو الكلمات حقيقية . » فيجب ان تراعي هذه البداهة بدقة متناهية وهناك صور مختلفة لكتابة السير والتراجم : التراجم الرسمية ، والتراجم الذاتية ، والتراجم غير المعتمدة ، والاساطير ، والتراجم التكميلية ، والانساب ، والصور التخطيطية . . . ولكن من سوء الحظ أن ما من واحدة منها تصلح لغرضي : ف « الترجمة الرسمية ؟» كما هو ظاهر ، لا تشمل تراجم كثير من الناس البارزين في بعض التواريخ الرسمية : و« الترجمة الذاتية ؟ » لا تصلح كذلك فمن الجلي الواضح أنني لست آه كيو . ولو سميت هذه « ترجمة غير معتمدة » فأين اذن « ترجمته المعتمدة ؟ » أما أن أستعمل الشكل « الاسطوري » فذلك شيء مستحيل لأن آه كيو ليس شخصية اسطورية . وهناك « الترجمة التكميلية ؟ » ولكن أي رئيس للمعهد التاريخي الوطني لم يأمر بكتابة « حياة أصلية » لآه كيو . ولشيء حقيقي أن التاريخ الانكليزي الرسمي رغم عدم احتوائه على « سير المقامرين » فإن المؤلف كونان ديول كتب « رودني ستون » . ولكن اذا كان ذلك جائزا لمؤلف مشهور فليس مباحا لكاتب مثلي . ثم هناك « الانساب » ولكنني لا أعرف

أأنا أنتمي لنفس العائلة التي ينتمي اليها آه كيو أم لا ، كما لم يعهد الي اطفاله أو احفاده بمثل هذه المهمة . اما اذا استخدمت « الصورة التخطيطية » فلم تكن لآه كيو في الحقيقة أية قصة كاملة عنه . وبكلمة موجزة : ان هذا هو تاريخ الانسان حقا . ولكن ما دمت اكتب القصة عن رعاع مستعملا لغة الباعة المتجولين فلا أجرؤ على الزعم بأنني أعنونه بعنوان ضخم ، بل سأستعيره من عبارة مهملة لروائيين لا يعتبرون من بين « العبادات الثلاث والمدارس التسع » (١) وأنا « هنا أغلق باب الثرثرة وأعود بكم الى القصة الحقيقية سأستعير منها الكلمتين الأخيرتين لعنواني فاذا كان ذلك تذكيرا بكتاب « القصة الحقيقية لفن الخط » (٢) للقدامى فلا حول ولا قوة .

والصعوبة الثانية التي جابهتني هي ان ترجمة على هذا الشكل ينبغي ان تبدأ بشيء كهذا « فلان الفلاني ، واسمه الآخر هو كذا وكذا من بلدة كذا وكذا » ولكنني في الحقيقة لا أعرف لقب آه كيو . فمرة يبدو أنه كان يسمى « تشاو » ومرة أخرى يبدو أنه حصل اختلاط في الموضوع . كان ذلك حين اجتاز ابن السيد تشاو امتحان المحافظة ، واعلن نجاحه في القرية

---

(١) العبادات الثلاث هي الكونفوشيوسية والبوذية والتاوية . والمدارس التسع تضم المدرسة الكونفوشيوسية ، والتاوية ، والشرعية ، والمادية ، وغيرها . والروائيون الذين لا ينتمون الى اي مدرسة من هذه المدارس يعتبرون غير محترمين كثيرا .

(٢) كتاب من تأليف فنغ وو من عهد أسرة تشينغ الملكية (١٦٤٤–١٩١١) .

بالناقوس المجلجل . وطفق آه كيو الذي كان قد احتسى قد حين من النبيذ يتوثب طربا ، قائلا ان ذلك يعود عليه ببعض الفخر ايضا ما دام هو الآخر ينتمي الى نفس عائلة السيد تشاو وهو ، بعد حساب دقيق ، أقدم من المرشح الناجح بثلاثة أجيال . وآنذاك أخذ بعض الواقفين يشعرون بشيء من الخوف منه . ولكن رسول الحاكم استدعاه في اليوم التالي الى بيت السيد تشاو . وحين القى السيد العجوز نظره عليه . احمر وجهه غيظا ، وزمجر قائلا :

« آه كيو ! ايها البائس التعيس ! هل تقول انك تنتمي لنفس العشيرة التي أنتمي اليها ؟ »

ولم يجب آه كيو بشيء .

وكلما امعن السيد تشاو النظر به ، استشاط غضبه أكثر ، وخطا خطوات الى الامام مهددا وقال : « كيف تجرؤ على ان تتحدث بهذا السخف ! كيف يمكن ان يكون لي قريب مثلك ؟ هل لقبك تشاو ؟ »

لم يجب آه كيو . وحاول التقهقر الى الوراء ؛ بيد ان السيد تشاو ، اندفع قدما وسدد له صفعة على وجهه : « كيف يمكن ان تسمى تشاو ! هل تحسب انك أهل لإسم تشاو ؟ »

ولم يبذل آه كيو أية محاولة للدفاع عن حقه في لقب تشاو ، ولكنه فرك خده الأيسر ، وخرج مع رسول الحاكم . وفي الخارج كان عليه ان يستمع الى سيل شتائم أخرى من الرسول وشكره على تسوية قدرها مئتا درهم . وكل من سمع بذلك قال ان آه

كيو معتوه كبير حين يسعى بنفسه الى صفعة كهذه . وحتى لو كان لقبه تشاو حقا – وهذا غير ممكن – كان ينبغي ان يعرف انه لا يجوز له المباهاة على هذا النحو حين يكون في القرية سيد لقبه تشاو . وبعد هذه الحادثة لم يشر احد الى سلالة آه كيو . لهذا فأنا ما أزال أجهل لقبه الحقيقي .

والصعوبة الثالثة التي لاقيتها في كتابة هذه القصة هي أنني لا أعرف حتى كيف يكتب اسم آه كيو الشخصي . فعندما كان على قيد الحياة كان جميع الناس يدعونه « آه كوي » ولكن بعد وفاته لم يذكر احد آه كوي مرة أخرى ، ذلك لأنه كما هو ظاهر ليس من تلك الاسماء التي «تحفظ على ألواح البوص والحرير» (١) . فاذا كانت هناك أية محاولة للابقاء على اسمه ، فلا بد من أن تكون هذه القصة أولى محاولة في هذا الموضوع ، ومن هنا جوبهت بهذه الصعوبة منذ البدء. وفكرت في المسألة تفكيرا شاملا : آه كوي – ما معنى هذه الـ « كوي » ؟ هل هي الكوي التي في معنى نبات « الزعفران » ، أو هي التي في معنى النبالة ؟ اذا كان اسمه الآخر بمعنى ايوان القمر ، أو اذا كان قد احتفل بعيد ميلاده في شهر مهرجان القمر فستكون كوي ، بكل تأكيد ، بمعنى نبات « الزعفران » (٢) . ولكن لما لم يكن له اسم آخر –

---

(١) عبارة استخدمت لأول مرة في القرن الثالث ق.م. وكان البوص والحرير يستخدمان مادة للكتابة عليها في الصين القديمة .

(٢) تتفتح براعم الزعفران في شهر مهرجان القمر . وكما يعتقد ، حسب الاسطورة الصينية ، ان الظل الظاهر على وجه القمر هو شجرة الزعفران .

واذا كان له فما من أحد يعرفه .ـ ولما كان لم يرسل في حياته دعوات في عيد ميلاده لضمان قصائد المدح فمن باب ارسال الكلام على عواهنه أن نكتب آه كوي (بمعنى الزعفران) . ثم لو أن له أخا أصغر أو أكبر يدعى « آه فو » (بمعنى رفاهية) فبالتأكيد أنه سيدعى « آه كوي » (بمعنى النبالة) ولكنه كان وحيدا فريدا ؛ وهكذا فما من حجة لتكتب آه كوي (بمعنى النبالة) (١) اما الحروف الأخرى غير الاعتيادية التي تلفظ « كوي » فهي أقل ملاءمة . وقد ألقيت أنا ذات مرة هذا السؤال على ابن السيد تشاو المرشح الناجح في المحفظة ، ولكنه عجز عن الجواب وهو الرجل المتعلم . فحسب رأيه على أية حال أن السبب في تعذر تتبع هذا الإسم هو أن « تشن تو سيو » (٢) قد أخرج مجلة « الشباب الجديد » داعيا الى استعمال الأبجدية الأوربية ، وهكذا فإن الثقافة الوطنية صائرة الى الاندثار . وفي محاولة أخيرة طلبت الى واحد من منطقتي أن يذهب ويفتش في الوثائق القانونية التي تسجل قضية آه كيو ، غير أنه أرسل لي رسالة ، بعد انقضاء ثمانية أشهر قائلا أن ليس في تلك السجلات أي إسم مثل « آه كوي » . ورغم عدم تثبتي من أن هذا حق ، أو أن صاحبي لم يقم بشيء البتة ، فإنني ، بعد فشلي في تتبع

(١) في اللغة الصينية قد يكون للفظة الواحدة معنيان أو أكثر يختلفان في الكتابة . وهنا يستغل لوشين المعنيين المختلفين الموجودين في لفظة « كوي » .

(٢) ١٨٨٠ – ١٩٤٢ ، استاذ في جامعة بكين في ذلك الحين – وقد كان يحرر « الشباب الجديد » وهي مجلة شهرية قادت الحركة الثقافية الجديدة .

الاسم بهذه الطريقة ، لم يسعفني تفكيري في العثور على طريقة أخرى لمعرفته . وما دمت خائفا من أن الطريقة الجديدة في الصوتيات لم تذع ولم تشع بين الناس حتى الآن فلا مفر من استخدام الأبجدية الغربية ، ووضع الإسم بالحروف الانكليزية ، واختصاره بـ « آه كيو » (AH.Q) . وهذا على وجه التقريب ، اقتداء أعمى بمجلة « الشباب الجديد » ، وأنا خجل من نفسي تماما ؛ ولكن ما دام حتى ابن السيد تشاو ، البالغ هذا الشأو من المعرفة ، لا يستطيع حل مشكلتي فماذا في وسعي أن أفعل ؟

وصعوبتي الرابعة هي في موطن آه كيو الأصلي . فلو كان لقبه تشاو ، فبمقتضى العرف الذي ما زال سائدا في تصنيف الناس حسب أقاليمهم ، يمكن أن ينظر المرء في تفسير « الألقاب المئة » (١) فيرى أنه « من أهالي تين شوي في مقاطعة كانسو ». ولكن من سوء الحظ أن هذا اللقب مشكوك فيه ، وبالنتيجة يظل موطن آه كيو الاصلي موضع ارتياب أيضا . ورغم أنه عاش في أغلب الأحيان في ويتشوانغ فكثيرا ما كان يمكث في أماكن أخرى . لهذا فمن الخطأ أن نعده من أهالي ويتشوانغ . فإن ذلك سيؤدي في الحق الى تشويه للتاريخ .

والشيء الوحيد الذي يسري عن نفسي هو أن حرف « آه » صحيح تماما واختياره ليس مجرد تقليد أعمى فإنه سيصمد حتما أمام النقد الاكاديمي ، أما الأشياء الأخرى التي تتعلق بآه كيو ،

---

(١) كتاب مدرسي لمبادىء القراءة نظمت فيه الألقاب شعرا .

فليس في مقدور غير المتعلمين أن يفهموها جيدا وكل ما أستطيع أن أتصوره هو أن طلاب الدكتور هوو شيه الذي له مثل هذا « الشغف في التاريخ وآثار الماضي » (١) قد يستطيعون في المستقبل أن يلقوا ضوءا جديدا عليها . ولكنني ، على أية حال ، أخشى أن يكون كتابي « قصة آه كيو الحقيقية » حينذاك قد عفا عليه النسيان .

وما تقدم يمكن أن يعتبر مقدمة .

الفصل الثاني

بيان موجز عن انتصارات آه كيو

بالاضافة الى الشك في لقب آه كيو ، واسمه ، وموطنه الأصلي ، هناك بعض الشك .

حتى في « ماضيه » . ذلك لأن أهالي « ويتشوانغ » همهم الوحيد أن يستفيدوا من خدماته ، ويعاملونه معاملة انسان هزأة دون أن يولوا أقل اهتمام لـ « ماضيه » . وآه كيو نفسه قد لزم الصمت في هذا الموضوع ما عدا أنه حين كان يتشاجر مع أحد من الناس كان في بعض الأحيان يلقي عليه نظرة ويقول : « لقد كنا أيسر حالا منك بكثير ! فمن تحسب نفسك على أية حال ؟ »

---

(١) هذه العبارة كثيرا ما كان يستخدمها هوو شيه اطراء لنفسه . وهوو شيه سياسي رجعي معروف وكاتب .

ولم تكن لآه كيو عائلة ، بل كان يعيش في معبد الإله الحارس في ويتشوانغ . ولم يكن يزاول عملا منتظما أيضا ، بل كان يشتغل أشغالا متفرقة للآخرين بين حين وآخر : يحصد الحنطة اذا كانت هناك حنطة يراد حصادها ، ويجرش الرز اذا أريد جرش الرز ، ويسوق القارب اذا أريدت سياقته . واذا كان العمل يستغرق وقتا طويلا فقد ينزل في بيت مخدومه الموقت ، وحالما ينتهي العمل يغادر البيت . وهكذا يتذكر الناس آه كيو كلما كان لهم حاجة يريدون قضاءها ، بيد أنهم يتذكرون خدمته ولا يتذكرون « ماضيه » ، ولكن حين ينتهي العمل ينسون حتى آه كيو نفسه فخل عنك « ماضيه » . وفي الحق أن رجلا عجوزا قال ذات مرة : « أي شغّال جيد هو آه كيو . » وفي تلك اللحظة كان آه كيو واقفا أمام الرجل عاريا حتى وسطه مسلوب الهمة ، نحيفا حتى لم يعرف الناس الآخرون هل هذا القول قيل جدا أو هزءا . غير أن آه كيو طرب لذلك طربا عظيما .

وآه كيو يعظم من شأن نفسه كثيرا ، ويحتقر أهالي ويتشوانغ جميعا ، وحتى أنه كان يتصور أن الشابين المتعلمين اللذين في هذه القرية لا يستحقان ابتسامة ، رغم أنهما ربما يجتازان الامتحانات الرسمية ويصبحان عالمين . وكان أهل القرية يبجلون السيد تشاو والسيد تسين ويحترمونهما كثيرا ، فهما فضلا عن غناهما أبوان لمتعلمين شابين . وآه كيو وحده لا يظهر لهما احتراما خاصا مفكرا في نفسه : « لعل إبناي أعظم بكثير ! »

وفضلا عن ذلك فبعد أن زار المدينة مرات أصبح أكثر

خيلاء ، رغم أنه ، في الوقت عينه ، احتقر أهل البلدة احتقارا عظيما . فمثلا ان أهالي ويتشوانغ القرويين يسمون المسطبة المصنوعة من ألواح الخشب ، ذات ثلاثة الأقدام بطول ثلاثة عقد بـ « المسطبة الطويلة » وكذلك يسميها آه كيو . بيد أن أهل البلدة يسمونها بـ « المسطبة المستطيلة » فكان يفكر : « هذا خطأ . يا له من أضحوكة ! » وأيضا حين يقلي قرويو ويتشوانغ السمك ذا الرأس العريض يضيفون له جميعا قطع البصل ، وطول القطعة عقدة واحدة ، أما أهل البلدة فيضيفون البصل المقطع قطعا ناعمة فكان يفكر : « هذا خطأ أيضا . يا له من أضحوكة ! » غير أن قروي ويتشوانغ قوم أغرار جهلاء حقا لم يروا قط سمك البلدة المقلي .

وآه كيو الذي كان « أيسر حالا بكثير » ورجلا متمرسا بالدنيا و « شغّالا جيدا » كان يمكن أن يكون رجلا كاملا تقريبا لو لم تكن له بعض العيوب الجسمية المؤسفة . وأكثرها ازعاجا هي في بعض الأماكن من فروة رأسه حيث ظهرت سابقا في تاريخ غير معلوم ، حلقات قرع لامعة . ورغم أنها كانت في رأسه هو فالظاهر أنه لم يعتبرها مشرفة البتة ، لأنه كان يحجم عن استعمال كلمة « قرع » أو أية كلمة تشبهها من قريب أو بعيد . ثم طور ذلك فيما بعد جاعلا كلمتي « لامع » و « نور » من الكلمات الممنوعة ، بل حتى كلمتي « مصباح » و « قنديل » أصبحتا بعد ذلك حراما . حتى ما أشير الى هذا الحرام عن قصد أو غير قصد ، تثور ثائرة آه كيو ، وتحمر ندوبه القرعية المدورة ،

ويحملق في هذا المنتهك ، فاذا كان شخصا ضعيف البديهة يصب عليه اللعنات ، اما اذا كان مسكينا في العراك فيضربه . ومع ذلك فالغريب أن آه كيو غالبا ما يخسر الجولة في هذه المنازلات حتى اتبع في آخر الأمر أسلوبا جديدا ، وهو أن يتقنع على العموم بنظرة شزراء .

ومهما يكن من شيء فقد حدث ، بعد أن أخذ يستعمل هذه النظرة الشزراء ، أن اشتد شغف المتبطلين في ويتشوانغ بالتنكيت على حسابه . فكانوا ما ان يرونه حتى يتظاهروا بالجفول ويقولوا :

« انظروا ! لقد طلع النور ! »

ويقع آه كيو في الشرك كالعادة ، وينظر شزرا ولكنهم يستمرون في القول دون أدنى خوف :

« أجل ، فهنا يوجد مصباح غازي . »

وُأسقط في يد آه كيو ولم يستطع ان يفعل شيئا غير أن يجهد فكره ليجد بعض الرد على الاساءة : « أنتم لا تستحقون حتى . . . » وفي هذه اللحظة الحرجة تبدو الندوب في فروة رأسه علامات نبل وشرف ، وليست ندوب قرع اعتيادية وعلى كل حال فإن آه كيو ، كما قلنا آنفا ، رجل متمرس بالدنيا ، فكان يعرف في الحال أنه كاد يأتي « الحرام » بنفسه فامتنع عن أن يقول شيئا بعد ذلك .

واذا لم يكتف المتبطلون بذلك ، واستمروا في ايقاعه بالشرك يقع الشجار بينهم في النهاية ، ولا يمضي المتبطلون في سبيلهم قانعين بالفوز الا بعد أن يهزم آه كيو في كل الأشكال ، وتجر

ضفيرته ، ويدق رأسه في الحائط أربع أو خمس مرات . وهناك يقف آه كيو لحظة مفكرا في نفسه : « كأن ابني ضربني ، فالى أي حال وصلت الدنيا في هذه الأيام . . . » ثم يمضي هو الآخر في سبيله قانعا بالفوز .

وكان كلما يفكر آه كيو بشيء فإنه يقوله للناس فيما بعد بالتأكيد : وهكذا فإن جميع الذين يتفكهون بآه كيو تقريبا كانوا يعرفون أن له هذه الطريقة في كسب فوز وجداني ولذلك كان جميع الذين جرّوا أو لووا ضفيرته يتصدون له بعد ذلك قائلين : « آه كيو ! ليس هذا ضرب ابن لوالده ، إنه ضرب رجل لحيوان. فلنسمعك تقول ذلك : ضرب رجل لحيوان ! »

واذ ذاك يمسك آه كيو ضفيرته من جذرها ، ويلوي رأسه ، ويقول : « ضرب حشرة — ما رأيكم في ذلك ؟ أنا حشرة — والآن هل تدعوني أمضي وشأني ؟ »

ولكن رغم أنه حشرة فإن المتبطلين لا يدعونه يمضي وشأنه حتى يضربوا رأسه في شيء قريب خمس أو ست مرات على عادتهم ، وبعد ذلك يمضون في سبيلهم مقتنعين بأنهم قد فازوا ، واثقين بأن آه كيو قد هلك في هذه المرة . ولكن آه كيو في أقل من عشر ثوان يستأنف سيره مقتنعا كذلك بأنه قد فاز ظانا بأنه هو « المستصغر الأول لنفسه » وبعد شطب كلمة « المستصغر لنفسه » يبقى « الأول » فحسب . أفليس أكبر مرشح ناجح في الامتحان الرسمي هو « الأول » أيضا ؟ « ومن تحسب نفسك على أية حال ؟ »

وبعد أن يستخدم آه كيو مثل هذه البدع النادرة للتصرف مع أعدائه ، يمضي في حال سبيله منشرح الصدر الى حانة النبيذ ليشرب بعض الأقداح من النبيذ ، مازحا مع الآخرين أيضا ، متشاجرا معهم مرة أخرى ، خارجا من ذلك منتصرا كذلك ، ثم عائدا منطلق الأسارير الى معبد الإله الحارس ، وهناك يستسلم الى النوم ما ان يمس رأسه الوسادة . واذا ملك فلوسا يذهب ليقامر. وهناك يجد جماعة من الرجال مقرفصين على الارض ، فيجلس آه كيو في الوسط ، ووجهه يتصبب عرقا ، ويصيح بصوت حاد : « أربع مئة على التنين الأخضر . »

« هاي ! افتح هنا ! » ويفتح الصندوق صاحب الرهان الذي يتصبب عرقا أيضا ، ويترنم : « باب السماء ! . . . لا شيء للزادية . . . ولم يراهن أحد على ممر الجمهور ! فلوس آه كيو أخذت ! »

« على الممر — مئة . . . مئة وخمسون ! »

وعلى نغم هذا الترنيم تختفي فلوس آه كيو بالتدريج في جيوب الناس المتصببين عرقا أيضا . وفي آخر الأمر يضطر الى أن يشق طريقه من بين الجمع ، ويراقب اللعب من الخلف ، متلذذا باللعب حتى ينتهي . وهناك يعود الى معبد الآله الحارس على مضض . وفي اليوم التالي يخرج الى الشغل وعيناه متورمتان .

وعلى كل حال فقد تظهر حقيقة المثل القائل : « قد تكون المصيبة بركة متسترة » وكان الحظ معاكسا في كل الأحوال لآه كيو ، فاذا كتب له الفوز مرة فإنه في النهاية ينقلب الى

فشل ذريع .

كان ذلك في مساء عيد الآلهة في ويتشوانغ . وحسب مألوف العادة كانت هناك تمثيلية ، وكانت هناك حسب مألوف العادة أيضا موائد للقمار بالقرب من المسرح . وكانت طبول التمثيلية وصناجاتها تتوغل أصواتها الى بعد ثلاثة أميال تقريبا أما آه كيو فقد كانت أذناه مكرستين لسماع ترنيم صاحب القمار فحسب . وقد راهن بنجاح مرة بعد أخرى ، وتحولت دراهمه النحاسية الى نقود فضية ثم تحولت نقوده الفضية الى دنانير ، ثم ارتفعت دنانيره . ومن تأثره صاح : « ديناران على باب السماء ! »

ولم يعرف من الذي بدأ النزاع ، ولا لأي سبب . وشكلت اللعنات واللكمات ووقع الأقدام خليطا من الأصوات المضطربة في رأسه ، وحين تحامل على قدميه ليقف كانت موائد القمار قد اختفت ، وكذلك المقامرون ! وكانت بعض مواضع من جسمه تبدو موجعة وكأنه قد لكم ورفس ، بينما كان نفر من الناس ينظرون اليه في دهشة . وعاد الى معبد الآله الحارس وهو يشعر كأن في الأمر خطأ ، وحين استعاد رباطة جأشه ، أدرك أن كومة دنانيره قد اختفت . ولما كان معظم الذين يديرون موائد القمار في العيد ليسوا من أهل ويتشوانغ فأين يستطيع أن يبحث عن الجانين؟

كومة من الفضة بيضاء ناصعة البياض ، متلألئة ! كانت كلها له . . . أما الآن فقد اختفت . وحتى اذا اعتبر هذا كأن إبنه قد سرقه فلن يسري ذلك عنه . وكذلك لا يهدىء من غضبه وجزعه اعتبار نفسه حشرة . حقا في هذه المرة ذاق شيئا من مرارة

الهزيمة .

ولكنه حول الهزيمة الى نصر فورا . فقد رفع يده اليمنى ، وصفع بها خده صفعتين قويتين حتى خدر وجهه من الألم . وبعد هاتين الصفعتين أحس براحة في قلبه ، لأنه قد بدا كأن الرجل الصافع هو نفسه ، أما المصفوع فهو شخص آخر ، وفي الحال تصور كأنما هو نفسه قد ضرب شخصا آخر — رغم أن وجهه ، كان ما يزال خدرا من الضرب . واستلقى مقتنعا بأنه قد كسب الفوز .

وسرعان ما غط في النوم .

الفصل الثالث

بيان آخر عن انتصارات آه كيو

رغم أن آه كيو يحرز الانتصارات دائما فإنه لم ينل الشهرة الابعد أن حظي بصفعة من السيد تشاو .

بعد أن دفع لرسول الحاكم مئتي درهم استلقى غاضبا . وقد قال لنفسه فيما بعد : « الى أي حال وصلت الدنيا في هذه الأيام ، الأبناء فيها يضربون آباءهم . . . » ثم ان التفكير في منزلة السيد تشاو ، الذي هو الآن ابنه ، قد رفع معنويته شيئا فشيئا ، ونهض ، وسار الى حانة النبيذ مغنيا أغنية « الأرملة الشابة على قبر زوجها » . وفي أثناء ذلك شعر بأن السيد تشاو هو من طراز يعلو على معظم الناس .

ومن الغريب أن الناس جميعا ، بعد تلك الحادثة ، بدوا

كأنهم يولونه احتراما غير اعتيادي . ولعل سر احترام الناس هذا يعود في رأي آه كيو الى أنه أب للسيد تشاو حقيقة ، ولكن القضية في الواقع ليست على هذا النحو . ففي ويتشوانغ ، يوجد عندهم عرف سائد : اذا ضرب الطفل السابع الطفل الثامن ، أو ضرب « لي الفلاني » « تشانغ الفلاني » فلا يؤخذ الأمر بمأخذ الجد . ولكن ضربا تتصل أسبابه بشخصية لها أهمية مثل السيد تشاو أمام أهل القرية فإن الناس يعتبرونه ضربا يستحق التحدث عنه ، لأن الضارب رجل مشهور لذلك تمتع المضروب بشيء من انعكاس شهرة الضارب عليه . ولما كان الخطأ هو خطأ آه كيو وقد أخذ ذلك على سبيل اليقين بالطبع فالصواب ان السيد تشاو لا يمكن أن يكون على خطأ . ولكن ! اذا كان آه كيو على خطأ فلماذا يبدو الناس جميعا كأنهم يعاملونه باحترام غير اعتيادي ؟ ذلك أمر صعب تفسيره . ويمكن أن نفترض أن الناس قد خافوا ، بعد أن قال آه كيو انه ينتمي الى نفس عائلة السيد تشاو ، رغم أنه قد ضرب على ذلك ، فربما يكون في قوله بعض الحقيقة ، فلذلك ظنوا أن من الأسلم أن يعاملوه بشيء من الاحترام . أو أن هناك فرض آخر وهو أن تكون القضية مثل قضية لحم الضحية البقريّ في معبد كونفوشيوس ، فرغم ان التضحية بلحم البقر هي من نوع التضحية بلحم الخنزير أو الضأن ، لأنه لحم حيوان أصلي كالحيوانين الآخرين ، فلم يجرؤ الكونفوشيوسيون على لمسه ما دام نبيّهم قد استمتع به .

وبعد ذلك سعد آه كيو سنوات كثيرات .

وذات ربيع كان يسير نشوان من السعادة فرای وانغ ذا السبال قد تعرى الى وسطه في ضوء الشمس تحت حائط ، يلتقط القمل ، وبهذا المنظر أخذ بدنه يحكه . ولما كان وانغ ذو السبال أجرب مرسل السبال فكان الجميع يدعونه « سبال الاقرع » . ورغم أن آه كيو يحذف كلمة « الاقرع » فانه يحمل أشد الازدراء له . وقد شعر آه كيو بأن الجرب شيء لا اعتراض عليه بيد أن ذينك الخدين الاشعرين مستهجنان جدا ، ولا يمكن أن يثيرا غير الازدراء . وهكذا جلس آه كيو الى جانبه ، فلو كان أي متبطل آخر لما جرؤ آه كيو على أن يجلس هكذا بعدم اكتراث . ولكن ! ماذا يخاف من جانب وانغ ذي السبال ؟ ولأقل الحقيقة ان رغبته في الجلوس كانت شرفا لوانغ .

وخلع آه كيو سترته المخططة المهلهلة ، وقلبها على بطنها ، ولكن البحث الطويل لم يأت بغير قملات ثلاث أو أربع وذلك عائد اما الى أنه غسل السترة حديثا ، واما الى أنه كان متسرعا جدا . وكان يرى وانغ ذا السبال في الجانب الآخر يلتقط القمل واحدة بعد أخرى في تتابع خاطف ، ويقصعها في فمه بصوت مفرقع !

وشعر آه كيو بالكدر أول الأمر ، ثم بالازدراء . ان الحقير وانغ ذا السبال استطاع ان يمسك بهذا العدد الكبير ، بينما هو أمسك بهذا العدد الضئيل — فيا للعار ويا للشنار ! وتلهف الى ان يمسك قملة أو قملتين من الحجم الكبير . ولكن ما من شيء ثم أمسك بعد مشقة كبيرة قملة متوسطة الحجم ألقاها في فمه بقسوة ،

وعضها بوحشية ، ولكنها لم ترسل غير صوت رذاذي ، اوطأ درجة من الضوضاء التي يحدثها وانغ ذو السبال .

واحمرت ندوب آه كيو القرعية . ورمى سترته على الارض ، وبصق وقال : « حشرة ! »

ونظر وانغ ذو السبال بازدراء قائلا : « ايها الكلب الأجرب من هو الذي تشتمه ؟ »

ورغم أن الاحترام النسبي الذي وهب لآه كيو في السنوات الأخيرات قد زاد من تيهه فانه يظل خائفا قليلا حين يجابه ببعض العيارين الذين قد تعودوا الخصام . غير انه في هذه المرة أحس بشعور لاذع استثنائي . فكيف يجرؤ مخلوق مشعر الخدين كهذا على اهانته ؟

قال آه كيو وقد وقف ويداه على ردفيه : «كل انسان ينطبق عليه الاسم . »

قال وانغ ذو السبال وقد وقف ايضا ، وارتدى معطفه : « هل يحككك جلدك ؟ »

وظن آه كيو أن وانغ يريد أن يهرب فتقدم رافعاً قبضته ليضربه . ولكن ! قبل ان تنزل قبضته امسكه وانغ ذو السبال ، وشده شدة جعلته يترنح . ثم أمسك وانغ ذو السبال ضفيرة آه كيو ، وأخذ يجره الى الحائط ويدق رأسه بالطريقة الشائعة الاستعمال .

فاحتج آه كيو وهو يلوي رأسه : « ان السيد المحترم يستعمل لسانه لا يديه . »

والظاهر أن وانغ ذا السبال لم يكن سيدا محترما فإنه دق

رأس آه كيو في الحائط خمس مرات متتابعات دون أن يعير أي التفات الى قوله ، ود فعه دفعة ارسلته متقهقرا الى مسافة ذراعين . وعند ذلك فقط مشى وانغ ذو السبال راضيا .

وكانت هذه ـ بالقدر الذي يتذكره آه كيو ـ أول اهانة في حياته ، فقد كان دائما يهزأ بوانغ ذي السبال بسبب خديه المشعرين القبيحين ، ولكنه لم يتلق هزءا من وانغ ذي السبال ، بله ضربه منه . أما الآن ، فخلافا لكل ما هو متوقع ، يضربه وانغ ذو السبال . فلعل ما قالوه في السوق صحيحا حقا : « الامبراطور ألغى الامتحانات الرسمية ، لهذا فان العلماء الذين اجتازوها لم يعودوا مطلوبين . » ونتيجة لذلك فقدت عائلة تشاو منزلتها . فهل نتيجة لذلك أيضا أن الناس يعاملونه باحتقار؟

وقف آه كيو هناك حائرا .

ومن بعيد اقترب عدو آخر لآه كيو . كان ذلك هو الابن الأكبر للسيد تسين . وكان آه كيو يحتقره ايضا . وكان هذا قد درس في مدرسة أجنبية في المدينة ، ويبدو أنه قد ذهب الى اليابان بعد الدراسة . وحين عاد بعد نصف عام كانت له ساقان مستقيمتان (١) ، وقد اختفت ضفيرته وبكت أمه بألم مرات كثيرات ، وحاولت زوجته ثلاث مرات أن تلقي نفسها في البئر . وفيما بعد نقلت والدته هذه الحادثة الى كل الناس : « لقد قص

---

(١) كان الصينيون في تلك الأيام حين يبصرون الاجانب يسيرون بخطى واسعة ـ خلافا لمشية الصينيين المألوفة ـ يتصورون أن الاجانب ليست لهم مفاصل عند الركبتين .

أحد الأنذال ضفيرته عند ما كان سكران . وقد فشل في أن يكون موظفا . ولكن عليه الآن أن ينتظر حتى تنمو ضفيرته ثانية قبل أن يفكر في الوظيفة . » ومع ذلك فإن آه كيو لم يصدق هذا الأمر وأصر على تسميته : « مقلد الشيطان الأجنبي » و« خائن مأجور للأجانب » . وما ان يراه حتى يلعنه في سره .

وأكثر ما يحتقره آه كيو ويمقته في ذلك الرجل هو ضفيرته المستعارة . فالرجل حين ينتهي الى ان تكون له ضفيرة مستعارة يعسر أن يسمى انسانا ، ولما كانت زوجته لم تحاول مرة رابعة القاء نفسها في البئر فان ذلك يدل على أنها ليست امرأة صالحة ايضا .

والآن يقترب منه هذا « المقلد للشيطان الأجنبي » .

« أصلع — حمار — » . وفي الماضي كان آه كيو يشتم في سره فقط ، وبصوت غير مسموع ، اما اليوم فلأنه كان متعكر المزاج فقد أراد أن يفصح عن مشاعره ، وانزلقت الكلمات من فمه بطواعية .

ومن سوء الحظ أن هذا « الاصلع » كان يحمل عصا بنية لامعة كان آه كيو يدعوها « عكازة يحملها نائح » ، وبخطى واسعة انقض على آه كيو الذي خمن في الحال أن ضربا يوشك أن يقع ، فشد على نفسه منتظرا وقد تصلب ظهره . وبالتأكيد تماما كان ثمة ضرب رنان يبدو أنه يهبط على رأسه .

فقال آه كيو محتجا وهو يشير الى طفل : « أقصده . »

طاب ! طاب ! طاب !

وحسب ما يتذكره آه كيو فإن هذه هي الاهانة الثانية في

حياته . ومن حسن الحظ أنه توهم ، بعد أن ضرب ، ان القضية قد أغلقت ، فأخذ يشعر بشيء من الارتياح . وفضلا عن ذلك فإن المقدرة القوية على النسيان التي ورثها من أسلافه قد أفادته فمشى بتؤدة ، وحين وصل الى باب الحانة شعر بالسعادة القصوى مرة أخرى .

وفي تلك اللحظة ، على أية حال ، أقبلت نحوه راهبة صغيرة من دير « تحسين النفس الهادىء » . ومنظر أية راهبة يجعل آه كيو يشتم : فكيف اذا كان ذلك بعد اهانة لحقته ؟! وحين استرجع ما حدث عاد اليه كل غضبه .

ففكر في نفسه : « ربما كان سبب تعاسة حظي أن أضطر لأراك . »

وجاء اليها وبصق بصوت صاخب : « اخ . . . اخ . . . تف . . . »

فلم تلتفت الراهبة الصغيرة الى ذلك أقل التفات ، بل سارت منخفضة الرأس . وأقبل آه كيو عليها ، وألقى يدا ليفرك فروة رأسها التي حلقت حديثا ، ثم ضحك بغباء وقال : « صلعاء ! عودي بسرعة ! ان راهبك ينتظرك . . . »

« من أنت لتخمش ؟ . . . » قالت الراهبة ذلك وقد احمرت بشدة ، وبدأت تبتعد مسرعة .

وانفجر الرجال الذين كانوا في الحانة ضاحكين . وحينما رأى آه كيو أن صنعه قد أثار إعجابا أخذ يتيه خيلاء .

وقال وهو يقرص خدها : « اذا كان الراهب يخمشك ،

فلماذا لا أستطيع أنا . »

ومرة اخرى انفجر الرجال الذين كانوا في الحانة ضاحكين وشعر آه كيو بسرور أكثر ، ولكي يرضي أولئك الذين عبروا عن استحسانهم قرصها أشد من قبل ، قبل أن يدعها تذهب .

وخلال هذا اللقاء كان قد نسي وانغ ذا السبال ومقلد الشيطان الاجنبي ، وكأنه قد أخذ الثأر لكل الحظ التعيس الذي لقيه اليوم . ويا للعجب ! لقد شعر بارتخاء أكثر مما شعر به بعد الضرب ، وبأنه خفيف وطائف ، فكأنه مستعد لأن يسبح في الهواء .

وانطلق صوت الراهبة الصغيرة من بعيد مفعما بالعبرة : « آه كيو ! عساك أن تموت بلا ولد . »

وانفجر آه كيو بضحكة بهيجة .

وانفجر الرجال الذين كانوا في الحانة ضاحكين ، وقد خف رضاهم قليلا .

الفصل الرابع

مأساة الحب

يقولون ان بعض المنتصرين لا يلذ لهم الانتصار ما لم يكن خصومهم أشداء كالنمور أو النسور : فاذا كان غرماؤهم هيابين كالغنم أو الدجاج يجدون نصرهم فارغا . وهناك طائفة اخرى من المنتصرين يدركون بعد أن يذبح عدوهم أمامهم أو يستسلم ،

أو يرتعش في مذلة تامة أنهم الآن قد أصبحوا بلا أعداء ، أو خصوم ، أو أصدقاء – وليس لهم غير أنفسهم سامين منفردين منعزلين ، مهملين ، فيجدون نصرهم مأساة . غير أن بطلنا ليس متزمتا على هذا النحو . فقد كان دائما متهللا . وقد يؤخذ ذلك برهان على فواق الخلق الصيني على سائر العالم .

انظر الى آه كيو خفيفا تياها وكأنه يوشك أن يطير .

وعلى كل حال ليس هذا النصر دون نتائج غريبة . ذلك لأنه بدا ردحا من الزمن كأنه يطير ، ثم اندفع الى معبد الآله الحارس حيث سيشخر ، طبيعيا ، عندما ينطرح على فراشه . ولكنه في هذا المساء وجد من العسير جدا أن يغمض عينيه ، لأنه شعر بشيء ما في ابهامه وسبابته اللتين بدتا أنعم مما هما في العادة . ومن المستحيل أن يقال ان شيئا ناعما ورقيقا على وجه الراهبة الصغيرة قد التصق بأصبعيه ، أو أن أصبعيه قد نعما بحك خدها .

« آه كيو عساك أن تموت بلا ولد . »

ترددت هذه الكلمات في أذن آه كيو مرة أخرى وفكر : « صواب تماما ! سأتخذ زوجة لأن الرجل اذا مات بلا ولد فما من أحد يضحي بطاس من الرز على روحه . . . يجدربي أن تكون لي زوجة . » وكما يقول المثل : « هناك ثلاثة أشكال للسلوك غير البنوي ، أحطها أن لا يكون لك خلف . » (١) ، واحدى مآسي الحياة « أن الارواح التي بلا خلف تذهب

---

(١) اقتباس من منشيوس (٣٧٢ – ٢٨٩) ق.م.

جائعة » (١) . وهكذا فإن رأيه متفق تماما مع تعاليم القديسين والحكماء . ومما يرثى له حقا أنه قد فقد صوابه فيما بعد . لا محالة في ذلك .

فكر : « مرأة ، مرأة ! . . . »

« . . . الراهب يخمش . . . مرأة ، مرأة ! . . . مرأة ! »

فكر ثانية .

ونحن لا نعرف أبدا متى نام آه كيو آخر الأمر ذلك المساء ولعله بعد ذلك ، على أية حال كان يجد أصبعيه على الدوام ناعمتين رقيقتين وظل طويلا وهو ثمل بهذا الشعور اللذيذ . وظل يفكر : « مرأة . . . »

ومن هنا نرى أن المرأة خطر على البشرية .

فأغلب الرجال الصينيين في وسعهم أن يكونوا قديسين ، وحكماء لو لا الحقيقة المؤلمة ، وهي أن النساء كن يغرينهم . لقد دمرت تاتشي أسرة شانغ الملكية ، ودمرت باوسو اسرة تشو الملكية ، أما اسرة تشن الملكية فبالرغم من عدم وجود دليل تاريخي على ذلك فإننا لا نخطئ كثيرا اذا زعمنا أنها قد سقطت بسبب بعض النساء . وحقيقة واقعة ان تياو تشان هي التي سببت موت تونغ تشو (٢) .

---

(١) اقتباس من كتاب قديم اسمه « تسو تشوان » .

(٢) تاتشي من القرن العشرين قبل الميلاد كانت محظية آخر ملك من اسرة شانغ . وباوسو من القرن الثامن قبل الميلاد كانت خليلة آخر ملك لاسرة تشو الغربية . وكانت تياو تشان محظية تونغ تشو وهو وزير عظيم الشأن في القرن الثالث بعد الميلاد .

وقد كان آه كيو أيضا رجلا ذا خلق متين في البداية . ورغم أننا لا نعرف هل كان مسترشدا بهدى معلم عظيم ؟ ولكننا نعرف أنه كان على الدوام يظهر أشد تدقيقا في مراعاة « الفصل الدقيق بين الجنسين » ، وكان على حق في استنكاره للضالين من أمثال الراهبة الصغيرة ، ومقلد الشيطان الأجنبي وكان يرى « أن لجميع الراهبات علاقات سرية مع الرهبان . وحين تسير امرأة في الشارع وحدها ، فلا بد من أنها تريد اغواء أعزب . وحين يسير رجل وامرأة معا فلا بد من أنهما يدبران خلوة . » ولاصلاح مثل هؤلاء كان يحملق بغيظ ، ويلقي الملاحظات القوية القاطعة ، واذا كان المكان مهجورا يلقي حجرا صغيرا من الخلف .

فمن كان في وسعه أن يتنبأ بأنه ـ وقد شارف على الثلاثين وهي السن التي يجب أن « يقف فيها الرجل ثابتا » (١) ـ يجن جنونا كهذا على راهبة صغيرة ؟ ان مثل هذا الطيش حسب الشرائع الكلاسيكية أكثر الأشياء مجلبة للتقريع ، وهكذا فان النساء مخلوقات كريهات بلا ريب . فلو لم يكن وجه الراهبة الصغيرة رقيقا ناعما لما فتن آه كيو بها ، أو لما حدث ذلك لو كان وجه الراهبة الصغيرة مغطى بالثياب . وقبل خمس أوست سنوات حين كان يشاهد على اوبرا في الهواء الطلق قرص

---

(١) يقول كونفوشيوس أنه قد « وقف ثابتا » وهو في الثلاثين ، وقد استخدمت هذه العبارة فيما بعد للتدليل على أن عمر الانسان كان ثلاثين عاما .

ساق امرأة من المشاهدات ولكن لم يتملكه شعور بالطيش بعد ذلك لأنها كانت مفصولة عنه بقماش سروالها . ولم يكن لتلك الراهبة الصغيرة ما يغطي وجهها . وذلك على أية حال برهان آخر على فظاعة الضال عن الدين .

« مرأة . . . » فكر آه كيو .

وترصد ترصدا دقيقا أولئك النساء اللائي يعتقد بأنهن « يردن اغواء الرجال السيئين » ، بيد أنهن لم يبتسمن له . وأصغى بعناية الى اولئك النساء اللواتي يتحدثن اليه ، ولكن أية واحدة منهن لم تذكر شيئا يتعلق بلقاء سري . آه ! ذلك قول آخر على شناعة النساء ، انهن جميعا يتظاهرن بحشمة كاذبة .

وذات يوم حين كان آه كيو يجرش الرز في بيت السيد تشاو جلس في المطبخ بعد العشاء ليدخن غليونا . ولو كان في بيت آخر غير هذا البيت لكان في وسعه أن يعود الى البيت بعد العشاء . غير أنهم قد تعشوا مبكرا في بيت تشاو . وجريا على العادة ينبغي أن لا يوقد مصباح ، وأن يؤوى الى الفراش بعد الطعام . غير أن هناك استثناءات من هذه العادة تحدث بين حين وآخر ، فقد سمحوا لابن السيد تشاو قبل أن يجتاز امتحان المحافظة بأن يوقد مصباحا ليدرس مقالات الامتحان ، وحين كان آه كيو يأتي بين حين وآخر ليؤدي عملا كانوا يسمحون له باشعال مصباح لتقشير الرز . وبسبب هذا الاستثناء الأخير من العادة كان آه كيو يجلس في المطبخ يدخن غليونه قبل أن يستأنف عمله .

وحين فرغت « آماه وو » الخادمة الوحيدة في بيت تشاو من غسل الصحون جلست هي الأخرى على مسطبة طويلة وطفقت تتجاذب أطراف الحديث مع آه كيو .

« لم تأكل سيدتنا شيئا مدة يومين اثنين ، لأن السيد يريد أن يتخذ له محظية . »

فكر آه كيو : « مرأة . . . آماه وو . . . هذه الأرملة الصغيرة . »

« وسيدتنا الصغيرة ستضع طفلا في الشهر الثامن . . . »

وفكر آه كيو : « مرأة . . . » ونهض تاركا غليونه بينما كانت آماه وو ماضية في حديثها : « وسيدتنا الصغيرة . . . »

وفجأة اندفع آه كيو وألقى نفسه على قدميها ، وقال : « أ تنامين معي ؟ » ومرت لحظة صمت مطبق .

« وي ! وي ! » وصعقت آماه وو ، ثم طفقت ترتجف فجأة ، واندفعت الى الخارج صارخة ، وفي الحال ارتفع نشيجها .

وكان آه كيو جاثيا على ركبتيه ازاء الحائط مصعوقا أيضا . وأمسك بالمسطبة الفارغة بكلتا يديه ، ونهض بتثاقل ، وقد أدرك بشكل غامض أن شيئا مغلوطاً قد وقع . وفي الحق أنه كان في ذلك الحين بحالة عصبية مقدارا ما . وحشر غليونه في حزامه باضطراب ، وقرر أن يعود الى الرز . ولكن — طاب ! وهبطت ضربة قوية على رأسه ، وأدار رأسه فرأى مرشح المحافظة الناجح يقف أمامه شاهرا قضيب بوص طويلا .

« كيف تجسر ؟ . . . أنت !؟ »

وهبط قضيب البوص عبر كتفيه . وحين وضع يديه ليقي رأسه ، نزلت الضربة على براجمه مسببة له ألما كبيراً . وحين فلت من باب المطبخ بدا كأن ظهره قد تلقى ضربة أيضا .

وصاح المرشح الناجح : « يا بيضة السلحفاة ! » شاتما اياه من الخلف بلغة صينية رسمية .

وفرّ آه كيو الى مكان التقشير حيث وقف وحيدا ، وهو ما يزال يحس بألم في براجمه ، وما تزال في باله « بيضة السلحفاة » لأنها عبارة لم يستعملها قرويو ويتشوانغ قط ، بل لا يستعملها غير الاغنياء الذين رأوا شيئا من الحياة الرسمية . وأرغبه ذلك ، وترك في عقله أثرا عميقا على نحو استثنائي . غير أن كل تفكير « مرأة . . . » قد تدفق عليه الآن على أية حال . وبعد هذا الشتم والضرب بدا كأنه قد اقتنع بشيء ، فبدأ يقشر الرز منشرح الصدر تماما ، وبعد أن قشر زمنا شعر بالحر ، وتوقف ليخلع قميصه .

وبينما كان يخلع قميصه سمع هديرا في الخارج ولما كان آه كيو يحب دائما أن يشارك في أي أمر مثير يقع خرج ليبحث عن الصوت . وتتبعه حتى الفناء الداخلي للسيد تشاو . وكان في وسعه رغم الظلام أن يرى كثيرا من الناس هناك ، وأن يرى عائلة تشاو ومن بينها السيدة التي لم تأكل مدة يومين اثنين . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك جارتهم السيدة تسو وقريبيهم تشاو باي ين ، وتشاو سو تشن .

وكانت السيدة الصغيرة تخرج آماه وو من مأرى الخدم ،

وهي تقول :

« اخرجي . . . لا تظلي تفكرين في غرفتك . »

فقالت السيدة تسو من جانب : « كل امرئ يعرف أنك امرأة صالحة ، فينبغي أن لا تفكري بالانتحار . »

وكانت آماه وو تولول معولة ، وتدمدم بشيء غير مسموع .

وفكر آه كيو : « شيء ممتع ! أية مصيبة يمكن أن تحل بهذه الارملة الصغيرة ؟ » وعندما اراد أن يكتشف ذلك اقترب من تشاو سو تشن وفجأة أبصر الابن الاكبر للسيد تشاو يندفع نحوه ، والاكثر من ذلك أنه كان يحمل في يده قضيب البوص الكبير . وقد ذكره منظر هذا القضيب الكبير بأنه قد ضرب به ، وأدرك أن له ، كما يظهر ، علاقة على نحوما بهذا المنظر المثير . وأدار عقبيه ، وهرول مؤملا أن يهرب الى مكان التقشير دون أن يدرك أن قضيب البوص سيقطع عليه تقهقره ، وهنا دار وركض في الاتجاه المعاكس خارجا من الباب الخلفي دون أن يحدث جلبة . وبعد وقت قصير عاد الى معبد الآله الحارس .

وبعد أن جلس برهة ، بدأ جلده يقشعر ، وأحس بالبرد لأن الليالي ما زالت باردة جدا رغم حلول الربيع ولا تلائم الظهور العارية . وتذكر أنه ترك قميصه في بيت تشاو ، ولكنه خاف أن يذهب ليأخذه ، فقد يذوق طعم قضيب بوص المرشح الناجح مرة أخرى .

ثم جاء رسول الحاكم وقال له : « لعنة عليك يا آه كيو . أنت لا تستطيع حتى الابتعاد عن خدم عائلة تشاو ، أيها المتمرد !

لقد ضيعت على نومي . . . عليك اللعنة . »

وطبيعي أن آه كيو لم يكن له ما يقوله تحت هذا السيل من السباب . وفي آخر الأمر ، لما كان الوقت ليلا فقد كان على آه كيو أن يدفع ضعفا ، ويعطي للرسول أربع مئة درهم . ولكن صادف أن ليس معه المال نقدا فوضع قبعته الصوفية ضمانا ، ووافق على أن يلتزم بالبنود الخمسة الآتية :

١ ـ أن يحمل آه كيو في الصباح التالي الى عائلة تشاو قنديلين أحمرين يزنان رطلا واحدا ، وحزمة من أعواد البخور تكفيرا عن سيئاته .

٢ ـ أن يدفع آه كيو أجرة للقسوس التاويين الذين دعتهم عائلة تشاو لطرد الارواح الشريرة .

٣ ـ أن لا يضع قدما في بيت تشاو منذ الآن .

٤ ـ أن يتحمل آه كيو المسئولية اذا وقع شيء منحوس لآماه وو .

٥ ـ أن لا يعود لطلب أجوره أو قميصه .

وطبيعي أن آه كيو وافق على كل شيء ، ولكنه من سوء الحظ لم يكن يملك المال نقدا . ومن حسن الحظ أن الربيع قد حل ، لهذا فمن الممكن أن يعيش دون لحافه المبطن الذي رهنه بألفي درهم ليستجيب للبنود المقررة . وبعد أن ركع مطيعا وظهره عار كان ما يزال يملك بعض النقود غير أنه بدلا من أن يفك رهان قبعته من الرسول صرفها على الخمرة جميعا .

والواقع أن عائلة تشاو لم تشعل البخور ولا القنديلين لأن

هذه يمكن أن تستعمل حين تسجد السيدة لبوذا ، وهكذا وضعت جانبا لتستعمل في هذا الغرض . وجعل معظم القميص قماطا للطفل الذي وضعته السيدة الصغيرة في الشهر الثامن ، بينما صنعت آماه وو البقية البالية نعلين للحذاء .

الفصل الخامس

مشكلة الرزق

بعد أن ركع آه كيو ليستجيب لبنود عائلة تشاو رجع كالعادة الى معبد الآله الحارس . وكانت الشمس قد غربت ، وبدأ يحس بأن هناك شيئا غير مألوف . وأفضى به التفكير الدقيق الى أن يستنتج أن ذلك ربما كان راجعا الى أن ظهره عار . وتذكر أنه ما يزال يمتلك سترة مخططة بالية فلبسها واستلقى ، وحين فتح عينيه ثانية كانت الشمس متلألئة على السور الغربي . وقعد قائلا : « يا للعنة على . . . »

وبعد أن نهض تجول في الشوارع على عادته حتى أخذ يشعر أيضا بأن في الأمر شيئا غير مألوف ، رغم أن ذلك لا يمكن أن يقرن بالمضايقة الجسمانية لظهر عار . والظاهر أن جميع النساء في ويتشوانغ ابتداءً من هذا اليوم اصبحن يخجلن من آه كيو فكن اذا رأينه مقبلا يهرعن لائذات في البيوت . وفي الحق حتى السيدة تسو التي شارفت على الخمسين كانت تتراجع مضطربة مع الأخريات منادية على ابنتها بنت الأحد عشر ربيعا لتدخل

الى البيت . وقد اذهل ذلك آه كيو باعتباره شيئا غريبا جدا . وفكر : « قحاب ! لقد أصبحن فجأة خفرات مثل الاوانس ... »

وبعد عدة أيام قوي احساسه بأن في الأمر شيئا غريبا فأولا رفض صاحب الحانة ان يعطيه شيئا على الحساب ، وثانيا أبدى الرجل العجوز المسؤول عن معبد الآله الحارس بعض الملاحظات العابرة وكأنه يطلب من آه كيو أن يترك المعبد ، وثالثا ، لم يأت أحد لاستئجاره منذ أيام كثيرة – لا يستطيع أن يتذكر عددها بالضبط . وكان في ميسوره أن يتحمل رفض صاحب الحانة اعطاءه الخمر على الحساب ، واذا ألحّ الرجل العجوز على أن يترك المعبد ففي ميسوره أن يتجاهل شكواه ، ولكن حين لا يأتي أحد لاستئجاره فسيظل جائعا ، وتلك في الحقيقة حالة ملعونة حين يبتلي بها .

وعندما أصبح آه كيو لا يتحمل ذلك ذهب الى بيوت مستخدميه القدماء ليتبين حقيقة الأمر – فبيت السيد تشاو وحده لا يجوز أن يتخطاه . غير أنه لقي استقبالا غريبا جدا في تلك البيوت . كان الرجال وحدهم هم الذين يخرجون له فيلوحون بأيديهم مستائين جدا ، ويشيرون له بالانصراف وكأنه شحاذ قائلين :

« ليس هناك شيء . لا شيء على الاطلاق ! انصرف ! »

ووجد آه كيو ذلك امعانا في الغرابة أكثر فأكثر . وفكر : « هؤلاء الناس كانوا في الماضي دائما في حاجة الى مساعدة . فلا يمكن فجأة أن لا يكون عندهم شيء ينبغي أن يعمل . ذلك

يبدو أمرا غريبا . » وبعد أن قام باستقصاء دقيق اكتشف أنهم يدعون « د » الشاب حين تكون عندهم أشغال . و « د » الشاب هذا نحيف فقير مدقع أحط ، في نظر آه كيو ، من وانغ ذي السبال . فمن هو هذا الفتى الحقير حتى يسرق رزقه منه ؟! وهكذا حنق آه كيو هذه المرة أشد مما هو في العادة ، وحين كان يسير في طريقه مغتاظا رفع ذراعه فجأة وغنى : « سأحطمكم بصولجان من حديد . . . » (١)

والتقى بـ « د » الشاب بعد بضعة أيام أمام منزل السيد تسين . وحين يلتقي عدوان تقدح عيونهما نارا . وعندما أقبل آه كيو نحوه وقف « د » الشاب ساكنا .

« جحش بليد ! » هس آه كيو وهو يتنزى غيظا ، وفمه يطفح زبدا .

« أنا حشرة ! . . . هل ينفع ذلك ؟ . . . » سأل « د » الشاب .

ومثل هذا التواضع لا يزيد آه كيو إلا غضبا ، ولكنه لما لم يكن في يده صولجان من حديد فكل ما كان في ميسوره أن يفعله هو أن يمد يداً ليمسك بضفيرة « د » الشاب . وحمى « د » الشاب ضفيرته بيد ، وحاول بالأخرى أن يمسك بضفيرة آه كيو الذي استعمل حينئذ يده الأخرى أيضا ليحمي ضفيرته . وفي الماضي

---

(١) هذا اقتباس من « معركة التنين والنمر » وهي اوبرا شعبية في شاوشينغ وهي تتضمن كيف أن تشاو كوانغ ين أول امبراطور من اسرة سونغ الملكية حارب قائدا آخر .

كان آه كيو لا يعتبر « د » الشاب مستحقا لأن يحمل محمل جد . ولكنه لما كان هو نفسه قد تضور جوعا في المدة الأخيرة ، فقد أصبح نحيفا ضعيفا كخصمه ، لهذا فقد مثلا مشهد عدوين متساوين في القوة . أربعة أيد تمسك برأسين ، وكلا الرجلين قد انحنيا عند الخصر وقد ألقيا ظلا أزرق محدودباً مثل قوس قزح على حائط عائلة تسين الابيض لنصف ساعة من الزمن .

صاح بعض المشاهدين ولعله كان يحاول صلحا : « كفاية ! كفاية ! »

وصاح آخرون : « طيب ! طيب . » ولكن دون أن يعرف أحد أصلحا أرادوا ، أم ثناء ، أم تحريضا لهما على جهود أكثر .

وأعار المحاربان آذانا صماء للجميع . وكان اذا تقدم آه كيو ثلاث خطوات تراجع « د » الشاب ثلاث خطوات كيما يستطيعان الوقوف واذا تقدم « د » الشاب ثلاث خطوات تراجع آه كيو ثلاث خطوات كيما يستطيعان الوقوف مرة أخرى . وبعد زهاء نصف ساعة ـــ وكان في وينشوانغ قليل من الساعات التي تدق ، لهذا فمن الصعب أن نحدد الوقت فقد يكون عشرين دقيقة ـــ ارتفع البخار من رأسيهما وتصبب العرق على خدودهما . وترك آه كيو يديه تسقطان ، وفي اللحظة التالية سقطت يدا « د » الشاب أيضا . وانتصبا في وقت واحد ، وسارا مبتعدين في وقت واحد شاقين طريقيهما بين الجمع .

وقال آه كيو من فوق كتفه دون أن يلتفت : « ستسمع مني ، اللعنة عليك ! . . . »

« اللعنة عليك ! ستسمع مني أيضا . » ردد « د » الشاب من فوق كتفه أيضا .

والظاهر أن هذا النضال الملحمي لم ينته الى نصر ولا الى هزيمة ، ولا يعرف أحد أ أرضى المتفرجين أم لم يرضهم لأن أي واحد منهما لم يفصح عن رأيه . ولكن ! لم يأت أحد من الناس لاستئجار آه كيو أيضا .

وذات يوم دافيء حين بدت النسمة الفواحة كأنها تنشر طعم الصيف ، صار آه كيو يشعر بالبرد شعورا واقعيا ، بيد أنه يستطيع تحمل ذلك — ولكن اعظم همومه هو معدة خالية . وقد اختفى لحافه القطني ، وقبعته الصوفية ، والقميص منذ زمن طويل ، وبعد ذلك باع سترته المبطنة . ولم يبق له غير سرواله ، وهذا بالطبع لا يمكن خلعه . وكانت له سترة مخططة بالية ، ذلك شيء صحيح ، ولكنها كانت لا تساوي أي ثمن بالتأكيد اذا لم يعطها لصنع نعال للحذاء . وكان يأمل منذ زمن بعيد في أن يعثر على مال في الطريق ، ولكنه لم يفلح في ذلك بتاتاً ، وفكر في أن يكتشف مالا فجأة في غرفته المتهدمة ، ففتش بصورة جنونية فيما حوله ، ولكن الغرفة كانت فارغة تماما . . . تماما . وهنا عزم على أن يخرج للبحث وراء قوت .

وحين كان يسير في الطريق « بحثا وراء القوت » رأى الحانة المألوفة ، والخبز المألوف ، ولكنه مربهما دون أن يتوقف ثانية واحدة ، ودون أن يتشهاهما . فهو لا يبحث عنهما ، بالرغم من أن ما يبحث عنه بالضبط لا يعرفه هو نفسه .

وويتشوانغ ليست مكانا كبيرا ، وسرعان ما تركها خلفه . وكان معظم الفضاء خارج القرية يتألف من حقول الرز التي تمتد خضراء امتداد البصر بسيقان الرز الفتي الرقيقة ، منقطة هنا وهناك بأشياء مدورة سوداء متحركة هي الفلاحون الذين يزرعون الحقول . غير أن آه كيو تجاهل مسرات حياة الريف ، ومضى قدما في سبيله ، لأنه يعرف بغريزته أنها بعيدة جدا عن نصيبه من الرزق وجاء في نهاية الأمر الى اسوار دير « تحسين النفس الهادىء » .

وكان الدير أيضا محاطا بحقول الرز ، وكانت اسواره البيضاء تقف واضحة في الخضرة الفتية ، وكانت ثمة داخل السور الطيني الواطىء حديقة خضر . وتردد آه كيو لحظة متلفتا حوله . ولما لم يجد أحدا في مدى بصره ، تسلق السور الواطىء زاحفا ماسكا بنبات اللبلاب . وأخذ السور الطيني يتفتت ، فارتعدت فرائص آه كيو خوفا ، ولكنه استطاع ، على أية حال ، أن يقفز الى الداخل بعد أن أمسك بشجرة توت . وكان في الداخل وفر هائل من الخضر ، ولكن ما من أثر للنبيذ الأصفر أو الخبز المصنوع بالبخار ، أو أي شيء يؤكل . وكان الى جانب السور الغربي دغل بوص فيه كثير من براعم البوص الفتية ولكن من سوء الحظ أنها غير مطبوخة . وهناك أيضا شلجم نمت ثماره منذ زمن ، وخردل يوشك ان يتفتح عن نوار ، وكرنب صغير يبدو ممتلئا جدا .

وأحس آه كيو بتبرم شبيه بتبرم متعلم سقط في الامتحانات ، وكان يسير ببطء نحو باب الحديقة حين انتفض فرحا فقد رأى

أمامه رقعة لفت ! واذ ركع على ركبتيه وبدأ يقتطف ظهر فجأة رأس مدور من وراء الباب ، واختفى في الحال وما ذاك الا رأس الراهبة الصغيرة . ورغم أن آه كيو يضمر أعظم الازدراء لأناس مثل هؤلاء الراهبات الصغيرات ، بيد أن بعض الأمور « ينبغي أن تلقي اهتماما معينا » في بعض الأحيان . وبعجالة اجتث أربع لفتات ، وقطع أوراقها ، وطواها في سترته . ولكن راهبة عجوزا خرجت اذذاك :

« ليحفظك بوذا يا آه كيو . ما الذي حملك على ان تسطو على حديقتنا لتسرق اللفت ! . . . يا للسخافة . أي عمل أثيم تأتي به ! يا للسخافة ، ليحفظنا بوذا ! . . . »

« متى سطوت على حديقتكم ، وسرقت اللفت ؟ » رد آه كيو ونظر اليها وهو يغادر .

قالت الراهبة العجوز وهي تشير الى طيات سترته : «والآن! ... أ لم تسرق ؟ »

« هل هذه لكم ؟ هل في وسعك ان تجعليها تجيب عليك . . . أنت . . . »

وقبل أن يتم جملته ولى الأدبار بأسرع ما يستطيع يتبعه كلب أسود شديد سمين . وقد كان هذا الكلب في الأصل عند الباب الأمامي ، فكيف وصل الى الحديقة الخلفية . يا للغرابة ! وطارده الكلب نابحا ، وكاد يعض ساق آه كيو حين سقطت من سترته ثمرة لفت جاءت في حينها تماما ، وأصابت الكلب دهشة ، وتوقف ثانية صعد آه كيو خلالها شجرة التوت ،

وتسلق السور الطيني ، وسقط اللفت وكل شيء خارج الدير ، وترك الكلب الأسود ينبح الى جانب شجرة التوت ، والراهبة العجوز تقرأ صلواتها .

وخاف آه كيو أن تدع الراهبة العجوز الكلب الأسود يخرج ثانية ، فجمع لفته ، وهرول ملتقطاً بعض الاحجار الصغيرة وهو في طريقه . غير أن الكلب الأسود لم يظهر ثانية ، فرمى الاحجار ، وسار وهو يأكل مفكرا في نفسه : « لا شيء لي هنا ، فالأفضل أن أذهب الى المدينة . . . »

وحين انتهى من ثمرة اللفت الثالثة كان قد وطد عزمه على الذهاب الى المدينة .

الفصل السادس

من الانتعاش الى التدهور

لم تر ويتشوانغ آه كيو مرة أخرى الا بعد مهرجان القمر في تلك السنة . وقد دهش كل الناس اذ سمعوا برجوعه وجعلهم ذلك يفكرون ، ويتعجبون أين كان طوال هذا الوقت . وقد كان في المرات السابقات حين يذهب الى المدينة غالبا ما يخبر الناس مقدما ، وهو مسرور ، ولكن أحدا من الناس لم يفطن الى ذهابه هذه المرة لأنه لم يخبر أحدا بذلك . ولعله أخبر الرجل العجوز المسؤول عن معبد الإله الحارس . ولكن ! حسب العادة الجارية في ويتشوانغ لا يعتبر الذهاب الى المدينة مهماً الا اذا كان الذاهب

هو السيد تشاو ، أو السيد تسين ، أو مرشح المحافظة الناجح . وحتى ذهاب مقلد الشيطان الأجنبي الى المدينة لا يتحدث الناس عنه ، فكيف بذهاب آه كيو ! وهذا يشرح السبب في أن الرجل العجوز لم يذع الخبر ، فكانت النتيجة أن ظل القرويون لا يعرفون أي شيء عن هذا الخبر .

ولكن عودة آه كيو هذه المرة تختلف كثيرا عما قبل ، فالصورة التي ظهر بها وحدها كافية لأن تثير الاستغراب ، فهو حين بدا أمام باب الحانة وعيناه مثقلتان بالنعاس مشى الى المنصة ، وأخرج من حزامه حفنة من الدراهم الفضية والنحاسية وألقاها على المنصة . وقال : « نقدا ! هات الخمرة . » وكان يرتدي سترة مخططة جديدة ، ولما كانت محفظة نقوده ثقيلة متدلية من وسطه فقد جعلت حزامه يتهدل بتقوس شديد . وكان من عادة أهل ويتشوانغ حين يبدو لهم من رجل شيء غير اعتيادي يعاملونه بطريقة أقرب الى الاحترام منها الى الغطرسة ، والآن ، رغم أنهم يعرفون جيدا بأن هذا هو آه كيو فإنه يختلف عن آه كيو ذي المعطف المهلهل . ويقول القدامى : « العالم الذي يغيب ثلاثة أيام يجب أن ينظر اليه بعيون جديدة . » وهكذا أبدى الخادم وصاحب الحانة ، والحاضرون والمارون نوعا من الريبة ممزوجا بالاحترام . وبدأ صاحب الحانة يهز رأسه ، ثم قال :

« مرحبا يا آه كيو . ها قد عدت ! »

« نعم ، عدت . »

« لقد جمعت مالا . . . و. . . أين . . . ؟ »

« ذهبت الى المدينة . »

وفي اليوم التالي انتشر هذا النبأ في ويتشوانغ كلها . ولما كان الجميع يريدون سماع قصة نجاح آه كيو صاحب النقود الكثيرة ، والسترة المخططة الجديدة وكان القرويون في الحانة ، ومشرب الشاي وتحت طنف المعبد يتسقطون الأخبار . وكانت النتيجة أن أخذوا يعاملون آه كيو باحترام جديد .

لقد كان آه كيو — حسب أقواله — خادما في بيت مرشح جديد للمقاطعة . وكل من سمع هذا الجزء من القصة امتلأ رعبا . كان هذا المرشح الناجح للمقاطعة يسمى « باي » ، ولكنه ، لما كان المرشح الوحيد للمقاطعة في المدينة كلها فلم تكن من حاجة الى استعمال لقبه ، فحينما يتكلم أحد عن مرشح المقاطعة الناجح فالمقصود هو . ولم يكن هذا في ويتشوانغ وحدها بل في كل نقطة من دائرة قطرها ثلاثون ميلا ، وكأن كل امرئ يتصور أن اسمه السيد المرشح الناجح للمقاطعة . وطبيعي أن العمل في بيت رجل كهذا يستوجب الاحترام . ولكن آه كيو — حسب أقواله — لم يكن راغبا في أن يمضي في عمله هناك ، لأن هذا المرشح الناجح فيه كثير من « بيضة السلحفاة » . وهذا الجزء من القصة جعل كل من سمعه يتنهد ، ولكن تنهد فرح ، لأن ذلك يظهر أن آه كيو لم يكن في الواقع لائقا بالعمل في بيت رجل كهذا ، ومع ذلك فعدم العمل شيء مؤسف .

وكان السبب في عودة آه كيو — حسب أقواله — يعود كذلك

الى أنه لم يكن راضيا عن أهل المدينة ، لأنهم يسمون المسطبة الطويلة مسطبة مستطيلة ، ويستعملون قطع البصل مع السمك المقلي ، ولأن النساء – وهذا عيب اكتشفه حديثا – لا يتمايلن بشكل مقبول حين يمشين ومع ذلك فإن للمدينة مسائلها اللطيفة أيضا . فمثلا ان الناس في ويتشوانغ يلعبون جميعا لعبة قطع البوص الاثنتين والثلاثين ، ومقلد الشيطان الاجنبي وحده يستطيع أن يلعب لعبة « الماهجونغ » بينما كل الناس في المدينة حتى أولاد الشارع بارعون في لعبة « الماهجونغ » . وما عليك الا أن تسلم مقلد الشيطان الاجنبي بأيدي أولئك المحتالين الصغار فيصبح مثل « شيطان صغير أمام ملك الجحيم . » وهذا الجزء من القصة جعل كل من سمعه يحمر حياء .

سأل آه كيو : « هل رأيتم إعداما . . آه ، ذلك منظر بديع . . . حين يعدمون الثوريين . . . آه . . . ذلك منظر بديع ، منظر بديع . . . » وحين كان يهز رأسه يتطاير بصاقه على وجه تشاو سو تشن الذي كان يقابله مباشرة . وهذا الجزء من القصة جعل كل من سمعه يرتجف . ثم نظر فيما حوله ورفع يده اليمنى فجأة ، وألقاها على عنق وانغ ذي السبال الذي كان يصغي ذاهلا ، ورأسه ممتد الى أمام .

« اقتل ! » صاح آه كيو .

وانتفض وانغ ذو السبال ، وسحب رأسه بسرعة البرق ، أو الشرارة المنطلقة من حجر صوان ، بينما ارتجف الحاضرون في خوف ولذة . وبعد ذلك ظل وانغ ذي السبال يهيم مشدوه الفكر

اياما لا يجرؤ على الدنو من آه كيو . وكذلك كان شأن الآخرين .

ورغم أن ليس في وسعنا القول بأن منزلة آه كيو في عيون أهالي ويتشوانغ في ذلك الوقت أرفع من منزلة السيد تشاو ففي وسعنا على الأقل أن نجزم دون خطر الوقوع في خطأ أنها كانت تدانيها تقريبا .

ولم يمض زمن طويل حتى ذاعت شهرة آه كيو في أجنحة النساء في ويتشوانغ أيضا . ورغم أن عائلة تسين وعائلة تشاو هما العائلتان الوجيهتان في ويتشوانغ من ذوات الفخفخة ، وأن تسعة أعشار البقية الباقية فقراء فما زالت أجنحة النساء هي أجنحة النساء ، وان ذيوع شهرة آه كيو هو شيء من المعجزات . وحين كانت النساء يجتمعن كانت إحداهن تقول للأخرى : « إشترت السيدة تسو ثوبا حريريا أزرق من آه كيو . ورغم أنه قديم ، فإنه لم يكلف غير تسعين فلسا . وان أم تشاو باي ين (وهذه يجب أن يدقق لأن بعضهم قال انها أم تشاو سو تشن) إشترت بدلة طفل من الخام القرمزي الاجنبي تكاد تكون جديدة ولم تصرف غير ثلاث مئة درهم بخصم ثمانية بالمئة . »

وهنا أصبحت النساء اللواتي ليس لهن ثوب حريري ، واللواتي يحتجن الى خام أجنبي أشد تلهفا لرؤية آه كيو ليشترين منه . ولم يعدن يتجنبنه أبدا ، بل كن في بعض الاحيان يتبعنه حين يمر بهن ، وينادينه ليقف .

وكن يسألن : « آه كيو ! هل بقيت عندك ثياب حريرية أخرى ؟ لا ؟ ونحن نريد خاما أجنبيا أيضا . هل عندك شيء

منه ؟ »

وانتشرت هذه الأنباء فيما بعد من البيوت الفقيرة الى البيوت الغنية . لأن السيدة تسو كانت فرحة جدا بثوبها الحريري فأخذته الى السيدة تشاو لتثير في نفسها الاعجاب به ، وأخبرت السيدة تشاو السيد تشاو مطرية اياه اطراء جميلا .

وناقش السيد تشاو الأمر في ذلك المساء عند العشاء مع ابنه المرشح الناجح للمحافظة ، مرتئيا بأن ثمة شيئاً غريبا في آه كيو لا محالة ، وعليهم أن يكونوا أكثر عناية بأبوابهم ونوافذهم. رغم أنهما لم يعرفا أ بقيت عند آه كيو أشياء أم لا ظنا أنه ما زال يملك أشياء طيبة . وصادف أن كانت السيدة تشاو بحاجة الى رداء من فرو رخيص جيد . ولذلك تقرر بعد اجتماع عائلي أن يطلب الى السيدة تسو أن تحضر لهم آه كيو في الحال ، ومن أجل هذا حصل استثناء ثالث على القاعدة ، فقد اعطي اذن خاص بأن يوقد مصباح في ذلك المساء .

واحترقت كمية كبيرة من الزيت ، وما من أثر لآه كيـو . وكانت عائلة تشاو كلها تتثاءب في نفاد صبر ، بعضها قد استهجن أساليب آه كيو ، وبعضها الآخر أنحى باللائمة على السيدة تسو في غضب لأنها لم تجد أكثر في البحث عنه . وكانت السيدة تشاو تخشى أن لا يجرؤ آه كيو على المجيء بسبب البنود المتفق عليها في ذلك الربيع ، غير أن السيد تشـاو لم يظن ذلك شيئا يقلق اذ قال : « في هذه المرة أنا أرسلت في طلبه . » وبالتأكيد برهن السيد تشاو على أنه رجل نافذ البصيرة ،

لأن آه كيو قد وصل مع السيدة تسو في آخر الأمر .

قالت السيدة تسو لاهثة وهي تدخل : « ظل يقول لم يبق لديه شيء . حين اخبرته بأن يأتي ، ويقول لكم ذلك بنفسه ظل يتكلم . . . اخبرته . . . »

« سيدي ! » قال آه كيو محاولا أن يبتسم ، وتوقف تحت طنف البيت .

وأقبل السيد تشاو نحوه يتفحصه بعناية وقال : « أسمع بأنك قد اصبت غنى يا آه كيو . حسنا جدا . . . يقولون إن لديك أشياء قديمة . . . اجلبها كلها لنا لنلقي عليها نظرة . . . ذلك لأنني بالمصادفة أحتاج . . . »

« قلت للسيدة تسو — لم يبق شيء . »

ولم يستطع السيد تشاو أن يكتم خيبته فقال : « لم يبق شيء ؟ كيف يمكن أن تنفد بهذه السرعة ؟ »

« انها تعود الى صديق ، وهي ليست كثيرة منذ البداية واشترى الناس بعض . . . »

« لا بد من أن شيئا قد بقي . »

« لم يبق الآن غير ستار باب . »

قالت السيدة تشاو مسرعة : «اجلب ستار الباب لنا لنراه . »

وقال السيد تشاو دون حماس كثير : « حسنا لا بأس في أن تجلبه في الغد . وحين يكون لديك شيء في المستقبل يا آه كيو فاجلبه هنا أولا . »

« نحن بالتأكيد لا ندفع أقل من الآخرين . » قال هذا

المرشح الناجح للمحافظة . وألقت زوجته نظرة سريعة على آه كيو لتتبين أثر ذلك .

وقالت السيدة تشاو : « أنا بحاجة الى رداء من الفراء . »

ورغم أن آه كيو قد وافق على ذلك ، فقد خرج يمشي بتوان وفتور حتى لم يعرفوا أ هو قد اهتم بتعليماتهم أم لا . وقد احزن ذلك السيد تشاو كثيراً ، وأغاظه وأقلقه حتى كفّ عن التثاؤب وكان المرشح الناجح للمحافظة كذلك بعيدا عن الرضى بموقف آه كيو وقال : « ينبغي ان يحترس الناس من 'بيضة سلحفاة' كهذا . لعل من الافضل ان نوعز لرسول الحاكم بأن لا يسمح له بالعيش في ويتشوانغ . »

غير ان السيد تشاو لم يوافق قائلا : « قد تكون في نفسه موجدة علينا ، ولعل القضية في أمر كهذا هي قضية أن النسر لا يسلب عشه الخاص . » ولا حاجة لأن تقلق قريته ، بل ان تشدد الحراسة في الليل قليلا . وقد تأثر المرشح الناجح كثيرا بهذا الأمر الابوي ، وسحب كلامه في الحال بشأن ابعاد آه كيو محذرا السيدة تسو من ان تكرر ما قاله مهما يكن .

ومع ذلك فإن السيدة تسو حين أخذت ثوبها الأزرق ليصبغ باللون الاسود في اليوم التالي كررت هذه التلميحات عن آه كيو رغم أنها في واقع الأمر لم تذكر ما قاله المرشح الناجح عن طرد آه كيو . ولكن ! بالرغم من هذا تضرر آه كيو أبلغ الضرر من ذلك . فأولا ظهر رسول الحاكم على بابه ، وأخذ ستار الباب . ومع أن آه كيو قد اعترض على ذلك بأن السيدة تشاو تريد ان

تراه ، فلم يعده الرسول اليه ، بل حتى انه طالب برشوة شهرية ليكتم السر . وثانيا ان احترام الناس له قد تغير فجأة ، ورغم انهم ما زالوا لا يجرؤون عليه فقد تحاشوه قدر الامكان . ومع أن ذلك يختلف عن خوفهم السابق من كلمته : « اقتل ! » فإنه يشبه تمام الشبه موقف القدماء من الارواح : الابتعاد بمسافة محترمة .

غير ان هناك بعض المتبطلين الذين أرادوا النفاذ الى أعماق الموضوع ذهبوا لاستجواب آه كيو بعناية . ولم يحاول آه كيو ان يخفي شيئا فقص عليهم تجاربه فخورا . وعرفوا أنه كان لصا صغيراً ليس غير ، فهو لم يكن قادرا على تسلق الجدران ، ولا قادرا على التسلل من خلال الفتحات ، بل كان يقف ببساطة خارج الفتحة ، ويتسلم الأشياء المسروقة من رئيسه .

وذات ليلة تسلم حزمة ، وذهب رئيسه ثانية ، وهناك سمع جلبة شديدة في الداخل فولى الادبار بأسرع ما يستطيع . وفر من المدينة في نفس الليلة وعاد الى ويتشوانغ ، ولم يجرؤ بعد ذلك على العودة الى ذلك العمل . وقد كانت القصة ، على أية حال ، أكثر ضررا على آه كيو ذلك لأن القرويين كانوا يبتعدون عنه مسافة محترمة لأنهم لم يريدوا أن يتعرضوا لبغضائه ، فمن كان في وسعه ان يخمن أنه ليس الا لصا لا يجرؤ على السرقة ثانية ؟ اما الآن فقد عرفوا بأنه اوطأ من أن يثير خوفا .

الثورة

في اليوم الرابع عشر من الشهر التاسع من العام الثالث من حكم الامبراطور شوان تونغ (١) اليوم الذي باع فيه محفظته الى تشاو باي ين بعد الضربة الرابعة في منتصف الليل جاء الى مرسى عائلة تشاو قارب كبير ذو سقيفة كبيرة سوداء . وقد سار هذا القارب في جنح الظلام بينما كان القرويون نياما ، فلم يعرفوا شيئا عنه ، ولكنه غادر حوالي الفجر حين رآه عدد كبير من الناس . وقد كشف التحقيق أن هذا القارب عائد في الواقع الى المرشح الناجح في المقاطعة !

وقد أثار هذا القارب قلقا شديدا في ويتشوانغ وقبل أن ينتصف النهار كانت قلوب جميع القرويين تدق بشدة . ولزمت عائلة تشاو الصمت المطبق عن مهمة القارب . ولكن حسب القيل والقال في مشرب الشاي والحانة أن الثوريين موشكون على أن يدخلوا المدينة ، وان المرشح الناجح للمقاطعة فر الى الريف ليجد ملجأ فيه . والسيدة تسو وحدها تظن خلاف هذا الرأي قائلة ان المرشح الناجح للمقاطعة لم يرد غير ايداع بعض الصناديق من الصفيح في ويتشوانغ ، غير ان السيد تشاو اعادها . والواقع أن المرشح الناجح للمقاطعة ، والمرشح الناجح للمحافظة من

---

(١) اليوم الذي حررت فيه شاو شينغ في ثورة ١٩١١ .

عائلة تشاو ليسا على علاقة طيبة . لهذا فمما لا يتقبله المنطق كثيرا توقع تصافيهما عند وقوع البلوى . وفضلا عن ذلك فالأجدر بالسيدة تسو أن تعرف ذلك ما دامت جارة لعائلة تشاو ، ولها فكرة طيبة عما جرى .

ثم سرت شائعة فحواها ان العالم نفسه لم يصل بعد ولكنه بعث برسالة طويلة يتتبع فيها صلة قرابة بعيدة بعائلة تشاو ، وقد قرر السيد تشاو بعد امعان التفكير ان ايداع الصناديق ، قبل كل شيء ، لا يمكن ان يسبب له أذى ، فهي الآن مرصوفة تحت سرير زوجته . اما عن الثوريين فقد قال بعض الناس انهم دخلوا المدينة تلك الليلة في خوذ بيض ، وعدد بيض — وهي ثياب الحداد على الامبراطور تسونغ تشنغ (١) .

وقد سمع آه كيو بالثوريين منذ زمن طويل وفي هذه السنة رأى الثوريين بأم عينيه تقطع رؤوسهم . ولكنه ما دام قد بدا له أن الثوريين عصاة وأن العصيان يجعل الامور عسيرة عليه فقد كان ينفر منهم دائما ويبتعد عنهم . فمن كان يظن أنهم يستطيعون أن يخيفوا مرشحا ناجحاً للمقاطعة معروفا بدائرة قطرها ثلاثون ميلا ؟ وبالنتيجة لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور ببعض « الاندهاش » . ان فزع القرويين كلهم لم يزده الا انشراحا .

وفكر آه كيو : « ان الثورة ليست شيئا سيئا . القضاء عليهم جميعا . . . اللعنة عليهم ! . . . أحب أن أنضم الى الثوريين بنفسي . »

---

(١) تسونغ تشنغ آخر أباطرة أسرة مينغ الملكية حكم من عام ١٦٢٨ الى ١٦٤٤ . وقد شنق نفسه قبل أن يدخل المانشويون الى بكين .

وقد كان آه كيو في ضنك من العيش في المدة الأخيرة فكان ، على الأرجح متذمرا قليلا ، أضف الى ذلك أنه قد احتسى قدحين من النبيذ على معدة خالية . وبالنتيجة سكر بأسرع من ذي قبل ، وحين كان يسير مفكرا في نفسه شعر ثانية كأنه يسير في الهواء . وفجأة ، وبطريقة غريبة ، أحس كأن الثوريين هم نفسه ، وان أهالي ويتشوانغ أسرى له . ولما لم يستطع آن يداري فرحه بنفسه صاح بصوت عال :

« العصيان ! العصيان ! »

ونظر القرويون كلهم اليه برعب . ولم يرآه كيو مثل تلك النظرات التي تثير الاشفاق ، ورآها منعشة مثل شرب ماء مثلج في منتصف الصيف . فمشى سعيدا أكثر صائحا :

« أجل ! . . . سآخذ ما أريد ! سأحب من أشاء .

« ترا لا . . ترا لا !

« أسفاه على قتلي أخي تشنغ خطأ .

« بحسامي وأنا سكران

« واأسفاه على قتلي . . . ياه ، ياه ، ياه !

« ترالا ، ترالا ، توم تي توم توم ،

« سأطعنك بصولجان من حديد . »

وكان السيد تشاو وابنه واقفين على باب منزلهما ، ومعهما قريبان وهم يتناقشون في الثورة . غير أن آه كيو لم يرهم ، ومر يغني ، ورأسه ملقى الى الخلف « ترالا لا ، توم تي توم ! »

فصاح السيد تشاو في خوف وصوت خفيض :

« يا كيو العزيز ! »

« ترالا ! » ترنم آه كيو وهو غير قادر على أن يتصور أن إسمه يمكن أن يقرن بكلمة « العزيز » فلا بد من أنه أخطأ السمع والأمر غير متعلق به مطلقا فمضى يترنم : « ترالا لا توم تي توم ! »

« يا كيو العزيز ! »

« واأسفاه على قتلي . . . »

« آه كيو ! » ناداه المرشح الناجح باسمه مضطرا .

وهنا توقف آه كيو وسأل وهو يلوي رأسه الى جانب : « كيف ؟ »

« كيو العزيز . . . الآن . » كان السيد تشاو متدلها بهذه الكلمات : « هل اصبحت غنيا الآن ؟ »

« غنيا ، بالطبع نلت ما أريد . »

قال تشاو باي ين مرتعبا وكأنه أدرك موقف الثوريين : « آه كيو ، أيها الشيخ .ان أصدقاءك الفقراء من أمثالنا لا يهمهم . . . »

« أصدقاء فقراء ؟ بالتأكيد أنكم أغنى مني ! » قال آه كيو ومضى في حال سبيله .

ووقفوا هناك في جزع لا يتكلمون ، ثم عاد السيد تشاو وابنه الى البيت ، وفي ذلك المساء تناقشوا في القضية حتى جاء وقت ايقاد المصابيح . وحين عاد تشاو باي ين الى البيت أخذ المحفظة من خصره وناولها الى زوجته لتخفيها في قعر الصندوق .

وبدا آه كيو حينا من الزمن كأنه يسير في الهواء ، ولكنه حين وصل الى معبد الإآله الحارس عاد اليه صحوه . وفي ذلك المساء كان الرجل العجوز المسؤول عن المعبد ودودا معه على نحو استثنائي ، وقدم له شايا . ثم طلب منه آه كيو قطعتين من الكعك البسيط ، وبعد أن أكلهما طلب شمعة ذات أربعة اونسات قد استعملت ، وشمعدانا . وأشعل الشمعة ، واستلقى وحده في غرفته الصغيرة ، وشعر بانتعاش وسعادة يعزان عن الوصف بينما كان ضوء الشمعة يتوثب ويخفق مثل ضوء مصباح الاحتفال بدا خياله يحلق هو الآخر .

« ثورة ؟ سيكون ذلك طريفا . . سيأتي فريق من الثوريين ، كلهم يلبسون الخوذ البيضاء ، والعدد البيضاء ويمتشقون السيوف ، والصولجانات الحديدية ، والقنابل ، والبنادق الأجنبية ، والسكاكين ذات الحدين والرؤوس الحادة ، والمزارق ذات الخطافات ، وسيأتون الى معبد الإآله الحارس ، وينادون : ”آه كيو ! تعال معنا“ ! ، واذذاك أذهب معهم . . .

« ثم يصبح جميع هؤلاء القرويين في مأزق مضحك ، اذ سيركعون على ركبهم ويتوسلون : ” آه كيو ! ابق على حياتنا .“ ولكن من يعير لهم اذنا صاغية ! واول من سيموت هو « د » الشاب والسيد تشاو ، ثم مرشح المحافظ الناجح ، ومقلد الشيطان الأجنبي . . . ولكن لعلي أبقي على حياة بعضهم . ولقد حفظت مرة حياة وانغ ذي السبال . ولكني الآن لا أريده أيضا . . .

« أشياء . . . سأذهب قدما ، وأفتح الخزائن : سبائك

فضية ، نقود اجنبية ، سترات خام اجنبي . . . في الاول سأنقل سرير « نينغ بو » زوجة مرشح المحافظة الناجح الى المعبد ، وانقل كذلك مناضد عائلة تسين وكراسيها — وسأستعمل فحسب مناضد عائلة تشاو وكراسيها — وانني لن أرفع أصبعا ، بل أصدر أوامري الى « د » الشاب بأن ينقل الأشياء لي ، وان يكون رقيقا معها ، وان لم يوافق أصفعه على وجهه . . .

« وأخت تشاو سو تشن الصغرى قبيحة جدا . وفي مدى سنوات قلائل قد تستحق ابنة السيدة تسو التفكير . وزوجة مقلد الشيطان الأجنبي تحب أن تنام مع رجل بلا ضفيرة ، هاه ! لا يمكن ان تكون امرأة صالحة ! وعلى جفني زوجة مرشح المحافظة الناجح ندوب . . . وأنا لم أرآماه وو منذ زمن طويل ، ولا أعرف أين هي — ما أشد أسفي على أن قدميها كبيرتان جدا . »

وقبل أن ينتهي آه كيو الى نتيجة مرضية كان ثمة شخير . واحترقت الشمعة ذات الاونسات الاربعة نصف عقدة فحسب وأضاء ضوؤها الخافق فمه المفتوح .

« هوه ، هوه ! » صاح آه كيو فجأة رافعا رأسه ناظرا حوله بوحشية . بيد أنه حين رأى الشمعة ذات الاونسات الاربعة استلقى ثانية ، وغفا ثانية .

واستيقظ في الصباح التالي في وقت متأخر جدا ، وحين خرج الى الشارع كان كل شيء كما هو في العادة . وكان ما يزال جائعا ، ولكنه بدا كأنه لم يهتد الى شيء رغم أنه فكر كثيرا . ثم طرأت على ذهنه فكرة فجأة ، وتهادى في مشيه حتى وصل

دير « تحسين النفس الهادىء » اما عن قصد ، أو عن طريق المصادفة .

وكان الدير هادئا كما كان في الربيع الماضي ، بجدرانه البيضاء ، وبابه الاسود اللامع ، وبعد أن فكر لحظة طرق الباب ، وهناك طفق كلب ينبح من الداخل . فأسرع في التقاط عدة قطع من طابوقة مكسورة ، ثم مضى وطرق الباب ثانية طرقا أشد ، وظل يطرق حتى ظهرت بقع صغيرة على الباب وفي النهاية سمع انسانا يقبل ، ويفتح الباب .

وأسرع آه كيو في تهيئة حجاراته ، ووقف وساقاه منفرجتان مستعدا للعراك مع الكلب الاسود . غير ان باب الدير لم تفتح الا قليلا ، ولم يندفع منها كلب أسود . وحين نظر في الداخل لم يستطع أن يرى غير الراهبة العجوز .

وسألته وهي تنتفض : « لم عدت الى هنا ثانية ؟ »

قال آه كيو بغموض : « هناك ثورة . . . هل تعرفين ؟ »

« ثورة ، ثورة . . . كانت هناك واحدة . » قالت الراهبة العجوز وعيناها محمرتان من البكاء : « ماذا تحسب أننا سنحصل من ثوراتك كلها ؟ »

سأل آه كيو في استغراب : « ماذا ؟ »

« هل عرفت ؟ ! كان الثوريون هنا ! »

« من ؟ » سأل آه كيو باستغراب أشد .

« مرشح المحافظة الناجح ، ومقلد الشيطان الأجنبي . »

وكانت هذه مفاجأة تامة لآه كيو ، فما كان منه الا أن

صعق . وحين رأت الراهبة العجوز أنه قد فقد ما كان يضمر من عدوان أغلقت الباب بسرعة ، ودفع آه كيو الباب فلم يستطع لها حراكا ، وحين طرق الباب ثانية ، لم يتلق ردا .

لقد حدث في ذلك الصباح أن حصل مرشح المحافظة الناجح من عائلة تشاو على الأنباء بسرعة وما ان سمع بأن الثوريين قد دخلوا البلدة في تلك الليلة حتى طوى ضفيرته على رأسه في الحال ، وذهب أولا ليزور مقلد الشيطان الأجنبي من عائلة تسين الذي لم يكن على علاقة طيبة به قط . فهذا وقت يعمل فيه الجميع للاصلاح . وتحدثا حديثا مسرا ، واصبحا في الحال رفيقين واتفقا على كل شيء ، وقطعا عهدا على نفسيهما بأن يصبحا ثوريين .

وبعد أن أمعنا في التفكير بعض الوقت تذكر أن في دير « تحسين النفس الهادىء » لوحة امبراطورية كتب عليها « عاش الامبراطور » وينبغي التخلص منها في الحال . وهكذا اسرعا في الذهاب الى الدير ليقوما بأعمالهما الثورية . ولما اوقفتهما الراهبة العجوز ، وتكلمت قليلا اعتبراها من حكومة المانشو وضرباها على رأسها عدة مرات بالعصا وبأجماع أكفهما . وتمالكت الراهبة العجوز على نفسها بعد ذهابهما ، وأجرت فحصا ، فوجدت أن اللوحة الامبراطورية كانت مهشمة قطعا قطعا متناثرة على الأرض . غير أن مبخرة « شوان ته » (١) الثمينة الموضوعة امام هيكل

---

(١) مباخر برنزية رفيعة الزخرفة صنعت في عهد شوان ته (١٤٢٦ – ١٤٣٥) من أسرة مينغ الملكية .

« كوان ين » آلهة الرحمة قد اختفت .

ولم يعلم آه كيو بذلك الا مؤخرا . وتأسف كثيرا لأنه كان نائما في ذلك الصباح واستاء من أنهما لم يأتيا ليدعواه . غير أنه قال لنفسه حينذاك : « لعلهما ما زالا لا يعرفان أنني انضممت الى الثوريين . »

الفصل الثامن

محجوز عن الثورة

أصبح أهالي ويتشوانغ أكثر اطمئنانا يوما بعد يوم . لقد عرفوا من الأنباء التي حصلوا عليها أن مجيء الثوريين لم يغير من الأمر شيئا رغم دخولهم المدينة . فإن الحاكم مازال أعلى موظف ، ولم يتغير الا لقبه ، ونال مرشح المقاطعة الناجح أحد المناصب الرسمية — وأهالي ويتشوانغ لا يستطيعون أن يتذكروا تلك الأسماء بوضوح — منصبا من المناصب الرسمية ، وظل رئيس العسكر نفس الضابط . والمصدر الوحيد للازعاج هو أن بعض الثوريين السيئين المقلقين للراحة أخذوا يقصون ضفائر الناس في اليوم التالي لوصولهم . ويقال ان الملاح « ذا الأرطال السبعة » من أهل القرية المجاورة قد وقع في قبضتهم ، ولم يعد منظره وجيها . ومع ذلك فان خطر ذلك ليس كبيرا لأن أهالي ويتشوانغ لا ينزلون الى المدينة الا نادرا منذ البداية ، والذين فكروا في رحلة الى المدينة غيروا خططهم في الحال لكي يتفادوا هذا الخطر .

وقد فكر آه كيو في الذهاب الى المدينة ليتفقد أصدقاءه ، غير أنه أقلع عن هذه الفكرة باستسلام عندما سمع بهذه الأنباء .

ومع ذلك فمن الخطأ أن تقول ان أي اصلاحات لم تجر في ويتشوانغ . فخلال الأيام القليلة التالية زاد بالتدريج عدد الذين طووا ضفائرهم على رؤوسهم ، وكان مرشح المحافظة الناجح ــ كما قيل آنفا ــ أول من فعل ذلك بالطبع ، ثم تبعه تشاو سو تشن ، وتشاو باي ين ، وبعدهم آه كيو ولو كان الفصل صيفا لما اعتبر غريبا أن يطوي كل الناس ضفائرهم على رؤوسهم ، بعد أن يعقصوها ولكن الفصل كان في أواخر الخريف ولهذا يمكن أن تعتبر مراعاة عادة الصيف في الخريف من جانب هؤلاء الذين طووا ضفائرهم قرارا بطوليا لا أقل وهو بالقياس لأهل ويتشوانغ لا يمكن ان يقال ان ليس له علاقة بالاصلاحات .

وحين يقترب تشاو سو تشن ومؤخر عنقه عار يقول الذين يرونه : « آه ! لقد أقبل ثوري ! »

وحين سمع آه كيو بذلك تأثر تأثرا عظيما . فرغم أنه قد سمع منذ زمن طويل كيف طوى مرشح المحافظة الناجح ضفيرته على رأسه الا أنه لم يحدث أن فعل ذلك مرة . والآن فقط حين رأى تشاو سو تشن يحذو حذوه طرأ في فكره أن يفعل الشيء نفسه ، وعزم على أن يقلدهما . واستخدم عود أكل من البوص ليلوي ضفيرته على رأسه ، وبعد أن تردد قليلا استجمع شجاعته أخيرا وخرج .

ومشى في الشارع ، ونظر الناس اليه . ولكن أي واحد

منهم لم يقل شيئا . واغتم في بادىء الأمر ، ثم أضحى برما جدا . وكان في المدة الأخيرة يحتدم غيظه بسهولة . وفي واقع الأمر لم تكن حياته أصعب من حياته قبل الثورة ، وكان الناس يعاملونه بأدب ولم تعد المخازن تطالب بالدفع نقدا . ومع ذلك فما زال يحس بعدم الرضى . وظن ان أي ثورة حين تقع يجب أن تشمل أشياء أكثر من هذه . ثم انه رأى «د» الشاب ، فزاد المنظر من غليان غضبه .

كان «د» الشاب طاويا ضفيرته على رأسه ايضا والأكثر من ذلك أنه استعمل في ذلك عود أكل من البوص ايضا . ولم يتصور آه كيو قط أن الشجاعة ستؤاتي «د» الشاب ليفعل ذلك . وهو بالتأكيد لا يستطيع أن يطيق شيئا كهذا . ومن هو «د» الشاب على أية حال ؟ وكان الشيطان يوسوس له بين حين وآخر ليقبض عليه ، ويكسر عود الأكل وينزل ضفيرته ، ويصفعه على وجهه مرات ، ويعاقبه على نسيانه لموضعه ، وتظاهره بأنه أصبح ثوريا . ولكنه في النهاية تركه يذهب وشأنه ملقيا عليه نظرة غضب ، وباصقا ، صائحا : « باه ! »

وفي تلك الأيام الاخيرة كان مقلد الشيطان الاجنبي الشخص الوحيد الذي ينزل الى المدينة . وفكر مرشح المحافظة الناجح بأن يتخذ الصناديق المودعة ذريعة لزيارة مرشح المقاطعة الناجح ، ولكن تصور خطر قص ضفيرته حمله على ارجاء زيارته . وكتب رسالة رسمية للغاية وطلب الى مقلد الشيطان الأجنبي أن يحملها الى المدينة ، كما طلب من هذا أيضا أن يقدمه الى حزب

الحرية ، وحين عاد مقلد الشيطان الأجنبي طلب من مرشح المحافظة الناجح أربعة دنانير ، وبعد ذلك وضع مرشح المحافظة الناجح خوخة فضية عل صدره . وارتعب أهالي ويتشوانغ ، وقالوا هذه شارة حزب « زيت الفواكه » (١) وهي مساوية لمرتبة « هان لين » (٢) . وبالنتيجة علا مقام السيد تشاو فجأة أكثر في الواقع مما علا عندما اجتاز ابنه الامتحان الرسمي أولا . وبالنتيجة طفق يزدري كل الناس وحين رأى آه كيو نزع الى تجاهله قليلا .

كان آه كيو متذمرا كل التذمر لتجاهل الناس له دائما ، غير أنه ما ان سمع بتلك الشارة الفضية حتى أدرك في الحال السبب في اهمال الناس له . من الجلي الواضح أن الانحياز ليس كافيا لجعل الانسان ثوريا ، ولا كافيا ان يطوي الانسان ضفيرته فوق رأسه ، والشيء الأهم أن يتصل بالحزب الثوري . وكان في حياته كلها لا يعرف الا ثوريين ، أحدهما قد فقد رأسه في المدينة ، فلم يبق الا مقلد الشيطان الاجنبي . واذا لم يذهب في الحال ، ويناقش الأمور مع مقلد الشيطان الأجنبي فلا يبقى أمامه أي طريق مفتوح .

وصادف ان كان باب منزل تسين مفتوحا ، فانسل آه كيو الى الداخل في توجس وما ان احتواه الداخل حتى اعترته رجفة ،

---

(١) كان حزب الحرية يسمى « تسو يو تانغ » . ولما كان القرويون لا يعرفون كلمة « الحرية » قلبوا لفظها « تسو يو » الى ما يقاربه أي « شو يو » يعني زيت الفواكه .

(٢) أعلى مرتبة أدبية في عهد أسرة تشينغ الملكية (١٦٤٤ – ١٩١١) .

فقد رأى مقلد الشيطان الأجنبي واقفا وسط الفناء يرتدي ثيابا سوداء تماما ، فلا شك أنها ثياب اجنبية ، وكان يحمل شارة فضية ابضا ، وفي يده عصا قد ذاق آه كيو منها طعم الألم ذات مرة ، وقد تساقط على كتفه ذيل شعر نما حديثا وتدلى اشعث مثل شعر القديس « لوي » (١) . وكان يقف أمامه تشاو باي ين وثلاثة آخرون وقفة اعتدال ، وكلهم يصغون بانتباه تام لما يقول .

ومشى آه كيو على أطراف أصابعه ، ووقف وراء تشاو باي ين وأراد أن يفوه بتحية ولكنه لم يعرف ما يفعل . فمن الواضح أنه لا يستطيع أن ينادي الرجل بـ « يا مقلد الشيطان الأجنبي » كما ان « يا أجنبي ! » و « يا ثوري » لا يبدوان مناسبين . فلعل الأوفق أن يخاطبه « يا سيد أجنبي ! »

غير ان السيد الأجنبي لم يره لأنه كان يتكلم بأشد انتعاش وعيناه مرفوعتان .

« أنا متسرع جدا . حتى حين التقينا أخذت أقول : يا هونغ العجوز ! يجب أن نبدأ ! – ولكنه كان يجيب دائما : نو ! – وهذه كلمة أجنبية لا تفهمها ، والا لنجحنا منذ زمن بعيد . ذلك مثال على مقدار حذره . لقد طلب الي مرارا أن أذهب الى خوبي ولكنني لم أوافق . فمن يريد أن يشتغل في بلدة ريفية صغيرة ؟ . . . . »

« آه . . . هذا . . . » انتظر آه كيو أن يتوقف ثم تمالك

---

(١) خالد من الخالدين في اسطورة شعبية صينية ، وهو يصور دائما بشعر غزير .

نفسه بشجاعة ليتكلم . ولكنه لسبب أو لآخر لم يدعه بـ « السيد الأجنبي . »

وانتفض الرجال الثلاثة الذين كانوا ينصتون والتفتوا ليحملقوا في آه كيو . ووقع بصر السيد الأجنبي عليه أيضا لأول مرة :

« ماذا ؟ »

« أنا . . . »

« اخرج ! »

« أريد أن أنضم . . . »

« إذهب ! » قال السيد الأجنبي وهو يرفع « عصا النائح » .

ثم صاح تشاو باي ين والآخرون : « يقول لك السيد تسين اذهب ، ألا تسمع ؟ »

ورفع آه كيو يديه ليقي رأسه ودون أن يعرف ما هو فاعل هرب من الباب غير ان السيد الأجنبي لم يطارده في هذه المرة . وبعد أن ركض ستين خطوة بدأ يبطىء ، وأخذ يشعر بأعظم اضطراب ذلك لأن السيد الأجنبي اذا لم يسمح له بأن يصبح ثوريا فما من طريق آخر مفتوح له . ولن يكون في وسعه في المستقبل أن يأمل بأن يأتي رجال ذوو خوذ بيضاء ، وعدد بيضاء ويدعوه . لقد نسف كل طموحه ، وأهدافه ، وأمله ، ومستقبله مرة واحدة . اما حقيقة أن الناس قد يذيعون النبأ عنه ، ويجعلونه أضحوكة لأمثال « د » الشاب وانغ ذي السبال فذلك اعتبار ثانوي .

ولم يشعر قط من قبل بأنه تافه جدا على هذا النحو . وحتى لف ضفيرته فوق رأسه لاح له مضحكا وبلا معنى . وكضرب

من الانتقام اغواه الشيطان جدا لينزل ضفيرته . ولكنه لم يفعل ذلك . وتسكع حتى المساء ، بعد أن شرب قدحين من النبيذ على الحساب ، وكان يشعر بحيوية أكثر ، ورأى ثانية في عين فكره صورا متقطعة للخوذ البيض والعدد البيض .

وذات يوم تسكع حتى هزيع متأخر من الليل ، ولم يغادر الحانة ليعود الى معبد الإلّه الحارس الا بعد أن أوشكت الحانة أن تغلق أبوابها .

« بانغ — بومب ! »

سمع فجأة صوتا غير مألوف لا يمكن أن يكون ألعابا نارية. وآه كيو دائما يحب الاثارة ، ويستمتع بحشر أنفه في شؤون الآخرين فمضى يبحث عن الضوضاء في الظلام . وبدا له أنه سمع وقع أقدام أمامه ، وكان يصغي بعناية حين اندفع رجل أمامه فجأة . وما ان رآه آه كيو حتى التفت ، وتبعه بأسرع ما في وسعه . وحين دار الرجل دار آه كيو ايضا . وحين توقف ذلك الرجل بعد أن دار منعطفا توقف آه كيو ايضا . ولم ير آه كيو أحدا خلفه ، وكان ذلك الرجل هو «د» الشاب .

سأل آه كيو باشمئزاز : « ما الخبر ؟ »

أجاب «د» الشاب لاهثا : « تشاو . . . لقد سلبوا عائلة تشاو . »

وأخذ قلب آه كيو يخفق بيت — بات . . وغادر « د » الشاب بعد ان قال له ذلك . وركض آه كيو . وتوقف مرتين أو ثلاثا . وعلى أية حال ، ما دام هو نفسه قد اشتغل بهذا الشغل ذات مرة فقد شعر بشجاعة استثنائية . وطلع من منعطف الشارع ، وأصغى

بعناية . وظن أن في وسعه أن يسمع صياحا ، كما نظر بعناية وحسب أن في وسعه أن يرى جملة من الرجال ذوي الخوذ البيض ، والعدد البيض ينقلون الصناديق ، وينقلون الأثاث ، وحتى ينقلون سرير « نينغ بو » زوجة مرشح المحافظة الناجح . وعلى أية حال لم يكن في وسعه أن يراهم بوضوح شديد . وأراد أن يدنو قليلا ، غير أن قدميه قد تسمرتا في الأرض .

ولم يكن في تلك الليلة قمر ، وكانت ويتشوانغ ساكنة جدا في حلكة الظلام ، هادئة هدوء الأيام الآمنة للامبراطور القديم « فوشي » (١) . ووقف آه كيو هناك حتى فقد الرغبة ، ومع ذلك فإن كل شيء يبدوكما كان من قبل ، في البعيد كان هناك اناس يروحون ويجيئون ، ينقلون أشياء ، وينقلون صناديق ، وينقلون أثاثا ، وينقلون سرير « نينغ بو » زوجة مرشح المحافظة الناجح . . . ينقلون حتى كاد لا يصدق عينيه . ولكنه صمم على أن لا يدنو أكثر ، وعاد الى المعبد .

وكان الظلام في معبد الآله الحارس أكثر حلوكة . وحين أغلق الباب الكبير تلمس طريقه الى غرفته ، واستلقى زمنا طويلا ، وهناك فقط شعر بهدوء . وعندئذ فكر في نفسه ، الظاهر أن الرجال ذوي الخوذ البيض ، والعدد البيض قد وصلوا ، غير أنهم لم يأتوا ليدعوه ، وقد نقلوا أشياء كثيرة ، غير أن أي نصيب لم يصبه — وكل ذلك خطأ مقلد الشيطان الأجنبي اذ أنه لم يسمح لي

---

(١) احد الملوك الاسطوريين القدامى في الصين .

أن أكون ثوريا . ولذلك عجزت عن الحصول على نصيب هذه المرة !

وكلما أوغل آه كيو في التفكير اشتد غضبه أكثر حتى بلغ غيظه قمته فصاح وهو يهز رأسه بحنق : « أجل ، أ حرام علي الثورة ، وهي خصيصى لك ؟ اللعنة عليك . يا مقلد الشيطان الاجنبي حسنا كن عاصيا ! ان العاصي يعاقب بقطع الرأس . وأنا سأتحول الى اصلاحي ، لأراك مأخوذا الى المدينة ليقطع رأسك — أنت وكل عائلتك . . . أقتل ، أقتل ! »

الفصل التاسع

الختام العظيم

بعد ان سرقت عائلة تشاو أحس أغلب أهالي ويتشوانغ بالفرح ، وبالخوف أيضا ، ولم يكن آه كيو شاذا عنهم . ولكن آه كيو قد جربعد أربعة أيام الى المدينة في منتصف الليل فجأة . وصادف أن كانت ليلة حالكة حين شقت شرذمة من الجنود ، وشرذمة من الميلشيا ، وشرذمة من الشرطة ، وخمسة من السريين طريقهم الى ويتشوانغ بهدوء تحت جنح الظلام ، وطوقوا معبد الآله الحارس ، ووضعوا رشاشة ازاء المدخل . ومع ذلك فإن آه كيو لم يندفع الى الخارج ، فقد مر وقت طويل دون ان يضطرب شيء في المعبد . ونفد صبر الضابط فعرض مكافأة قدرها عشرون ألف درهم . وحينذاك فقط استجمع اثنان من الميلشيا

شجاعتهما ، وقفزا من فوق السور ، ودخلا . ثم بالتعاون معهما اندفع الآخرون الى المعبد وجروا آه كيو منه . ولكنه لم يفق حتى حملوه من المعبد على مقربة من الرشاشة .

وحين بلغوا المدينة كان الوقت ظهرا ، ورأى آه كيو نفسه محمولا الى سراي خرب ، وبعد ان انعطف خمسة أو ستة منعطفات دفع الى غرفة صغيرة . وما ان دخل متعثرا حتى اغلق عليه باب مصنوع من قضبان خشبية بشكل مشبك . وكانت الغرفة ذاتها تتألف من ثلاثة جدران عارية . وحين أمعن النظر رأى رجلين آخرين في ركن من أركان الغرفة .

ورغم أن آه كيو كان يشعر بشيء من الاضطراب فلم يكن مغموما جدا على الاطلاق ، لان الغرفة التي ينام فيها في معبد الآله الحارس لم تكن أفضل من هذه قط . ويبدو أن الرجلين الآخرين قرويان أيضا . وبالتدريج دخلا في حديث معه ، وأخبره أحدهما بأن مرشح المقاطعة الناجح أراد أن يقاضيه الايجار الذي كان مدينا به الى جده ، اما الآخر فلا يعرف لماذا هو هنا ، وحين استجوبا آه كيو أجاب بصراحة : « لأنني أردت أن أثور . »

وفي اصيل ذلك اليوم جر آه كيو من خلال الباب ذي القضبان واخذ الى قاعة كبيرة وكان يجلس في طرفها البعيد رجل عجوز حلق رأسه تماما . وقد حسبه آه كيو راهبا في بادىء الأمر ، ولكنه حين رأى جنودا واقفين في الأسفل ، وعشرة من الرجال ذوي معاطف طويلة على الجانبين ، بعضهم قد حلق شعره

كله كذلك الرجل العجوز وبعضهم الآخر له ذيل من الشعر وما أشبه ذلك متدليا على كتفيه مثل مقلد الشيطان الأجنبي ، غير أنهم جميعا كانوا يحدقون فيه بشراسة من وجوه كالحة عرف ان هذا الرجل يجب أن يكون على شيء من الأهمية . وفي الحال ارتخت مفاصل ركبتيه تلقائيا ، وخر على الأرض .

صاح جميع الرجال ذوي المعاطف الطويلة :

« قف لتتكلم ، ولا تركع ! »

ورغم أن آه كيو قد فهم ذلك ، الاأنه شعر بأنه غير قادر على الوقوف ، ودون ارادة منه انحط جسمه وقعد القرفصاء ، وبعد ان حسن وضعه قام على ركبتيه راكعا مرة اخرى .

« عبد ! . . . » صاح الرجال ذوو المعاطف الطويلة بازدراء. غير أنهم لم يصروا على أن يقف .

وقال الرجل العجوز ذو الرأس المحلوق بصوت خفيض ولكنه واضح ، وهو يثبت عينيه بآه كيو : « قل الحق ، وستنال عقوبة مخففة . أنا أعرف كل شيء الآن . فاذا اعترفت أطلقت سراحك . »

« اعترف ! » كرر الرجال ذوو المعاطف الطويلة بصوت عال .

« الحقيقة أنني أردت . . . أن آتي . . . » تمتم آه كيو باضطراب بعد لحظة من التفكير المشوش .

سأل الرجل العجوز برقة : « في هذه الحالة ، لماذا لم تأت ؟ »

« لم يدعني مقلد الشيطان الأجنبي . »

« هراء ! لقد فات أوان الكلام الآن . . أين شركاؤك في الجريمة ؟ »

« ماذا ؟ »

« الناس الذين اغتصبوا عائلة تشاو في تلك الليلة . »

ولاحظ آه كيو في حنق وقال : « انهم لم يأتوا ليدعوني ، لقد نقلوا الأشياء بأنفسهم . »

« أين ذهبوا ؟ لو أخبرتني لتركتك تذهب . » قال الرجل العجوز برقة أكثر .

« لا أعرف ! . . . لم يأتوا ليدعوني . . . »

وهنا جرجر آه كيو مرة أخرى بأمر من الرجل العجوز عبر الباب ذي القضبان . وكانت المرة التالية التي جرجر فيها في الصباح التالي .

وكان كل شيء بلا تغيير في القاعة الكبيرة فالرجل العجوز ذو الرأس الحليق ما زال جالسا هناك ، وركع آه كيو على ركبتيه كالسابق .

وسأل الرجل العجوز : « هل عندك شيء آخر تقوله ؟ »

وفكر آه كيو وقرر أن ليس هناك شيء آخر فأجاب : « لا شيء . »

وهنا جلب رجل ذو معطف طويل قطعة من الورق وأمسك ريشة امام آه كيو ووضعها في يده . وكاد آه كيو يخرج عن اطواره من الفزع ، لأن هذه هي المرة الأولى التي تمس يده فيها ريشة كتابة في حياته كلها . وحين كان يفكر كيف

يمسك بالريشة ، أشار الرجل الى مكان في الورقة ، وأخبره بأن يوقع اسمه .

أمسك آه كيو بالريشة وقال في عصبية والخجل بان على محياه : « أنا . . . أنا . . . لاأعرف الكتابة . »

« في هذه الحالة ارسم دائرة ، تسهيلا للأمر عليك . »

وحاول آه كيو أن يرسم دائرة غير أن اليد التي أمسكت بالريشة ارتجفت فنشر الرجل الورقة على الارض ، وانحنى آه كيو ورسم دائرة بتدقيق شديد وكأن ذلك تتوقف عليه حياته . ويخاف أن الناس سيضحكون منه ، لقد عزم على أن يجعل الدائرة مستديرة ولكنه رسم شكلا على هيئة البطيخة لأن هذه الريشة الملعونة كانت ثقيلة ، ولأنها لم تمتثل لأمره أيضا فارتجت من جانب الى جانب ، وانحرفت حين أوشك الخط ان يتصل .

وبينا كان آه كيو خجلا من عدم مقدرته على رسم دائرة مستديرة ، كان ذلك الرجل قد استرجع الورقة والريشة دون تعليق ، ثم جره نفر من الناس عائدين به عبر الباب ذي القضبان .

وفي هذه المرة لم يشعر بغيظ مخصوص . فقد افترض أن نصيب كل انسان في هذا العالم أن يجرجر من السجن واليه ، وأن يرسم دائرة على ورقة ، ولأن دائرته لم تكن مستديرة ليس غير شعر بأن في لوحته لطخة . ولكنه استرد جأشه حالا وظن « ان البلهاء وحدهم يستطيعون أن يرسموا دائرة مضبوطة . » وبهذا الظن غلبه النعاس .

وفي تلك الليلة — على أية حال — لم يستطع مرشح المقاطعة

الناجح أن ينام ، لأنه قد تخاصم مع الضابط . فقد أصر مرشح المقاطعة الناجح أن يسترجع الأشياء المسروقة فإن ذلك أهم شيء بينما قال الضابط ان أهم شيء هو أن يعرض على الناس ليكون عبرة لغيره . وكان الضابط في المدة الأخيرة يعامل مرشح المقاطعة الناجح بازدراء . ولذلك ضرب المنضدة بجمع يده وقال : « عاقب واحدا ترهب مئة ! انظر الآن ! لقد اصبحت عضوا في الحزب الثوري منذ أقل من عشرين يوما ، غير أن هناك عشر قضايا سرقة ، لم تحل واحدة منها حتى الآن ، ففكر كيف أثر ذلك فيّ تأثيرا سيئا ، والآن أحاول حل هذه القضية . ولكنك تأتي لتحاول متحذلقا . هذا لا يجوز ! هذا من شأني . »

وكان مرشح المقاطعة الناجح مضطربا جدا ، ولكنه مازال ماضيا في اصراره قائلا ان الأشياء المسروقة اذا لم تسترجع فانه يستقيل في الحال من منصبه (مساعد المدير المدني) فقال له الضابط : « كما تشاء . »

وبالنتيجة لم ينم مرشح المقاطعة الناجح في تلك الليلة . ولكن ! من حسن الحظ انه لم يقدم استقالته في اليوم التالي .

وجرجر آه كيو عبر الباب ذي القضبان للمرة الثالثة في الصباح الذي اعقب الليلة التي لم يستطع فيها مرشح المقاطعة الناجح أن ينام . وحين وصل الى القاعة الكبيرة كان الرجل العجوز ذو الرأس الحليق جالسا في مكانه كالعادة ، وركع آه كيو على ركبتيه كالعادة .

وسأله الرجل العجوز برقة كثيرة : « هل لديك شيء آخر

تقوله ؟ »

وفكر آه كيو وقرر أن ليس هناك شيء آخر فأجاب :
« لا شيء ! »

ووضع عليه نفر من الرجال ذوو معاطف طويلة وسترات قصيرة ، صدرية بيضاء من قماش أجنبي عليها بعض الحروف السوداء . وشعر آه كيو ببلبال شديد ، لأن هذه تشبه ثياب الحداد ، وارتداء ثياب الحداد شيء منحوس . وفي نفس الوقت اوثقت يداه خلف ظهره ، وجرجر الى خارج السراي .

ورفع آه كيو الى عربة مكشوفة ، وجلس معه نفر من الناس يرتدون السترات القصيرة . واطلقت العربة في الحال . وكان في المقدمة عدد من الجنود والميلشيا وعلى أكتافهم البنادق الأجنبية ، وعلى الجانبين وقفت جموع المتفرجين فاغري الأفواه . أما ما كان في الخلف فلم يكن في ميسور آه كيو رؤيته . ولكن هجس هاجس له فجأة : « أ لعلي ذاهب ليقطع رأسي ؟ » واعتراه الذعر ، وتحول كل شيء أسود في عينيه بينما كان في أذنيه طنين وكأنه قد أصيب باغماء . ولكنه لم يصب باغماء في واقع الأمر . وبالرغم من أنه ارتعب بعض الوقت الا أنه كان هادئا جدا في جميع اوضاعه . وبدا له أن من الممكن أن يكون نصيب كل انسان في هذا العالم ان يقطع رأسه .

وكان ما يزال يعرف الطريق ، وشعر بشيء من الدهشة ، لماذا لا يذهبون به الى ساحة الاعدام ؟ وكان لا يعرف أنه يعرض للناس في الشوارع عبرة لغيره . ولكنه لو كان يعرف لما تغير من

الأمر شيء ، ولا يكون منه الا أن يظن أن من الممكن أن يكون نصيب كل انسان في هذا العالم في بعض الأحيان أن يعرض للناس ليكون عبرة .

ثم أدرك أنهم يقومون بدورة حول ساحة الاعدام ، لهذا فلا بد من ان رأسه سيقطع وتلفت فيما حوله بأسف ناظرا الى الناس الذين ينثالون خلفه كالنمل ، ووقع بصره على آماه وو بين جمع من الناس في الطريق دون توقع منه وهذا هو السبب في أنه لم يرها منذ زمن طويل ، إنها كانت تشتغل في المدينة .

وخجل آه كيو فجأة من افتقاره الى الشجاعة لأنه لم يغن بأي أبيات من اوبرا . ودارت أفكاره كالدوامة . ان « الارملة الصغيرة على قبر زوجها » ليست بطلة بما فيه الكفاية . وكلمات « وا أسفاه على قتلي . . . » في مسرحية « معركة التنين والنمر » فقيرة جدا . وكلمات « سأطعنك بصولجان من حديد » ما زالت هي الفضلى . ولكنه حين أراد أن يرفع يديه تذكر أنهما موثوقتان . فلم يغن : « سأطعنك . »

« في مدى عشرين عاما سأكون . . . » (١) تفوه آه كيو من غضبه قولا التقطه بنفسه ، ولكنه لم يستخدمه من قبل . وبدأ هدير الناس : « عظيم ! ! » مثل عواء الذئب .

ومشت العربة الى الامام بثبات . وخلال الصياح تلفتت

---

(١) « في مدى عشرين عاما سأكون فتى آخر ضليعا » عبارة كان المجرمون غالبا ما يقولونها قبل اعدامهم ليظهروا ازدراءهم للموت . وكانوا يظنون ، اعتقادا منهم بتناسخ الأرواح ، أي ان ارواحهم ستدخل الى أجسام أخرى حية بعد الموت .

عينا آه كيو بحثا على آماه وو . ولكنها لم تبد أنها رأته ، فقد كانت تنظر بتدله الى البنادق الأجنبية التي يحملها الجنود .

وألقى آه كيو نظرة اخرى على الصائحين .

وفي تلك اللحظة دارت افكاره مرة اخرى كالدوامة . قبل اربع سنوات التقى في سفح الجبل بذئب جائع تبعه على مسافة قريبة ، وهو يريد ان يأكله . وكاد يموت من الرعب ولكن من حسن الحظ صادف أنه كان يحمل فأسا في يده مدته بالشجاعة ليعود الى ويتشوانغ . ولكنه لم ينس قط عيني الذئب الضاريتين والجبانتين معا مثل نورين وهاجين خادعين ينفذان فيه من بعيد . والآن يرى العيون أشد ارعابا من عيني الذئب ، عيونا كابية ولكنها نفاذة بدت كأنها التهمت كلماته وما تزال متلهفة الى أن تلتهم شيئا آخر خلف اللحم والدم . وظلت هذه العيون تلاحقه .

وبدت هذه العيون كأنها اندمجت في عين واحدة تنهش في روحه .

« النجدة ! النجدة ! »

غير ان آه كيو لم يفه بهاتين الكلمتين ، وقد تحول كل شيء أسود في عينيه ، وكان في أذنيه طنين ، وشعر كأن جسمه كله قد تبعثر أشبه شيء بذرات النور .

اما الذين تأثروا في حادث السرقة فكان أشدهم تأثرا هو مرشح المقاطعة الناجح لأن الأشياء المسروقة لم تسترجع قط . وقد حزنت عائلته كلها بمرارة ، ثم تأتي بعده عائلة تشاو ، لأن مرشح المحافظة الناجح حين نزل الى المدينة ليبلغ عن السرقة ،

قص الثوريون ضفيرته ودفع علاوة على ذلك مكافأة قدرها عشرون الف درهم ، لهذا حزنت عائلة تشاو كلها بمرارة جد شديدة . ومنذ ذلك الحين لم يدّعوا الفخر بأنهم احفاد اسرة مالكة قد تداعت.

اما عن مناقشة الحادث فلم يثر أي سؤال عنه في ويتشوانغ . وطبيعي أن الجميع قد اتفقوا على أن آه كيو رجل شرير ، والدليل على ذلك قد قتل رميا بالرصاص فكيف يمكن ان يقتل اذا لم يكن رجلا شريرا . لكن الآراء لم تكن في البلدة متفقة على شكل واحد فان معظم الناس لم يكونوا راضين لأن الرمي بالرصاص ليس منظرا بديعا كقطع الرأس . ثم أي جان هذا يمر بشوارع كثيرة ولا يغني بيتا واحدا من اوبرا . لقد لحقوه ولكن دون جدوى .

كانون الأول ١٩٢١

اوبرا القرية

في خلال السنوات العشرين المنصرمات لم أذهب الى الأوبرا الصينية الا مرتين . اما في السنوات العشر الأول فلم أذهب قط ، اذ لم تكن عندي رغبة ، ولا سنحت لي فرصة . والمرتان اللتان ذهبت فيهما كانتا في السنوات العشر الماضيات . ولكنني في كلتا المرتين غادرت المكان دون ان أرى شيئا منها .

كانت المرة الأولى في عام ١٩١٣ حين كنت حديث اقامة في بكين . وقد اخبرني صديق ان لبكين احسن أوبرا ، وان رؤيتها تجربة لا ينبغي تضييعها . وقد ظننت ان رؤية أوبرا لاسيما في بكين قد تكون ممتعة فهرعنا ونحن منطلقو الاسارير الى مسرح نسيت اسمه . وكان العرض قد بدأ ، وفي الميسور سماع دقات الطبول من الخارج . وحين شققت الزحام في الداخل برقت

ألوان المشهد المتألقة ، وقد رأيت كثيرا من الرؤوس في البهو ، وحين امعنت النظر في المسرح رأيت بضعة مقاعد مازالت فارغة في الوسط . غير انني حين شققت الزحام لأجلس قال احد الناس، وكان في اذني خفقان فكان علي ان أصغي بانتباه لأسمع ما قاله : « آسف ، هذه المقاعد محجوزة . »

وعدنا الى الوراء غير ان رجلا ذا ضفيرة صقيلة قادنا الى ممشى جانبي ، وأشار الى مكان شاغر هو مسطبة عرضها ضيق جدا لا يتسع للجلوس وقوائمها أطول من ساقي مرتين تقريبا . وفي باديء الأمر لم تكن لي الشجاعة لأصعد عليها ثم ذكرتني ببعض آلات التعذيب فهربت وانا ارتعد دون ارادة مني .

وقطعت مسافة حين سمعت صوت صديقي يسألني : « حسنا ! ما هذا ؟ » وحين نظرت من فوق كتفي رأيت انه تبعني الى الخارج. وكان يبدو مندهشا وقد سأل : « لماذا مضيت قدما دون ان تنبس بكلمة ؟ »

قلت له : « أنا آسف . كان في أذني دق حتى لم أستطع سماعك . »

وكلما عدت الى التفكير في الحادث بدا لي غريبا تماما ، فحسبت ان الاوبرا كانت هزيلة جدا — او ان المسرح لم يكن بالمكان الذي يلائمني .

وقد نسيت السنة التي قمت فيها بمخاطرتي الثانية غير ان الأموال كانت تجمع اذذاك لمنكوبي الفيضان في خوباي

وكان تان شين بي (١) ما يزال على قيد الحياة . وكان في وسع المرء حين يدفع دينارين لتذكرة ان يسهم بقدر من المال للمشروع ، وان يذهب الى المسرح المرقم برقم واحد ليشاهد أوبرا يمثل فيها الجزء الأكبر من الممثلين المشهورين ، ومن بينهم تان شين بي نفسه . وقد اشتريت تذكرة درجة أولى لأرضي جامع التبرعات ، غير ان بعض الفضوليين قد اهتبل الفرصة ليقص علي لماذا سيظهر تان شين بي . واذذاك نسيت كارثة الطنين والرنين التي حصلت قبل بضع سنوات ، وذهبت الى المسرح ، فلعل ذلك راجع في نصفه الى انني دفعت كثيرا لهذه التذكرة الثمينة التي لن اشعر بارتياح اذا لم استعملها . وقد عرفت ان تان شين بي يظهر على المسرح في وقت متأخر من المساء ، وان المسرح المرقم برقم واحد مسرح عصري لا تضطر فيه ان تعارك على مقعدك . وقد طمنني ذلك . وانتظرت حتى الساعة التاسعة قبل ان انطلق . وكان المسرح – يا للدهشة – ممتلئا كالسابق . ولا يكاد يجد المرء مكانا للوقوف فيه فكان علي ان اشق الزحام في المؤخرة لأراقب ممثلا يغني في دور امرأة . وكان في كل جانب من جانبي فمه عود من الورق مشتعل . وكان الى جانبه جندي من الجن وأعملت فكري فحدست انه قد يكون أم موو ليان (٢) .

ذلك لان الداخل التالي الى المسرح كان راهبا . وحينما لم

---

(١) ممثل مشهور في أوبرا بكين .

(٢) كان موو ليان تلميذا لبوذا . وتقول الاسطورة ان امه ذهبت الى الجحيم لذنوبها فانقذها ابنها .

أتعرف على الممثل سألت سيدا سمينا كان يضغط على جانبي الأيسر فأجاب : « كونغ يو فو » (١) وهو يرميني بنظرة حارقة من طرف عينه . وتضرم وجهي خجلا لغلطي الفاضح ، وعزمت في فكري على ان لا أسأل اي سؤال آخر مهما كلف الأمر . ثم راقبت البطلة وخادمتها تغنيان ، ثم رجلا عجوزا ، واشخاصا لم أستطع تمييزهم . وبعد ذلك راقبت جماعة بكاملها تعارك عراكا تبارى فيه الجميع وبعد ذلك أخذ يتعارك شخصان او ثلاثة معا — ومن بعد الساعة التاسعة الى العاشرة ، ومن العاشرة الى الحادية عشرة ، ومن الساعة الحادية عشرة الى الحادية عشرة والنصف ولا أثر لتان شين بي .

ولم يحدث ان انتظرت في حياتي كلها شيئا بصبر كهذا . غير ان خرخرات الرجل السمين الملاصق لي ، وصلصلة المسرح وجلجلته وطبوله ونواقسه ودوامة الألوان البراقة ، والوقت المتأخر جعلتني ادرك فجأة ان المكان لا يليق بي . فانعطفت بصورة آلية ، وحاولت بجهد جاهد ان أتدافع لأشق طريقي الى الخارج . وشعرت بأن المكان ورائي قد مليء في الحال — فما من شك في ان الرجل السمين المطاطي قد مدد جانبه الأيمن في مكاني الفارغ واذ قطع علي طريق عودتي لم يكن هناك بد طبعا من ان أدفع وأدفع حتى اصبحت خارج الباب في نهاية الأمر . وفي الخارج لم يكن هناك في الواقع أحد يسير ، بل كان هناك سواق عربات الجر

---

(١) ممثل مشهور آخر في اوبرا بكين يمثل ادوارا نسائية .

للركوب ينتظرون المشاهدين ، وكان هناك ايضا لفيف من الناس الى جانب الباب يشاهدون العرض ، وجماعة اخرى لا تنظر الى شيء ، فلعلها — كما ظننت — في انتظار خروج النساء من العرض لتتفرج عليهن . ولم يكن هناك من اثر لتان شين بي . . .

غير ان هواء الليل كان نقيا رطبا جدا حتى لينفذ خلال الجسم تماما . وبدا لي كأن هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها مثل هذا الهواء البديع في بكين .

وودعت الأوبرا الصينية تلك الليلة ، ولم أفكر فيها قط ثانية . واذا مررت بمسرح عن طريق المصادفة فلا يعني ذلك شيئا عندي ، ذلك لأننا كنا متباعدين روحيا .

ولكن صادف أن قرأت كتابا يابانيا قبل بضعة ايام نسيت عنوانه واسم مؤلفه لسوء الحظ ، غير انه كان عن الاوبرا الصينية . ويشير احد الفصول الى أن الاوبرا الصينية مليئة بالنواقيس والصنوج والصياح والقفزات حتى تجعل رؤوس المشاهدين تدور . وانها غير ملائمة البتة للعرض على المسرح الا ان لها سحرها اذا ما مثلت في الهواء الطلق ، وشوهدت من بعيد . واحسست ان ذلك تعبير في الكلمات عما بقي في فكري بغير كلمات ، ذلك لأنني في الواقع أتذكر بوضوح انني شاهدت اوبرا جيدة حقا في الريف ، وربما تحت تأثيرها ذهبت الى المسرح مرتين بعد مجيئي الى بكين . ومن المؤسف انني بشكل او بآخر قد نسيت اسم ذلك الكتاب .

اما عن الوقت الذي شاهدت فيه الأوبرا فقد كان في

الحق منذ « زمن طويل طويل » . ولا يمكن ان تكون سني اذذاك تزيد عن الحادية عشرة او الثانية عشرة وكان من مألوف العادة في لوتشين حيث كنا نعيش ، ان تعود النساء المتزوجات الى آبائهن في الصيف اذا لم يكن مسؤولات بعد عن المنزل . ورغم ان أم ابي كانت ما تزال اذذاك قوية جدا فقد كانت لأمي واجبات منزلية قليلة . فكانت لا تستطيع قضاء عدة ايام مع أبويها في الصيف ولم يكن في ميسورها ان تغيب بضعة ايام الا بعد زيارة قبور الأجداد . وفي تلك الاحيان كنت أذهب معها دائما لأعيش في بيت أبويها . وكان البيت يقع في قرية تسمى بنغ تشيا غير بعيدة عن البحر ، قرية صغيرة منعزلة جدا وفيها أقل من ثلاثين عائلة من الفلاحين وصيادي السمك ، ودكان بقالة واحد . غير انها كانت في عيني فردوسا لا لأنني كنت أعامل فيها كضيف شرف فحسب ، بل لأنني تمكنت أن أتخلص فيها من قراءة « كتاب الاغاني » (١) .

وكان هناك اطفال كثيرون ألعب معهم . فقد كان آباؤهم لدى وصول زائر من مسافة بعيدة مثلي يسمحون لهم بان يعملوا أقل مما يلعبون . وضيف احدى العوائل في قرية صغيرة هو في الواقع ضيف على جميع القرية . وكنا جميعا في سن واحدة تقريبا غير اننا حين نأخذ بتحديد الأسبقية يتبين ان كثيرا منهم على الأقل اخوالي او أعمام أمي مادام كل واحد في القرية من عائلة

---

(١) اقدم مجموعة للشعر في الصين .

واحدة ، وينتمي الى فخذ واحد . ولكننا كنا اصدقاء متصافين . ولو حدث ان تشاجرنا ، وضرب أحد اعمام أمي فلن يحدث أبدا ان يصف أحد الأطفال او الكبار في القرية ذلك العمل « بانه اهانة للأكبر سنا . » وكان تسعة وتسعون بالمئة منهم لا يعرفون القراءة والكتابة .

وكنا نقضي معظم ايامنا في التنقيب عن الديدان ، نضعها في شصوص صغيرة من الاسلاك النحاسية او نلقيها في النهر لنصطاد الاربيان . والاربيان أبلد المخلوقات المائية ، فقد كان يستخدم كلاباته في لهفة ليجر طرف الشص ويضعها في فمه . فكنا في ساعات قلائل نستطيع ان نصطاد ملء قدر منه . وكانوا يعطون الاربيان لي . والشيء الثاني الذي كنا نفعله هو ان نخرج الجواميس غير ان الجواميس والثيران كانت تبدي عداء للغرباء ، فلعل ذلك لانها حيوانات من اجناس أعلى ، فكانت تعاملني بازدراء وكنت لا أجسر أبدا على الدنو منها . ولم يكن في ميسوري الا ان أتبعها عن بعد وأقف هناك . وفي مثل هذه الأوقات لم يعد اصدقائي الصغار متأثرين من حقيقة كوني أستطيع انشاد الأشعار الكلاسيكية ، بل كانوا يضحكون ساخرين .

واكثر ما كنت أتطلع اليه بشغف هو ذهابي الى تشاو تشوانغ لمشاهدة الاوبرا . وتشاو تشوانغ قرية أكبر بقليل تقع على بعد ميلين تقريبا . ولما كانت بنغ تشياو اصغر من ان تقدر على تشغيل اوبرات فقد كانت تسهم في كل عام بنصيب من المال لإقامة عرض في تشاو تشوانغ . وفي ذلك الوقت لم أكن

متلهفا الى ان أعرف السبب في اقامة عرض للاوبرات في كل عام . وحين أفكر في ذلك الآن تؤاتيني الجرأة على القول ان ذلك كان يجري بمناسبة مهرجان أواخر الربيع .

وفي تلك السنة كنت في الحادية عشرة او الثانية عشرة وقد جاء اليوم المنتظر طويلا . ولكن ، لسوء الحظ لم يكن في الصباح قارب نستأجره . فقد كان في قرية بنغ تشياو قارب شراعي واحد يغادر في الصباح ويعود في المساء . وكان هذا القارب كبيرا وحجزه كان خارج تفكيرنا ، اما القوارب الأخر فكانت غير ملائمة لأنها صغيرة جدا . وقد أرسل أحد الناس الى القرى المجاورة ليبحث عن قوارب للاستئجار . ولكن لم يعثر على اي واحد منها ، فان جميعها قد أجرت . وكانت جدتي مضطربة للغاية تلوم أبناءها لانهم لم يستأجروا قاربا في وقت مبكر ، واخذت تتشكى . وحاولت امي تهدئتها بقولها ان الاوبرات في لوتشين احسن بكثير من الاوبرات في هذه القرى الصغيرة ، وان هناك اوبرات كثيرة في كل عام فلا حاجة للذهاب اليوم . ولكن دموعي كادت تطفر من عيني خيبة ، وحاولت أمي جهد استطاعتها ان توحي الي بأن لا أظهر شيئا مهما يكن فان ذلك سيثير جدتي ، كما ينبغي ان لا أذهب مع الآخرين ايضا فان جدتي ستقلق .

وبكلمة أخرى لقد خاب المسعى . وبعد الغداء حين غادر جميع اصدقائي ، وبدأت الاوبرا تخيلت ان في وسعي ان أسمع اصوات النواقيس والطبول ، وأراهم ، بأم عيني ، يشترون حليب فول الصويا امام المسرح .

وفي ذلك اليوم لم أصطد الاربيان ، كما لم آكل شيئا كثيرا وكانت أمي مضطربة جدا . ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئا . وعند العشاء ادركت جدتي ما أحس به ، وقالت انني على حق تام في ان أغضب ، فقد كانوا مقصرين جدا ، ولم يعامل الضيوف من قبل بمثل هذه المعاملة السيئة . وبعد العشاء تجمع الصبيان الذين عادوا من الأوبرا ، ووصفوها لنا بغبطة . وكنت انا وحدي صامتا بينما تأوه الجميع وقالوا انهم كم أسفوا لأجلي ، وفجأة هبط الالهام على ألمعهم واسمه شوانغ شي : « قارب كبير — ألم يعد قارب العم الثامن الكبير ؟ » والتقط صبيان آخرون الفكرة في رفة عين ، وبدأوا في الحال يدعون الى اخذ القارب ، والذهاب معي ، وفرحت . غير ان جدتي كانت ثائرة الاعصاب ظانة أننا جميعا اطفال لا يعتمد عليهم ، وقالت امي ما دام على الكبار ان يعملوا جميعا في اليوم التالي فليس من الانصاف ان نطلب اليهم ان يأتوا معنا ويبقوا الليل بطوله . وبينما كان حظنا معلقا في ميزان نفذ شوانغ شي الى اعماق المسألة واعلن بصوت عال : « أعطيكم كلمتي بأنهم سيكونون في خير ! هو قارب كبير ، ولن يطفر الأخ شين قطعا . وكلنا نستطيع ان نسبح . »

وكان ذلك حقا . فما من صبي من هؤلاء إلا كسمكة في الماء ، وان اثنين او ثلاثة منهم كانوا سباحين من الدرجة الاولى .

واقتنعت جدتي وأمي ، ولم يعترضوا اعتراضات أخرى . وابتسمت كلتاهما ، واندفعنا جميعا في الحال .

وفجأة اصبح قلبي المثقل خفيفا ، وشعرت كأنني أعوم

في الهواء . وحين كنا في العراء كان في ميسوري ان أرى في ضوء القمر قاربا له ظليلة بيضاء مربوطا في الجسر . وقفزنا الى داخله ، وامسك شوانغ شي المدرأ الأمامي وآه فا المدرأ الخلفي للقارب ، وجلس الاولاد الصغار معي في وسط القارب ، بينما مضى الكبار منهم الى الدفة . وحين تبعتنا امي لتقول : « كونوا على حذر ! » كنا قد أقلعنا . ودفعنا الجسر مبتعدين عنه ، وانحدرنا بضع أقدام الى الوراء ، ثم سرنا الى الأمام تحت الجسر وهناك مجدافان تعهد كل واحد منهما ولدان . وكان الاولاد يتناوبون على المجدافين كل ثلث ميل . وكان الحديث والضحك والصياح يمتزج مع تكسر الماء على مقدمة قاربنا ، وحينما كنا نجري الى الأمام نحو تشاو تشوانغ كانت حقول الفول والحنطة الخضراء الزمردية على يميننا ويسارنا .

كان عبير الفول والحنطة ، واعشاب النهر تتموج أمامنا ونحن وسط ضباب الماء ، وكان ضوء القمر يبدو شاحبا من خلال الضباب . ومن بعيد كانت التلال الرمادية المتموجة ، مثل ظهور حيوانات حديدية قافزة ، تبدو كأنها تجري راكضة من أمام دفة قاربنا ، ومع ذلك فقد أحسست بان سيرنا بطيء . وحين تبادل المجدفون المجاذيف للمرة الرابعة كان من الميسور رؤية معالم تشاو تشوانغ ضئيلة ، والتقاط صوت الغناء . وكان هناك عدة اضواء ايضا فحدسنا انها أضواء المسرح ان لم تكن اضواء صيادي السمك .

ولعل الاصوات التي سمعناها هي اصوات نايات وكان

الدوران والهبوط والصعود على صفحة الماء قد هدأني ، وجعلني أحلم في نفس الوقت حتى شعرت كأنني موشك على ان أنساق معه بعيدا خلال هواء الليل الثقيل المضمخ بعبير الفول والحنطة واعشاب النهر .

وحين كنا نقترب من الأضواء عرفنا انها اضواء صيادي السمك ، وأدركت أنني لم أنظر الى تشاو تشوانغ على الاطلاق وكانت امامنا غابة من اشجار الصنوبر لعبت فيها في العام الماضي ورأيت الحصان الحجري المكسور قد سقط على جانبه ، وشاة حجرية قد اضطجعت على العشب وحين مررنا في الغابة انعطف قاربنا الى خور صغير . وكانت تشاو تشوانغ امامنا حقا .

وانجذبت أعيننا الى المسرح القائم على قطعة من الارض في الفضاء الى جانب النهر خارج القرية . وكانت المعالم الضئيلة في ضوء القمر البعيد لا يكاد يميز ما حولها . ولاح لي كأن الارض الاسطورية التي رأيتها في الصور قد عادت الى الحياة هنا ، وكان القارب يسير أسرع الآن . وفي الحال استطعنا ان نميز شخوصا على المسرح ، ووهجا من الالوان البراقة ، وكان النهر قرب المسرح مسودا بظليلات القوارب العائدة الى أناس جاءوا لمشاهدة العرض .

قال آه فا مقترحا : « ليس هناك مكان فارغ قرب المسرح فلنراقب من بعيد » .

وتهادى القارب ببطء . وسرعانما وصلنا والحق ان من المستحيل الاقتراب من المسرح . وكان علينا ان نعجل بقاربنا

الى حيث المسرح بعيد منا حتى ابعد مما بينه وبين الهيكل المواجه له . ولم نأسف لذلك على اية حال لأننا لم نرد ان يختلط قاربنا ذو الظليلة البيضاء بتلك القوارب العامة كما لم يكن هناك مكان فارغ في شكل من الاشكال . . .

وبينما كنا نربط قاربنا مسرعين ظهر على المسرح رجل ذو لحية سوداء طويلة وله اربع رايات صغيرة مثبتة على ظهره . وكان يقاتل فريقا من الرجال العزل بمزراق . وقال لنا شوانغ شي انه بهلوان مشهور بوسعه ان ينقلب في الهواء اربعا وثمانين مرة واحدة بعد أخرى . وقد أعد نفسه في اوائل النهار .

وتجمهرنا جميعا في مقدمة القارب لنراقب القتال . غير ان البهلوان لم يثب اية وثبة . وقد انقلب بعض الرجال العزل رأسا على عقب عدة مرات ، ثم خرجوا في مجموعة . ثم دخلت فتاة وغنت بصوت طويل مسترخ . وقال شوانغ شي : « ليس هناك اناس كثيرون في المساء . والبهلوان قد تهاون . فما من احد يريد ان يعرض براعته دون متفرجين . » وذلك شيء مفهوم . فحينذاك لم يبق في الواقع كثير من الناس يراقبون العرض ، وكان على اهالي القرية ان يعملوا في اليوم التالي . ولم يكن في وسعهم ان يبقوا الليل بطوله . وهكذا ذهبوا جميعا الى فرشهم . ولم يبق الا عشرون شخصا او قراب ذلك من المتبطلين من تشاو تشوانغ والقرى المجاورة متناثرين هنا وهناك . وكانت عوائل الأثرياء في قواربها ذات الظليلات السوداء ، لكنهم لم يكونوا في الواقع مهتمين بالاوبرا . ومعظمهم قد ذهب الى اسفل المسرح ليأكل

الكعك أو الفاكهة او البطيخ . وهكذا كاد المسرح يخلو من النظارة .

وفي واقع الامر انني لم اكن شديد الاهتمام بالوثبات البهلوانية في الهواء . واكثر ما كنت اود مشاهدته جنية افعى ملفوفة ببياض ويداها الممسكتان برأس أفعى شبيه بالعصا القصيرة موضوعتان على رأسها ، وكانت ضالتي الثانية نمرا وثابا في ثياب صفر ، غير انهما لم يظهرا رغم انتظاري زمنا طويلا . وخرجت الفتاة . ودخل في الحال رجل عجوز جدا يقوم بدور شاب . وكنت متعبا قليلا . وطلبت الى كوي شنغ بأن يشتري لي شيئا من حليب فول الصويا . فذهب وعاد بعد قليل وقال : « لا يوجد اي شيء منه . فالأطرش الذي كان يبيعه قد ذهب . وكان هناك شيء منه في النهر . وقد شربت طاسين منه . وسأذهب لأجلب لك مغرفة من الماء لتشرب . »

ولم اشرب الماء . وكنت اكلف نفسي بالمشاهدة رغم النعاس. وليس في ميسوري ان أقول ماذا رأيت ، ولكن بدت لي وجوه الممثلين تصبح غريبة شيئا فشيئا . وقد تضاءلت الشخوص وكأنها اندمجت في سطح واحد منبسط وكان معظم الاولاد الصغار يتثاءبون، بينما كان الكبار منهم يتجاذبون اطراف الحديث فيما بينهم . ولم نرفع انفسنا لنعاود المشاهدة ضاحكين الا بعد ان شد مهرج في ثوب احمر على صارية في المسرح ، وبدأ رجل ذو لحية رمادية يسوطه مثلما يساط الفرس . وانا اظن حقا انه أحسن مشهد في هذا المساء .

بيد ان امرأة عجوزا قد خرجت اذذاك . وهي شخصية أستفظعها أشد الاستفظاع ولاسيما ساعة تجلس لتغني . وأدركت من سحنات الآخرين انهم يشعرون جميعا بنفس شعوري . وفي البداية كانت العجوز تروح وتجيئ وهي تغني ، ثم جلست وسط المسرح . وقد كنت مكروبا حقا . وبدأ شوانغ شي والآخرون يشتمون . وانتظرت بصبر حتى رفعت العجوز يدها بعد وقت طويل ، وحسبت انها ستقف . غير انها خلافا لآمالي خفضت يدها ببطء الى موضعها المعتاد ، ومضت في الغناء كالسابق. ولم يستطع بعض الاولاد من ان يمنعوا أنفسهم عن التأوه ، بينما طفق الآخرون يتثاءبون من جديد . وفي آخر الأمر لم يطق شوانغ شي صبرا على ذلك . فقال انه يخشى ان تظل العجوز تغني حتى مطلع الفجر ، وان من الافضل ان نغادر . ووافقناه جميعا على الفور ، وتلهفنا الى الرحيل تماما قدر ما كنا متلهفين على المجيء . وهرول ثلاثة صبيان او اربعة الى الدفة ، امسكوا المدرأين ليرجعوا بالقارب عدة أذرع الى الوراء . ثم اداروا القارب ، ونصبوا المجذافين لاعنين المغنية العجوز ، وعادوا ثانية الى غابة الصنوبر.

وتقديرا من مسافة حركة القمر يتضح اننا لم نقض وقتا طويلا في مشاهدة العرض . وحين غادرنا تشو تشوانغ بدا ضوء القمر لامعا على نحو غير مألوف. وحين تلفتنا لنرى المسرح الذي تنيره الفوانيس بدا مثلما رأيناه عند مجيئنا مبهما مثل ايوان اسطوري ، مغطى بضباب وردي . وعادت النايات تصل أنغامها الى آذاننا . وفكرت بأن المغنية العجوز لا بد انها قد فرغت من الغناء الآن .

ولكن اقتراح العودة لنشاهد المسرح مرة أخرى لا يمكن ان يكون اقتراحا صائبا حتماً .

وسرعان ما اصبحت غابة الصنوبر خلفنا وكان القارب يتحرك بشيء من السرعة ولكن الظلمة الكثيفة كانت تخيم حولنا حتى لفي وسعك ان تحكم بان الوقت متأخر وحين كان المجذفون يتبادلون الرأي في الممثلين ويضحكون ويشتمون كانوا يسحبون المجذافين بسرعة . وكان رشاش الماء عند مقدمة قاربنا اشد وضوحا هذه المرة . وبدا القارب مثل سمكة بيضاء عظيمة تحمل شحنة من الاطفال على ظهرها خلال الزبد . واوقف بعض الصيادين الذين يصطادون طوال الليل ، زوارقهم الصغيرة ليتمتعوا في المنظر .

وكنا ما نزال على بعد ثلث ميل من بنغ تشياو حين تباطأ قاربنا ، قال المجذفون انهم قد تعبوا بعد ان جذفوا بشدة . ولم يكن لدينا شيء نأكله منذ ساعات . وفي هذه المرة كان كوي شنغ صاحب فكرة نيرة ، فقد قال ان فول « اللوهان » قد نضج وعندنا وقود في القارب — وفي امكاننا ان نستعمل قليلا منه لنطبخ الفول . ووافق الجميع . واتجهنا على الفور نحو الشاطىء . وكانت الحقول الحالكة السواد مليئة بالفول الغض .

وكان شوانغ شي اول من قفز الى الضفة ، وصاح من عليها : « هاي ! آه فا ! هذا حقل عائلتك ! وحقل عائلة ليوئي الكبير هناك . فمن اين سنأخذ ؟ »

وقفزنا جميعا الى الشاطىء . وقال آه فا : « انتظر دقيقة ،

وسألقي نظرة . » ومشى هنا وهناك وهو يتلمس الفول ، ثم رفع قامته وقال : « خذوا من فولنا ، فهو اكبر بكثير . » وتفرقنا متصايحين خلال حقل الفول العائد لعائلة آه فا . وكل واحد منا كان يقتطف حفنة كبيرة من الفول ، ويلقيها في القارب . وفكر شوانغ شي بأننا لواخذنا اكثر ، وعرفت بذلك ام آه فا فسنقع في ورطة . وذهبنا الى حقل عائلة ليو ثي الكبير ليقتطف كل واحد منا حفنة اخرى .

ثم طفق بعض الصبيان الكبار يجذفون ببطء ثانية ، بينما اشعل الآخرون نارا عند الدفة ، والاولاد الصغار وانا نقشر الفول . وسرعان ما طبخ الفول ، وتركنا القارب ينحدر وتجمعنا نحن في حلقة ، واكلنا بأصابعنا . وحين فرغنا من الأكل سرنا ثانية غاسلين الأواني ، رامين القشور في النهر لنمحو كل اثر . وكان شوانغ شي منزعجا لاننا قد استعملنا الملح والحطب على قارب العم الثامن الكبير ، وهذا الرجل العجوز صارم جدا ، وسيكتشف الأمر بالتأكيد ، ويعنفنا . وبعد مناقشة قليلة قررنا ان ليس هناك ما نخافه . فاذا عنفنا فسنطلب اليه ان يعيد غصن الصنوبر الذي أخذه من ضفة النهر في العام الماضي ، وندعوه بالعجوز الاجرب في وجهه .

ورن صوت شوانغ شي من مقدمة القارب فجأة قائلا : « ها نحن عائدون جميعا ! فكيف يمكن ان يحدث شيء ؟ ألم أقطع عهدا بأننا سنكون جميعا في خير ؟ »

واذ نظرت من فوقه رأيت اننا في بنغ تشياو حقا كان ثمة

شخص واقف اسفل الجسر – تلك هي امي . وكان شوانغ شي يوجه كلامه اليها . واذ مشيت الى مقدمة القارب مرالقارب من تحت الجسر ، ثم توقف ، ونزلنا جميعا الى الشاطىء . وكانت امي منزعجة قليلا ، وسألت في غضب كيف يجوز ان نعود في وقت متأخر جدا – وكان الوقت بعد منتصف الليل ؟! ولكنها سرعان ما صفا مزاجها ، وابتسمت وهي تدعو الجميع الى ان يعودوا ويأكلوا شيئا من الرز المسلوق .

فقالوا لها اننا أكلنا شيئا ، ونحن نّعس ، فمن الاحسن ان نأوي الى فرشنا في الحال . وهكذا انصرفنا جميعا الى بيوتنا .

ولم استيقظ في اليوم التالي حتى الظهر ، ولم تكن هناك اية اشارة عن ورطة مع العم الثامن الكبير حول الملح والحطب . وبعد الظهر ذهبنا لنصطاد الاربيان – كالعادة .

« شوانغ شي ! انتم ايها المحتالون الصغار لقد سرقتم فولي امس ! ولم تقتطفوه بصورة جيدة . ودستم على قليل منه . » ورفعت بصري ورأيت ليوئي الكبير في زورق صغير عائدا من الفول المستباح .

قال شوانغ شي : « نعم ! كنا نكرم ضيفا . ولم نكن نريد ان نبدأ بفولك . انظر ! لقد افزعت اربياني . »

وحين رآني العجوز توقف عن التجديف ، وضحك : « تكرمون ضيفا ؟ اذن يجب عليكم . » ثم سألني : « هل كانت اوبرا الأمس جيدة ؟ »

« نعم . » وهززت رأسي .

« هل أعجبك الفول ؟ »

« جدا . » وهززت رأسي ثانية .

واستغربت لان العجوز قد سر كثيرا ، ورفع ابهاما وأعلن في رضى : « الناس من اهل المدن الكبيرة الذين درسوا حقا يعرفون ما هو الجيد . وقد اخترت بذور فولي واحدة واحدة . واهل الريف لا يستطيعون ان يعرفوا الجيد من الرديء ويقولون ان فولي ليس جيدا كفول الآخرين . . سأعطي شيئا لأمك اليوم لتجربه . » ثم جذف قاربه .

وحين دعتني أمي للعشاء كان على المائدة قدر كبير من الفول المسلوق الذي جلبه اليها ليوئي العجوز لآكله . وقد سمعت انه قد مدحني كثيرا عند امي قائلا : « هو صغير السن جدا ، ولكنه يعرف الأشياء . وسيجتاز جميع الامتحانات الرسمية في المستقبل بالتأكيد . ان مستقبلك على احسن ما يكون . » ولكنني حين اكلت الفول لم يكن طعمه لذيذا كمثل الذي اكلناه في الليلة الماضية .

حقا انني لم آكل حتى الآن فولا لذيذا كذلك الفول ، ولم اشاهد اوبرا جيدا كتلك الاوبرا التي شاهدتها في تلك الليلة .

تشرين الأول ١٩٢٢



للفنان قو يوان

ضحية العام الجديد

ما من شك أن لك احساسا ، في أواخر العام القديم (١) ، بقدوم العام الجديد ، فضلا عما يبدو في المدن والأرياف .

لقد لاحت السماء كأنها لم تكن في هيئتها المألوفة ، اذ ان الصواريخ والالعاب النارية تنفجر بين حين وآخر خلال سحب المساء الداكنة المتراكمة انفجارا يبعث ومضات لماعة ويصدر اصواتاً صاخبة ، أحتفاء برحيل اله العافية . اما الالعاب النارية التي تنفجر بالقرب منا فقد كانت تبعث دويا جد كبير . وقبل ان يتلاشى صوتها المصم للآذان يكون الجو مملوءا برائحة بارود خفيفة .

في مثل هذه الليلة عدت الى موطني الاصلي « لوتشين » .

(١) في التقويم القمري الصيني .

ورغم أنني أدعوها موطني الأصلي ، فلم يكن لي دار فيها حينا من الزمن ، فكنت أنزل موقتا عند شخص اسمه السيد لو ، الابن الرابع لأبويه . وينتمي الى الفرع الذي أنتمي اليه من عائلتنا ، وهو من جيل قبل جيلي لهذا كان على أن أدعوه عمي الرابع . وكان طالبا قديما في الكلية الامبراطورية (١) ينزع الى الكونفوشيوسية الجديدة . وقد وجدته بلا تغير كبير ، بل كان قد تقدم في السن قليلا ولكن دون ان يظهر له شاربان . وحين التقينا وتبادلنا بعض الملاحظات القليلات المؤدبة قال لي انني قد سمنت ، وبعد هذا مباشرة طفق يهاجم الثوريين بشدة . وقد عرفت أن ذلك لا يعنيني شخصيا ، لأن « كانغ يو وي » (٢) كان ما يزال هدف الهجوم ومع ذلك فقد تعسر الحديث ، وهكذا رأيت نفسي بعد وقت وجيز وحيدا في المكتب .

استيقظت في اليوم التالي بوقت متأخر جدا ، وبعد الغداء خرجت لزيارة بعض الأقارب والأصدقاء . وفي اليوم الآخر فعلت الشيء نفسه . ولم أر أحدا منهم قد تغير كثيرا ، الا ان السن قد تقدمت بهم قليلا . وكانت كل عائلة مشغولة بالاستعداد ليوم التضحية . وهو أكبر احتفال لآخر العام في لوتشين حين يرحب الناس باله اليمن باجلال راجين اليمن في العام المقبل . فيذبحون الدجاج والاوز ، ويشترون لحم الخنزير فاركين

---

(١) أعلى معهد للتعليم في عهد أسرة تشينغ الملكية .

(٢) مصلح مشهور عاش من عام ١٨٥٨ الى عام ١٩٢٧ وكان يدعو الى الملكية الدستورية .

وداعكين حتى تصبح اذرع النساء حمرا في الماء ، وبعضهن ما زلن يلبسن الاسورة . وبعد أن يطهى اللحم تغرز فيه بعض أعواد الأكل كيفما اتفق ، ويسمى ذلك بـ « القربان » . ويقدمونه عند الفجر ويشعلون حوله البخور والشموع ، ويدعون إله اليمن باجلال ليباركهم في تناول القربان . والرجال وحدهم يحق لهم التعبد ، وبعد التضحية ينصرفون للالتهاء بالالعاب النارية كالسابق . ويحدث هذا كل عام ، وفي كل عائلة ، شريطة أن تكون قادرة على شراء القرابين والألعاب النارية ؛ وطبيعي أنهم في هذه السنة جروا على العادة القديمة .

وأخذ النهار يكفهر ، وعند الظهر أخذ الثلج يتساقط وتطاير نديف الثلج في السماء وأكبر قطعة من هذا النديف بحجم وريقة زهرة الخوخ ، وكان هذا ممزوجا بالدخان وجو النشاط قد جعل لوتشين تبدو في فوران شديد . وحين عدت الى مكتب عمي كان سطح البيت قد ابيض من الثلج ، كما لاحت الغرفة أضوأ من ذي قبل وقد ظهرت بوضوح شديد الورقة الكبيرة التي تحمل كلمة « العمر الطويل » بلون أحمر معلقة في الجدار ، والتي كتبها تشن توان (١) القديس التاوي . وقد سقط احد الطومارين وكان ملقى على المنضدة الطويلة مطويا باهمال . غير ان الطومار الآخر كان ما يزال معلقا هناك وقد كتبت عليه هذه الكلمات « بعقل مدرك ننال هدوء الفكر . » واخذت بتكاسل أقلب الكتب

---

(١) ناسك عاش في بداية القرن العاشر .

الموضوعة على المنضدة تحت النافذة ، غير انني لم أجد غير كومة كتب بدت من بينها مجموعة غير كاملة من قاموس كانغ شي (١) ومجلد من كتاب « ملاحظات عن كتابات تشو شي الفلسفية » لتشيانغ يونغ ومجلد من كتاب « تعليقات عن الكتب الأربعة . » (٢) ولكنني على اية حال قد عزمت على السفر في اليوم التالي .

وفضلا عن ذلك فان أي تفكير بلقائي مع زوجة شيانغ لين يوم أمس يجعلني غير مرتاح . وقد حدث ذلك بعد الظهر . وكنت في زيارة لأحد أصدقائي في القطاع الشرقي من البلدة . وحين خرجت منه التقيت بها على شاطىء النهر ، ومن نظراتها التي وجهتها الي عرفت انها تريد ان تتحدث معي . وان أي واحد من الذين رأيتهم هذه المرة في لوتشين لم يتغير مثلما تغيرت هي . فشعرها الذي كانت فيه شعرات بيض قبل خمس سنوات قد ابيض كله ، وذلك أمر لا مثيل له في غيرها من نساء العقد الرابع من العمر ، وكان وجهها نحيلا على نحو مخيف ، وقاتما في شحوبه ، وقد فقد فضلا عن ذلك سحنته الحزينة السابقة ، فبدا كأنه منحوت من خشب . ورفيف عينيها العرضي وحده يدل على انها ما زالت مخلوقة حية . وكانت تحمل في يد واحدة سلة من الاغصان المضفورة ، فيها طاس فارغ مكسور ،

---

(١) قاموس صيني ألف برعاية الامبراطور كانغ شي الذي حكم ما بين عام ١٦٦٢ الى ١٧٢٢ .

(٢) من الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية

وكانت تمسك في اليد الأخرى عصاً من البامبو أطول منها مشققة من الأسفل ؛ ومن الظاهر انها قد أصبحت شحاذة .

وقفت جامدا منتظرا ان تأتي وتسألني نقودا .

وسألتني أولا : « هل عدت ؟ »

« نعم . »

« هذا حسن جدا . فأنت عالم ، وقد سافرت أيضا ورأيت كثيرا . وأريد فقط أن أسألك عن شيء . » وفجأة لمعت عيناها الكابيتان .

ولم أحدس قط أنها ستتحدث الي على هذا النحو . وقد وقفت مندهشا .

« هو هذا . » واقتربت خطوتين ، وهمست سرا : « بعد ان يموت الانسان أ يتحول الى روح أم لا ؟ »

وتملكني شعور غريب ، حين رأيتها تثبت عينيها بي . وسرت رعدة في ظهري ، وشعرت بتوتر أعصاب أكثر من ذلك الذي يشعر به المرء حين يجابه في المدرسة امتحانا غير متوقع . ومن سوء الحظ أن المعلم كان يقف الى جانب الممتحن . وأنا شخصيا لم أفكر قط بقضية وجود الأرواح ، ولكن كيف أستطيع أن أجيبها وهي في هذه الأزمة ! وبعد ان ترددت لحظة فكرت : « من العادة هنا أن يؤمن الانسان بالأرواح . ومع ذلك فهي تبدو مرتابة — لعل من الأحسن ان أفكر بأنها تأمل . . . تأمل في وجود الخلود وفي الوقت ذاته تأمل عدم وجوده . فلماذا أزيد في عذاب البائسة ؟ من الأفضل أن أقول انها موجودة لأعطيها شيئا تتطلع

به الى الأمام . »

قلت لها مترددا : « قد يكون على ما أظن . »

« اذن فتوجد جهنم ايضا ؟ »

« ماذا ؟ جهنم ؟ » قلت ذلك وأنا شديد الفزع ، ولم يكن في وسعي الا ان أتملص من السؤال : « جهنم ؟ يقال انها توجد — ولكن ليس من الضروري . . . وعلى أية حال من يعبأ بها؟. . . »

« ثم سيرى افراد العائلة الواحدة بعضهم بعضا ثانية اذا ماتوا . »

وقد ادركت الآن أنني ما أزال أحمق للغاية فكل ترددي وتأملي لم يكن قادرا على ان يقف أمام ثلاثة أسئلة . وفي الحال فقدت الثقة ، وأردت ان أقول خلاف ما قلت لها من قبل : « حسنا ، اما عن مسألة ان يرى بعضهم بعضا أو لا يرى . . . في هذه الحالة كحقيقة واقعة انا غير متأكد . . . وفي الواقع أنا غير متأكد من قضية الأرواح أيضا . »

ولكي أتفادى أسئلة أخرى ملحاحة ابتعدت عنها . وعدت القهقرى مسرعا الى بيت عمي وانا أشعر بعدم ارتياح مطلقا . وفكرت في نفسي : « أخشى ان يكون جوابي خطرا عليها . أ لعلها تحس بالوحدة حين يحتفل الناس الآخرون ؛ أم ان هناك سببا آخر ؟ هل يمكن ان يكون عندها هاجس ؟ اذا كان هناك سبب آخر وحدث شيء بالنتيجة ، فسأكون عن طريق جوابي مسؤولا عن ذلك الى مدى معين . » وفي النهاية ، على أية حال ، انتهيت الى الضحك من نفسي قائلا ان لقاءا عابرا كهذا لا يمكن

ان تكون له أهمية عظيمة ، ومع ذلك فقد أخذت الأمر مأخذا جديا ، فلا غرابة أن يعتقد بعض المربين انني مصاب بمرض من أمراض الأعصاب . ولكن على كل حال قد قلت بوضوح : « أنا غير متأكد . » مناقضا جوابي السابق فاذا حدث شيء فلا شأن له بي مطلقا .

« أنا غير متأكد . » هي أبلغ عبارة .

والشبان الطائشون غير المجربين ، غالبا ما يأخذون على عواتقهم حل مشاكل الناس أواختيار الأطباء لهم ، واذا انقلبت الأمور شر منقلب لسبب او لآخر فان اللائمة تقع عليهم ؛ ولكن المرء يستطيع حين يختم كلامه بعبارة « أنا غير متأكد . » يحرر نفسه من المسئولية . واذذاك شعرت بضرورة تلك العبارة شعورا أقوى مادام لاغنى في الكلام مع شحاذة .

ومع ذلك فقد ظللت أشعر بعدم الارتياح ، وحتى بعد مضي ليلة لم يفارقني هذا التفكير وكأنما كان لي شعور سابق . وفي ذلك الطقس المثلوج المضايق ، وفي ذلك المكتب المكفهر كان الضجر يزداد فقلت في نفسي من الأحسن ان أسافر ، ينبغي ان أعود الى البلدة في اليوم التالي . وقد كلفتني زعانف القرش المسلوقة في مطعم فوشينغ دينارا لطبق كبير . فليت شعري أزاد ثمن هذا الطبق الرخيص اللذيذ ام لا ؟ ورغم أن الأصدقاء الذين صاحبتهم في الايام السالفة قد تفرقوا ، فان زعانف القرش تلك ما زالت طيبة المذاق ، حتى لو كنت وحدي . وعلى أية حال لقد عزمت على السفر في اليوم التالي .

وبعد التجارب الكثيرة كانت تلك الأشياء التي كنت أرجو بأن لا تقع ، والتي ينبغي ان لا تقع ، قد وقعت . وكنت خائفا بشكل يائس من أن تكون هذه الحال على غرار تلك . والواقع أن اشياء غريبة أخذت تقع . فقبيل المساء سمعت حديثا — بدا مثل نقاش — في الغرفة الداخلية ولكن سرعان ما انتهى الحديث ، وكل ما سمعته هو قول عمي في صوت عال وهو يخرج من الغرفة : « لا سابقا ولا لاحقا بل في هذا الوقت نفسه — علامة أكيدة على سوء خلق . »

وشعرت أولا بالاستغراب ، ثم بعدم ارتياح كثير ظانا أن هذه الكلمات تخصني . ونظرت الى خارج الباب ، ولكن لم يكن من احد هناك . وأمسكت نفسي بصعوبة . ودخل خادمهم قبل العشاء ليضيف ماء الى ابريق الشاي فسنحت لي الفرصة في آخر الأمر لأستفسر قليلا .

سألت : « على من غضب السيد لو قبل قليل ؟ »

فاجاب بايجاز : « أوه ، ما يزال غاضبا على زوجة شيانغ لين . »

سألت ثانية : « زوجة شيانغ لين ؟ كيف كان ذلك ؟ »

« لقد ماتت . »

« ماتت ؟ » وتوقف قلبي عن الخفقان فجأة . وعرتني هزة ، ولعل لوني قد تغير أيضا . غير أن الخادم لم يرفع رأسه طوال ذلك الوقت ، فربما كان جاهلا بشعوري ثم ضبطت نفسي وسألت :

« متى ماتت ؟ »

« متى ؟ في الليلة الماضية أو اليوم . أنا لست متأكدا . »

« وكيف ماتت ؟ »

« كيف ماتت ؟ اوه . من الفاقة بالطبع . » اجاب بهدوء . ودون ان يرفع رأسه لينظر الي ثم خرج من الغرفة .

ومع ذلك فقد كان اضطرابي قصير الأجل ، ذلك لأن الشيء الذي أحسست به موشكا على الوقوع قد صار واقعا . ولم أعد مضطرا الى أن ألجأ الى عبارة « أنا غير متأكد . » او الى تعبير الخادم « ماتت من الفاقة . » لأنشد الراحة بهما . وخف الثقل عن قلبي . ولكن بين حين وآخر كان يبدو لي ان شيئا مايزال يثقل عليه . وأعد العشاء ، وشاركني عمي بوقار . وأردت أن أسأله عن زوجة شيانغ لين ولكنني أعرف أنه يحتفظ ببعض الخرافات رغم انه قد قرأ «الأشباح والأرواح من خواص الطبيعة» (١) . وليس من المناسب في عشية هذه التضحية الاشارة الى شيء كالموت والمرض . وعند اقتضاء الضرورة يستطيع المرء ان يشير بالتورية الى ذلك ولكن من سوء الحظ لا أعرف كيف أورّي ، لهذا كان علي ان ابتلع الاسئلة رغم انها ظلت تطفر الى طرف لساني . وفجأة دار في خلدي من شكله الوقور انه يعنيني في اختيار وقت لا متقدم ولا متأخر ، بل في هذا الوقت تماما لآتي وأزعجه ، وأني أيضا ذو خلق سيء . وهكذا قلت له وأنا أريد ان أرفه عن فكره ، إنني مزمع على ترك لوتشين في اليوم التالي ، والعودة الى المدينة . ولم يلح علي كثيراً في البقاء . وهكذا فرغنا من الطعام بهدوء .

---

(١) قول لكونفوشيوس . وللكونفوشيوسيين رأي معقول نسبيا عن الارواح .

النهار في فصل الشتاء قصير ، والآن يتساقط الثلج وقد لفت الظلمة البلدة كلها . وكان كل امرىء مشغولا تحت ضوء المصباح ، بيد ان الهدوء المطبق كان يخيم خارج النوافذ . وكان نديف الثلج يتساقط بغزارة على الثلج المكوم فيجعل المرء يشعر بوحدة موحشة . وخلوت الى نفسي تحت الضوء الأصفر الذي يرسله مصباح الزيت النباتي وفكرت : « ان تلك المرأة المسكينة التي تركها الناس في التراب مثل لعبة مستهلكة قد أثارت تعجب اولئك الذين يستمتعون بالحياة من رغبتها في أن تطيل وجودها . ولكنها الآن في آخر الأمر قد كنستها الأبدية . وأنا لا أعرف أ توجد الروح أم لا توجد ؟ ولكن ، في عالم الفناء هذا ، قد يكون الموت شيئا جميلا بالنسبة الى من لا رغبة له في العيش وبالنسبة الى هؤلاء الذين قد تعبوا من رؤيته امامهم ليعيش . »

وأصغيت بهدوء لأرى هل في امكاني سماع الثلج يتساقط خارج النافذة ؟ وما زلت أتابع سلسلة أفكاري حتى شعرت بأنني أقل اضطرابا .

ومع ذلك فان النتف التي سمعتها أو رأيتها من حياتها قد اندمجت الآن لتؤلف كيانا .

لم تكن هي من أهالي لوتشين بل جاءت بها شتاء احد الاعوام السيدة العجوز وي التي تعمل سمسارة حين ارادت عائلة عمي الرابع تغيير خادمتها . وكان شعرها مربوطا بشرائط بيضاء وكانت ترتدي ثوبا أسود ، وسترة زرقاء ، وصديريا أخضر ، وكانت في نحو السادسة والعشرين لها وجه شاحب ولكن خديها

موردان . وكانت السيدة العجوز وي تسميها زوجة شيانغ لين ، وقالت انها كانت جارة لعائلة أمها ، ولما كان زوجها قد توفي فهي لا تريد ان تبقى باهلة بلا عمل وقد عقد عمي حاجبيه ، ففهمت عمتي في الحال أنه لم يوافق عليها لأنها أرملة . وكانت تبدو لائقة جدا بقدميها ويديها الكبيرتين القويتين ، ومحياها الوديع ، ولم تقل كلمة واحدة بل اظهرت كل امارة على انها مطواعة جلدة على العمل . لهذا لم تعبأ عمتي بتقطيب عمي ، وابقتها . وقد عملت في فترة الاختبار من الصباح حتى الليل ، كأنما ترى الراحة ضجرا ، وكانت قوية جدا حتى كان في وسعها ان تقوم بعمل رجل ، وبالنتيجة ثبتت في اليوم الثالث ، وكان يدفع لها كل شهر خمس مئة درهم .

كان الجميع يسمونها زوجة شيانغ لين . ولم يسألها أحد عن اسمها . ولكن لما قدمتها امرأة من قرية وي قالت انها جارة لها ، فان اسمها وي ايضا على سبيل التخمين . ولم تكن كثيرة الكلام ، فهي لا تجيب الا حين يكلمها الناس . وكانت أجوبتها موجزة . وهكذا لم يمض أقل من عشرة أيام أو ما يقاربها حين عرف الناس شيئا فشيئا ان لها حماة قاسية في البيت لما تزل ، وأخا لزوجها شابا جاوز العاشرة يستطيع قطع الخشب . وقد مات زوجها الذي كان حطابا أيضا في الربيع . وكان أصغر منها بعشر سنين (١) .

---

(١) كان من الشائع المألوف في الصين القديمة في المناطق الريفية ان تتزوج النساء الشابات صبيانا في العاشرة او الحادية عشرة . فيمكن ان تستغل عائلة الزوج عمل العروس .

وهذا الشيء القليل هو كل ما يعرف الناس عنها .

ومرت الأيام سراعا ، وهي تعمل بجد ونشاط متزايدين وكانت لا تبالي ان تأكل أي شيء ، ولا تصد نفسها عن شيء . وقد اتفق الناس جميعا على أن عائلة « لو » قد وجدت خادمة جيدة وهى تنجز أعمالا أكثر مما ينجزها الرجل الكدود في الواقع . وفي نهاية العام كنست ومسحت ، وذبحت الدجاج والاوز ، ومضت تسلق لحم الضحية بمفردها فلم تضطر العائلة الى استئجار من يساعدها . ومع ذلك فقد كانت هي نفسها راضية ، وظهر بالتدريج أثر ابتسامة على طرف ثغرها ، وأصبح وجهها انصع بياضا واكثر امتلاء .

كان العام الجديد قد انقضى منذ وقت قصير حين عادت من غسل الرز الى جانب النهر وهي تبدو شاحبة اللون ، وقالت انها رأت بوضوح على مسافة قريبة منها ، رجلا يتجول في الضفة المقابلة للنهر ، وهو يبدو مثل ابن عم زوجها ، وربما جاء يفتش عنها . وانزعجت عمتي اشد انزعاج ، واستقصت الأمر الا انها لم تحصل على معلومات اخرى . وحالما علم عمي بذلك قطب — وقال : « هذا شيء سيء ، فلا بد من انها قد هربت من عائلة زوجها . »

ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت صحة هذا الاستدلال ، أي هروبها من عائلة زوجها .

وبعد حوالي اسبوعين ، وحين أخذ كل امرىء ينسى ما حدث ، جاءت الينا السيدة العجوز وي فجأة ، ومعها امرأة في

العقد الرابع قالت انها حماة الخادمة ورغم ان المرأة كانت تبدو قروية الا انها تصرفت وهي مالكة زمام نفسها ، وكان لها في رأسها لسان مطواع . وبعد التحية المألوفة المؤدبة اعتذرت لمجيئها وطلب اعادة كنتها الى البيت قائلة ان هناك اعمالا كثيرة ينبغي ان تنجز في بداية الربيع . ولما لم يكن في بيتهم غير المسنين والأطفال فهم في حاجة الى من يعمل .

فقال عمي : « مادامت حماتها تريد ان تعود بها . فماذا نقول ؟ »

وعلى هذا حسب لها أجرها ، فبلغ ألفاً وسبع مئة وخمسين درهما تركته كله مع سيدتها دون ان تأخذ لنفسها فلسا فأعطته عمتي الى حماتها . وأخذت هذه ايضا ثيابها ، وشكرت السيد لو والسيدة لو . وانصرفت . وكان الوقت اذذاك ظهرا .

« أوه ، الرز ! أ لم تذهب زوجة شيانغ لين لغسل الرز ؟ » هتفت عمتي بعد قليل . ولعلها كانت جائعة قليلا فتذكرت الغداء .

وهنا انطلق كل واحد يبحث عن سلة الرز . وذهبت عمتي أولا الى المطبخ ، ثم الى البهو وفي النهاية الى غرفة النوم ، ولكن لا أثر للرز في أي مكان وطلع عمي الى الخارج ، ولكنه لم يستطع العثور عليها ايضا . ولم يرها الا حين ذهب الى ضفة النهر ، فكان هناك على الضفة سلة موضوعة على شكل مربع والى جانبها صرة من الملفوف .

وقد قال له بعض الناس اذذاك ان زورقا ذا ظليلة بيضاء

قد رسا هنا في الصباح . ولكن ! لما كانت الظليلة تغطي الزورق بكامله ، فلم يعرفوا من بداخله . وقبل هذا الحادث لم يلتفت اليه أحد من الناس . غير ان زوجة شيانغ لين حين جاءت لتغسل الرز قفز منه رجلان يبدو أنهما قرويان وأمسكا بها فور ركوعها على ركبتيها وحملاها الى الزورق . وبعد عدة صيحات وصرخات صمتت زوجة شيانغ لين ، فلربما أغلقوا فمها . ثم صعدت امرأتان احداهما غريبة والاخرى هي السيدة العجوز وي . وحين حاول هؤلاء الناس الذين قصوا الحكاية ان ينظروا في الزورق لم يروا بوضوح كثير ، بل كانت تبدو مشدودة الوثاق ملقاة على أرض الزورق .

قال عمي : « يا للخزي ! ولكن . . . »

وفي ذلك اليوم طبخت عمتي الغداء بنفسها ، وأشعل آه نيو ابن عمي النار .

وبعد الغداء عادت السيدة العجوز وي .

« يا للخزي ! » قال عمي .

« ما معنى هذا ؟ كيف تجسرين على المجيء الى هنا ثانية ؟» قالت عمتي وكانت تغسل الصحون ، واخذت تشتم ما ان وقع بصرها عليها : « لقد تكفلتها انت بنفسك ثم تآمرت على اخذها مسببة كل هذا الاضطراب فماذا يظن الناس ؟ هل تحاولين ان تجعلي من عائلتنا اضحوكة للناس ؟ »

« اي يا . كنت مخدوعة حقا ! وقد جئت خصيصى لأوضح هذا الأمر . حين طلبت مني أن أجد لها عملا كيف

كان لي أن أعرف أنها غادرت البيت دون رضى حماتها ؟ انا متأسفة جدا يا سيد لو ويا سيدة لو . لقد آذيت سادتي لأنني عجوز جدا وحمقاء ومهملة . ولكن من حسن حظي ان عائلتكم كريمة جدا ورؤوفة ، انتم لا تحبون ان تقسوا على مرؤوسيكم . وهذه المرة أعدكم بأن أجد لكم خادما طيبة لأكفر عن غلطتي.»

« ولكن . . . » قال عمي .

وعلى هذا النحو انتهت قضية زوجة شيانغ لين ، ونسيت ايضا بعد مرور زمن قصير .

كانت عمتي وحدها غالبا ما تتحدث عن زوجة شيانغ لين ، وذلك لأن الخادمات اللواتي اشتغلن بعد ذلك كن اما كسولات اوولوعات بالسرقة ، او كن كسولات وولوعات بالسرقة معا ، وليس بينهن واحدة طيبة . وفي مثل هذه الأوقات كانت تقول لنفسها دائما : « ليت شعري ماذا جرى لها الآن ؟ » وهي تعني انها ترغب أن تعود اليها . ولكنها هي الاخرى قد فقدت الأمل في العام الجديد التالي .

وكاد عيد العام الجديد ينتهي حين جاءت السيدة العجوز وي لتقدم احتراماتها وهي نصف مخمورة قائلة انها جاءت متأخرة لأنها قد عادت الى قرية وي لزيارة عائلة أمها وبقيت هناك بضعة أيام . وخلال الحديث جاءتا بالطبع الى ذكر زوجة شيانغ لين .

وقالت السيدة وي منشرحة : « هي ؟ هي الآن في توفيق . حين سحبتها حماتها الى البيت كانت قد وعدتها بالابن السادس

لعائلة هوو في قرية هوو ، وهكذا قبل ان ينقضي زمن طويل على وصولها الى البيت اجلسوها على محفة العرس ، وارسلوها . »

صاحت عمتي في دهشة : « اي ياه ! يا لها من حماة ! »

«آه ، ياسيدتي ! انت في الحق تتحدثين بصفتك سيدة عظيمة ! ونحن الريفيات ، النساء المسكينات لا نفكر في شيء من هذا . هي ما يزال لديها أخو زوج شاب لم يتزوج . فلو لم يجدوا لها زوجا فمن اين كان يمكن ان يأتوا بالمال لزفافه ؟ (١) غير ان حماتها امرأة ذكية وقادرة تعرف كيف تعقد صفقة طيبة ، ولهذا زوجتها في الجبال . فلو زوجتها لأحد من نفس القرية لما حصلت على مال كثير . ولكن الراغبات في الزواج من رجل يعيش في اعماق الجبال قليلات وهكذا حصلت على ثمانين الف درهم . والآن تزوج الابن الثاني ، فلم يكلفها زواجه غير خمسين ألف درهم هدايا وبعد ان دفعت مصروفات الزفاف بقي لديها اكثر من عشرة آلاف درهم . فتصوري : أ لا يدل هذا على أنها تعرف كيف تعقد صفقة طيبة ؟ . . . »

« ولكن هل كانت زوجة شيانغ لين راغبة ؟ »

« ليس الموضوع ان تكون راغبة او غير راغبة . بالطبع كل واحد سيحتج . ولكنهم شدوها في حبل ، وحشروها في محفة العرس ، وحملوها الى منزل الرجل ، ووضعوا عليها اكليل العرس . واقاموا الحفلة في القاعة . واغلقوا باب غرفتها من دونها .

---

(١) في الصين القديمة كانت أسرة الرجل تشتري زوجة له ، وذلك لقيمة عمل المرأة الفلاحية .

وهذا كل ما في الأمر . ولكن زوجة شيانغ لين شخصية عجيبة . فقد سمعت انها قد قاومت كثيرا ، وكل الناس قالوا انها مختلفة عن الاخريات لأنها كانت تعمل عند عائلة عالم . ونحن الوسيطات ، يا سيدة ، نرى الشيء الكثير . حين يعاد تزويج الارامل يبكي فريق منهن ، ويصرخ فريق ، ويهدد فريق آخر بالانتحار ، ولا يجتاز فريق منهن آخر مراسيم العرس حين يحمل الى منزل الرجل . بل ان فريقا منهن يحطم شمعدانات العرس . غير ان زوجة شيانغ لين كانت مختلفة عن الاخريات . فقد قالوا انها كانت تصرخ وتلعن طوال الطريق ، وعند ما وصلوا بها الى قرية هووكانت فظة للغاية . وحين سحبوها من المحفة لم يستطع حاملا المحفة ، واخو زوجها الشاب ان يحملوها على اجتياز مراسيم العرس رغم انهم استعملوا كل قواهم . وحين اصابهم الفتور وارخوا قبضتهم عنها — رحماك يا بوذا ! — القت نفسها على طرف المنضدة ، وشج رأسها شجا كبيرا . وتدفق الدم . ولم يستطيعوا وقف النزيف حتى بعد ان استخدموا حفنتين من رماد المباخر وعصبوها بقطعتين من القماش الأحمر . وفي آخر الأمر اضطروا الى ان يتألبوا جميعا فيوصدوا عليها وعلى زوجها باب غرفة العرس بينما كانت هي ماضية في صب اللعنات . آه . هذا مريع حقا ! » وهزت رأسها ، ونكست بصرها ولم تقل شيئا .

سألت عمتي : «وماذا حدث بعد ذلك ؟ »

قالت السيدة العجوز «وي » وهي ترفع عينيها : « قالوا انها في اليوم التالي كانت ما تزال مصرة على عدم النهوض . »

« وبعد ذلك ؟ »

« وبعد ذلك ؟ نهضت . وفي نهاية العام كان لها طفل ، صار له من العمر سنتان في العام الجديد هذا (١) . وفي هذه الايام القليلة التي قضيتها مع أهلي ذهب بعض الناس الى قرية هوو وحين عادوا قالوا انهم رأوها وطفلها . والاثنان قد سمنا . ولم تكن هناك حماة . وكان الرجل شابا قويا يستطيع ان يكسب رزقه ، وبيته ملكه . أجل . . . أجل ! انها في توفيق حقا . »

وبعد هذا اقلعت عمتي عن الكلام حول زوجة شيانغ لين .

ولكن ! في يوم من أيام الخريف بعد مرور عامين جديدين وبعد ان سمعوا كيف كانت زوجة شيانغ لين في توفيق ظهرت هذه فجأة على عتبة بيت عمي . وقد وضعت على المنضدة سلة مدورة مكورة ، وتحت الطنف حزمة صغيرة من الفراش . وكان شعرها ما يزال مربوطا بشرائط بيضاء ، وكانت ترتدي ثوبا اسود ، وسترة زرقاء ، وصديريا اخضر . غير ان وجهها كان شاحبا ، وخديها قد فقدا لونهما الوردي ، وكانت مطرقة بعينيها الى الارض ، ولم تعد عيناها بأشفارهما المبللة بالدمع لامعتين . وقد جاءت بها السيدة العجوز وي كما فعلت في السابق ، وهي تبدو خيرة جدا ، وشرحت لعمتي قصتها بالتفصيل .

« هي في الحق صاعقة هبطت عليها من السماء . لقد كان زوجها قويا جدا ، وما من أحد ظن ان فتى نضرا مثله يموت

(١) كانت العادة في الصين ان يحسب للطفل سنة من العمر ساعة ولادته ، وتضاف له سنة اخرى في العام الجديد .

بحمى التيفوئيد . وفي أول الأمر بدا في تحسن . ثم أكل طاسا من الرز البارد ، وعاوده مرضه . ومن حسن الحظ أن لها ولدا ، وفي وسعها ان تعمل سواء في تكسير الحطب أو اقتطاف اوراق الشاي ، اوتربية دود القز . وقد كانت في اول الأمر قادرة على ان تدير نفسها . ولكن من كان في وسعه ان يعرف ان الولد ايضا سيختطفه ذئب ؟ ورغم ان الربيع شارف على النهاية فقد كانت الذؤبان تفد الى القرية – فكيف يستطيع الانسان حدس ذلك ؟ والآن هي وحيدة بنفسها وقد جاء اخو زوجها ليأخذ البيت ، ويخرجها منه ، فلم يكن من مخرج الا ان تأتي وتطلب المساعدة من سيدتها السابقة . ومن حسن الحظ ان ليس هناك من يصدها هذه المرة ، ويصادف انك تريدين خادمة . لهذا جئت بها الى هنا . وأظن أن شخصا قد تعود عليكم خير من شخص جديد . . . »

ورفعت زوجة شيانغ لين عينيها الفاترتين لتقول : « لقد كنت بليدة حقا . . . حقا . . . لقد كنت لا أعرف الا ان الوحوش في الوهدة ليس لها ما تأكله عندما ينزل الثلج ، وان كثيرا منها يفد الى القرى . ولم أكن أعرف أن في وسعها ان تأتي في الربيع ايضا . وقد نهضت عند الفجر ، وفتحت الباب ، وملأت سلة صغيرة بالفول وناديت ولدي آه ماو ليذهب ويجلس على العتبة ويقشر الفول . وكان طيعا جدا ، يفعل دائما ما أقول له ، فخرج . ثم كسرت الحطب خلف البيت ، وغسلت الرز ، وحين كان الرز في القدر وأردت ان أسلق الفول ناديت آه ماو ، ولكن ما من جواب ، وحين خرجت لأنظر لم أر غير الفول مبعثرا على الأرض .

وآه ماو لم يكن هناك . وهو لم يتعود الذهاب أبداً الى عوائل أخرى ليلعب ففتشت عليه وكنت كلما ذهبت الى مكان للسؤال عنه لم أجد له أثرا . وجزعت ، وتوسلت الى الناس أن يذهبوا ليفتشوا عنه . وبعد الظهر فقط بعد ان فتشوا في كل مكان ، وذهبوا للنظر في الوهدة عثروا على احد خفيه الصغيرين معلقا في عليقة . فقالوا : " هذا شيء مؤلم . لا بد من أنه التقى بذئب . " وتأكد ظنهم حين بعدوا قليلا و رأوه هناك ملقى في وجار ذئب ، وقد اكلت كل أحشائه ، وكانت يده ما زالت ممسكة بالسلة الصغيرة . . . » وعند ذلك اخذت تبكي ، ولم تكن قادرة على أن تكمل الجملة .

وفي أول الأمر كانت عمتي مترددة ، ولكن عند نهاية هذه القصة كانت مآقيها حمراء قليلا . وبعد أن فكرت أخبرتها بأن تأخذ السلة المدورة والفراش الى مسكن الخدم . وتنهدت السيدة العجوز تنهدا طويلا كأنها تخلصت من حمل ثقيل . ولاحت زوجة شيانغ لين أكثر مهارة مما كانت أول مرة ، ودون ان يدلوها على الطريق حملت فراشها بهدوء . ومنذ ذلك الحين كانت تعمل خادمة في لوتشين .

وكان الناس جميعا ما يزالون يدعونها زوجة شيانغ لين .

ولكنها تغيرت تغيرا كبيرا . فلم يمض عليها أكثر من ثلاثة ايام حتى عرف سيدها وسيدتها انها ليست سريعة كما كانت في الماضي ، وكانت ذاكرتها أسوأ بكثير ، ووجهها الجامد لم يظهر عليه أثر ابتسامة . وهكذا أظهرت عمتي نفسها بعيدة

جدا عن الرضا . وكان عمي عند وصول المرأة قد قطب حاجبيه كالسابق الا أنه لم يعترض اعتراضا شديدا لأنهم كانوا يجابهون على الدوام صعوبة في العثور على خادمات ، بيد انه حذرعمتي سرا من أن مثلها قد تثير الشفقة وتظهر تأثيرا خلقيا سيئا . وهكذا بالرغم من عدم وجود ضير في ان تؤدي العمل المألوف فلا ينبغي ان تشترك في التحضير للضحية . وعلى عمتي ان تحضر كل ألوان الطعام بنفسها ، والا فستكون غير نظيفة ، ولا يقبلها الاسلاف .

وأهم حادث في بيت عمي هو ، إعداد ضحية للاسلاف وكان هذا الوقت في السابق هو اشد اوقات زوجة شيانغ لين انشغالا اما الآن فلم يكن عليها غير عمل قليل ، وحين وضعت المائدة وسط القاعة ، وثبتت الستارة كانت ما تزال تذكر كيف تصف الكؤوس ، وآعواد الأكل على الطريقة القديمة .

قالت عمتي في عجل : « يا زوجة شيانغ لين ! اتركيها . سأقوم انا بالعمل . »

فسحبت يدها في خجل ، ومضت لتأخذ أعواد الأكل .

صاحت عمتي في عجل أيضا : « يا زوجة شيانغ لين . ضعيها . سأذهب أنا لإحضارها . »

وهكذا بعد ان دارت عدة مرات دون أن تجد شيئا تفعله ، ماكان في وسعها الا ان تخرج في عجالة . وكل ما قامت به في ذلك اليوم هو ان جلست الى جانب الموقد وتعهدت النار ...

كان الناس في البلدة ما يزالون يدعونها زوجة شيانغ لين ،

ولكن بلهجة تختلف عن السابق ، ورغم أنهم ما زالوا يتكلمون معها الا أنه بطريقة أبرد . وكانت لا تعبأ بذلك أبدا ناظرة امامها ، محدثة كل امرىء عن قصتها التي لم تغرب عن بالها ليل نهار .

وكانت تقول : « لقد كنت بليدة حقا . حقا لقد كنت لا أعرف الا ان الوحوش في الوهدة ليس لها ما تأكله عندما ينزل الثلج ، وان كثيرا منها تفد الى القرى . ولم أكن أعرف ان في وسعها ان تأتي في الربيع ايضا . وقد نهضت عند الفجر ، وفتحت الباب ، وملأت سلة صغيرة بالفول ، وناديت ولدي آه ماو ليذهب ويجلس على العتبة ، ويقشر الفول . وكان طيعا جدا يفعل دائما ما أقول له فخرج . ثم كسرت الحطب خلف البيت ، وغسلت الرز وحين كان الرز في القدر ، وأردت ان أسلق الفول ناديت آه ماو ، ولكن ما من جواب وحين خرجت لأنظر لم أر غير الفول مبعثرا على الارض . وآه ماو لم يكن هناك ، وهو لم يتعود الذهاب ابداً الى عوائل اخرى ليلعب . ففتشت عليه وكنت كلما ذهبت الى مكان للسؤال عنه لم أجد له من أثر . وجزعت وتوسلت الى الناس ان يذهبوا ليفتشوا عنه . وبعد الظهر فقط بعد ان فتشوا في كل مكان ، وذهبوا للنظر في الوهدة عثروا على احد خفيه الصغيرين معلقا في عليقة . فقالوا : " هذا شيء مؤلم . لا بد من انه التقى بذئب . " وتأكد ظنهم حين بعدوا قليلا ورأوه هناك ملقى في وجار ذئب ، وقد اكلت كل أحشائه . وكانت يده مازالت ممسكة بالسلة الصغيرة . . . »

وهنا تأخذ بالبكاء ، ويتلاشى صوتها .

وهذه القصة مؤثرة بعض التأثير . وحين يسمعها الرجال غالبا ما يكفون عن الابتسام ويبتعدون حائرين ، بينما كانت النسوة يعرضن عنها وتتخلى وجوههن في الحال عن نظرة الازدراء ، ويضممن دموعهن الى دموعها . وكان هناك بعض المسنات من النساء اللواتي لم يسمعنها في الشارع ، فكن يذهبن خصيصى للبحث عنها ليسمعن حكايتها الحزينة . وحين كان صوتها يتلاشى ، وتندمج في البكاء كن يشتركن معها ذارفات الدموع التي تجمعت في عيونهن .

ولم تكن تطلب أكثر من أن تقص حكايتها الحزينة مرة بعد اخرى ، جامعة حولها في الغالب ثلاثة مستمعين أو أربعة . ولكن الناس جميعا قد حفظوا الحكاية عن ظهر قلب قبل ان يمر زمن طويل حتى لم يبق في مآقي عيون النساء المسنات اللواتي يخفن بوذا اثرا لدمع يذرفنه . وفي النهاية كان كل امرىء في البلدة تقريبا يسرد حكايتها ، فكان سماعها يضجرهم ويغيظهم .

كانت تبدأ : « لقد كنت بليدة حقا . . . حقا . . . »

وكانوا يقطعون عليها حكايتها في الحال قائلين : « نعم . كنت لا تعرفين الا ان الوحوش في الجبال ليس لها ما تأكله في الطقس المثلج ، وقد تفد الى القرى . » ويبتعدون .

وكانت تقف هناك فاغرة الفم تنظر اليهم مشدوهة ، ثم تمضي ايضا وكأنها هي الاخرى قد أحست بالحيرة . ولكنها تمضي في تفكيرها بالحكاية مؤملة ان يفضي مدار الحديث عن اشياء

اخرى كالسلة الاعتيادية ، والفول واطفال الناس الآخرين الى قصة ابنها آه ماو . واذا رأت طفلا في الثانية او الثالثة كانت تقول : « آه يا عزيزي . لو كان آه ماو حيا الآن لكان كبيرا . . . »

وكان الأطفال حينما يلمحون نظراتها الغريبة يفزعون ويتمسكون بأذيال امهاتهم محاولين الهروب منها . ولذلك كانت تترك وحدها مرة اخرى ، وتسير في آخر الأمر ولهى . وعرف الناس جميعا في الأخير ما تحب . فما ان يحضر طفل حتى يسألوها بابتسامة متصنعة : « يا زوجة شيانغ لين لو كان ابنك آه ماو حيا ، افلا يكون في كبر هذا ؟ »

ولعلها لم تدرك ان حكايتها بعد ان اعيدت مرارا ، وذاقها الناس اياما طويلة قد اصبحت مبتذلة منذ زمن طويل لا تثير غير التقزز والازدراء ، ولكن من الطريقة التي يبتسم فيها الناس يبدو أنها عرفت أنهم كانوا باردين ساخرين ، وان ليس من حاجة لها ان تحكي قصتها بعد الآن . فكانت تنظر اليهم ليس غير ، ولا تجيب بكلمة .

وفي لوتشين يحتفل الناس بالعام الجديد بطريقة كبيرة : كانت تبدأ التحضيرات من اليوم العشرين من الشهر الثاني عشر . وفي هذه المرة رأت عائلة عمي ان من الضروري استئجار خادم موقت . ولكن ! لما كان هناك عمل كثير استدعوا خادمة تسمى ليوما لتساعده . وذبحت الدجاجات والاوز غير ان ليوما كانت امرأة ورعة تعاف أكل اللحم ولا تقتل الكائنات الحية ، فغسلت

اطباق الضحية ليس غير . ولم يكن على زوجة شيانغ لين الا ان تتعهد النار بالوقود . فكانت تجلس هناك مستريحة تراقب ليوما وهي تغسل اطباق الضحية . وبدأ نديف الثلج يهبط قليلا قليلا .

وقالت زوجة شيانغ لين وكأنها تخاطب نفسها وهي تنظر الى السماء وتتنهد : « ويحي ! لقد كنت بليدة حقا . »

قالت ليوما وهي تنظر اليها بنفاد صبر : « يا زوجة شيانغ لين . ها أنت تعودين ثانية ! أنا أسألك عن هذا الجرح الذي على جبينك ألم تصابي به في ذلك الحين ؟ »

اجابت بغموض : « أهو هوه . »

« دعيني أسألك : ما الذي جعلك راغبة قبل كل شيء ؟»

« أنا ؟ »

« نعم . ما أظنه أنا هو أنك لا بد راغبة . والا . . . »

« آه يا عزيزتي أنت لا تعرفين كم كان قويا . »

« لا أصدق ذلك . لا أصدق انه كان قويا الى درجة لا تستطيعين صده . فلا بد من انك كنت راغبة ، وتعتذرين عن ذلك بأنه كان قويا . »

« آه يا عزيزتي . . . حاولي بنفسك واعرفي . » وابتسمت .

وظهرت الابتسامة ايضا على وجه ليوما المجعد الذي تغضن كالجوزة ، ورمقت بعينيها الصغيرتين اللتين هما كخرزتين جبين زوجة شيانغ لين ، ثم ثبتت على عينيها . وتوقفت زوجة شيانغ لين عن الابتسام فجأة وكأنها ارتبكت قليلا ، وتحاشت عينيها ، وتطلعت الى نثار الثلج .

فالت ليوما بغموض : « يا زوجة شيانغ لين ! حقا انها لصفقة خاسرة . فلو كنت قد صمدت أطول ، أو ضربت نفسك حتى الموت لكان ذلك أفضل . أما الآن بعد ان عشت مع زوجك الثاني سنتين على الأقل فانك مذنبة بجرم عظيم . وما عليك الا ان تفكري : حين تذهبين الى العالم الخالد في المستقبل فسيتخاصم شبحا الرجلين عليك . فالى من تذهبين من بينهما ؟ عند ذلك لا يجد ملك الجحيم بدا من ان يشطرك شطرين ويقسمك بينهما . أعتقد حقا . . . »

وارتسم الرعب على وجهها . وهذا شيء لم تسمع به قط وهي في الجبال .

« أعتقد من الأفضل ان تأخذي الحيطة مقدما . اذهبي الى معبد الآله الحارس ، واشتري عتبة تكون بديلا عنك . بحيث يسير عليها الوف من الناس ، ويدوسون فوقها ليكفروا عن ذنوبك في هذه الحياة ، ويجنبوك العذاب بعد الموت . »

ولم تقل زوجة شيانغ لين شيئا في حينه ، ولعلها أضمرت ذلك في قلبها ، لأنها حين نهضت في صباح اليوم التالي كانت تحت عينيها دوائر داكنة . وبعد الفطور ذهبت الى معبد الآله الحارس في نهاية القرية ، وطلبت ان تشتري عتبة . ولم يوافق كهان المعبد اول الأمر . ووافقوا على مضض بعد ان ذرفت الدموع الغزار . وكان الثمن اثني عشر درهما .

مضى زمن طويل منذ ان كفت عن التحدث الى الناس لأن قصة آه ماوقد جوبهت بذلك الازدراء . غير ان خبر حديثها مع

ليوما في ذلك اليوم قد ذاع بين الناس ، وكثير منهم تجددت في نفسه الرغبة فيها ، وعاد يحرضها على الكلام . اما موضوع الكلام فقد تغير لينصب على الجرح في جبينها .

وكان أحدهم يهتف : « يا زوجة شيانغ لين . أسألك : ما الذي جعلك راغبة بعد كل ذلك الزمن . »

وينظر آخر الى ندبتها ويقول موافقا : « يا للخسارة ! ان تكون للانسان هذه الندبة دون شيء . »

ولعلها كانت تعرف من ابتساماتهم ، ولهجة اصواتهم انهم يتفكهون عليها لأنها كانت دائما تنظر اليهم في ثبات دون ان تقول كلمة ، وفي آخر الأمر كانت لا تحرك رأسها اليهم وكانت شفتاها مطبقتين طوال النهار ، وهي تحمل على رأسها الندبة التي كان الجميع يعتبرونها وصمة ، وتتسوق بصمت ، وتكنس الارض ، وتغسل الخضر ، وتعد الرز . ولم تأخذ من عمتي أجورها المتراكمة الا بعد ان انقضى عام ، وبدلتها باثني عشر دينارا فضيا ، واستأذنت بالخروج ، وذهبت الى الطرف الغربي للبلدة . ولكنها عادت بعد وقت أقل مما يستغرقه تناول وجبة واحدة من الطعام . وهي تبدو كثيرة الارتياح ، وفي عينيها نور غير مألوف . وقالت لعمتي وهي سعيدة انها اشترت عتبة من معبد الآله الحارس .

وحين حل موعد اعداد الضحية للاسلاف عند اعتدال الشتاء عملت أشد مما كانت تعمل من قبل . وحين رأت عمتي تخرج اواني الضحية ، وتحمل المائدة مع آه نيو الى وسط القاعة

ذهبت في ثقة لتجلب الكؤوس وأعواد الأكل .

وصاحت عمتي في عجل : « اتركي ذلك يا زوجة شيانغ لين . »

وسحبت يدها وكأنما كويت ، وتحول وجهها بلون الرماد ، وبدلا من ان تجلب الشمعدانات وقفت مدلهة حيرى . ولم تخرج الا بعد ان جاء عمي ليحرق البخور ، وطلب اليها أن تذهب . وفي هذه المرة كان التغير الذي اصابها كبيرا جدا ، ففي الصباح التالي بدت عيناها غائرتين وروحها مهشمة . وفضلا عن ذلك اصبحت خائفة جدا ، تخاف من الظلام والظلال ومن رؤية أي شخص ايضا . وحتى سيدها وسيدتها تجعلانها تبدو خائفة خوف فأر صغير يخرج من جحره في وضح النهار . اما في غير ذلك فكانت تجلس جامدة مثل تمثال من خشب . وفي أقل من عام واحد بدأ شعرها يشيب ، وذاكرتها تزداد سوءا حتى وصلت بها الحال الى أنها كانت تنسى دائما ان تذهب وتعد الرز .

« ما الذي تسلط على زوجة شيانغ لين ؟ كان من الأفضل حقا أن لا نحتفظ بها في ذلك الوقت . » كانت عمتي تقول ذلك في بعض الأحيان بحضورها وكأنها تنذرها .

ومع ذلك فقد بقيت على حالتها . وهكذا كان من المستحيل أن يجد المرء أي أمل في تحسن حالها . ثم قرروا التخلص منها ، واخبارها بأن تذهب الى السيدة العجوز وي . وعندما كنت في لوتشين كانوا يتحدثون عن ذلك ليس غير ، وبعد زمن

اخرجوها ، بيد انني لا أعرف أ أصبحت شحاذة بعد الخروج من بيت عمتي ، ام مضت أولا الى منزل السيدة العجوز وي ، ثم أصبحت شحاذة بعد ذلك .

استيقظت على صوت الالعاب النارية تتفجر بصخب بالقرب مني ، وحينما رأيت وقدة القنديل الزيتي الصفراء بحجم حبة الفول ، وسمعت صخب الالعاب النارية حيث يحتفل بيت عمي من أجل الضحية عرفت ان الفجر يوشك ان يطلع . وشعرت بارتباك وأنا أسمع ، كأنني في حلم ، الصوت الموصول المضطرب الآتي من بعيد ، صوت الالعاب النارية فيلوح كأنه يؤلف سحابة كثيفة واحدة من الضوضاء في السماء ممزوجا بدوامة النثار الثلجي ليلف البلدة كلها . وعندما لفني هذا الخليط من الاصوات ، وارتخيت في ارتياح أزال عني جو الاحتفال الشك الذي كنت نهبه منذ الفجر حتى اوائل الليل ، ولم أشعر الا أن أولياء السماوات والارض قد قبلوا القربان والبخور ، وجميعهم يترنحون من السكر في السماء متهيئين لمنح أهالي لوتشين يمنا لا حد له .

٧ شباط ١٩٢٤

في حانة النبيذ

خلال سفري من الشمال الى الجنوب الشرقي عرجت على بلدتي ، ثم على بلدة « س » . وهذه البلدة تبعد عن بلدتي الأصلية زهاء عشرة أميال . ويمكن الوصول اليها في قارب صغير في أقل من نصف نهار . وكنت قد درست في احدى مدارس « س » عاما واحدا . وفي ذروة الشتاء وبعد سقوط الثلج كان منظر الأرض كئيبا . وقد حملني الكسل والحنين الى الماضي على أن أنزل في نزل « لو سو » زمنا قصيرا وهو نزل لم يكن مبنيا حين كنت هنا في الماضي . وكانت البلدة صغيرة . وقد فتشت على زملاء قدامى ظننت أنني قد أجدهم . ولكن لم يكن هناك أي واحد منهم ، فقد تفرقوا في سبل حياتهم المختلفة منذ زمن طويل . وحين مررت بباب المدرسة التي تغيرت هي الأخرى

في اسمها وفي مظهرها جعلني ذلك أحس بأنني غريب تماما . وفي أقل من ساعتين اثنتين اضمحل حماسي ، وكدت ألوم نفسي على القدوم الى هذه البلدة .

كان النزل الذي أقيم فيه يؤجر الحجرات ولكنه لا يقدم الطعام ، ويمكن طلب الرز والاطعمة الاخرى من الخارج ، ولكنها كانت غير سائغة تماما ، وكان طعمها مثل طعم الطين . ولم يكن خارج النافذة غير جدار ذي لطخات وبقع مغطى بالطحلب الذابل . ومن فوق كانت السماء الرمادية تبدو شاحبة كئيبة خالية من كل لون . وزاد الطين بلة أن نثارا من الثلج بدأ يتساقط . وتناولت في أول الأمر غداء فقيرا ، ولم يكن عندي شيء أزجي فيه الوقت ، فكان طبيعيا أن فكرت في حانة صغيرة للنبيذ كنت أعرفها جيدا في الايام السالفة تسمى « بيت البرميل الواحد » ليست – على ما ظننت – بعيدة عن الفندق . وفي الحال اغلقت باب غرفتي ومضيت الى تلك الحانة . وكنت كل ما أبغيه في الواقع هو الهروب من ضجر اقامتي . ولم أكن في الواقع راغبا في الشراب . وكانت حانة « بيت البرميل الواحد » ما زالت هناك لم تتغير واجهتها الضيقة المتأكلة ، ولا رقعتها الخربة . ولكن لم أجد أحدا أعرفه فيها من صاحبها فنازلا حتى ساقيها – وفي حانة « بيت البرميل الواحد » أيضا أصبحت غريبا تماما . ومع ذلك فقد ارتقيت سلمها المستقيم في ركن الغرفة الى الطابق العلوي الصغير وكانت هناك نفس الموائد الخشبية الصغيرة الخمس السابقة . ولم يتغير منها شيء الا الشباك الخلفي الذي كان في الأصل

شبيبيكا خشبياً فقد تغير اذ ركبت فيه الواح زجاجية .

« رطل من النبيذ الأصفر . طعام قطع اللوبياء المخثرة مع مزيد من ماء الفلفل المتبل . »

وبعد أن اعطيت الطلب للساقي الذي صعد معي الى فوق ، قصدت النافذة الخلفية وجلست الى مائدة بجانبها . وكانت الغرفة العليا خالية تماما فمكنني ذلك من أن أشغل أحسن مقعد أستطيع من عليه أن اتطلع الى الباحة الخلفية المهجورة . ولعل الباحة لا تعود الى حانة النبيذ ، وقد نظرت فيها مرات كثيرة في الماضي ، وفي الجو المثلج في بعض الاحيان . ولكن المنظر الآن بالنسبة لعينين ألفتا الشمال كان أخاذا جدا ، فان عددا من أشجار الخوخ القديمة قد تفتحت زهراتها تفتحاً تاما رغم الثلج وكأنها ساهية عن الشتاء تماما ، بينما كان الى جانب الايوان المحطم ما تزال تقف نبتة كاميليا وعليها عدد من الازهار القرمزية واضحة بخضرتها الكثيفة القاتمة ، متوهجة في الثلج ساطعة كالنار شامخة الانف غضوبا كأنها تزدري تسكع المتسكعين . وفجأة تذكرت نداوة الثلج المكوم هنا متماسكا متلألئا مشرقا خلافا لثلج الشمال الجاف الذي يتطاير حين تهب ريح عالية ، ويملأ السماء كالضباب .

« نبيذك يا سيدي . . . » قال الساقي بفتور ووضع القدح واعواد الأكل ، وزجاجة النبيذ ، والطعام . لقد حضر النبيذ ، وتوجهت الى المائدة ، ورتبت كل شيء ، وملأت قدحي . وشعرت بأن الشمال ليس موطني بالتأكيد ومع ذلك حين آتي الى

الجنوب أعد غريبا . وبدا الثلج الجاف الذي يتطاير كالذر هناك ، والثلج الرخو الذي يلتصق طويلا هنا متساويين بغرابتهما علي . ورشفت رشفة من النبيذ على مهل وأنا في حال من الحزن الخفيف وكان النبيذ صافيا للغاية ، واللوبياء المخثرة مطبوخة طبخا ممتازا . والعيب الوحيد الذي يثير الاسف هو أن ماء الفلفل المتبّل لم يكن كثيفا جدا . غير أن اهالي « س » لم يفهموا قط الطعوم الحادة .

ولعل السبب في أن المكان لم يكن له مظهر حانة هو أن الوقت كان بعد الظهر . وقد شربت ثلاثة أقداح من النبيذ . وكانت هناك لما تزل اربع موائد خشبية فارغة في المكان . وعندما كنت أتطلع الى الباحة المهجورة بدأت أشعر بالوحدة . ومع ذلك فلم أرد أن يأتي أحد من الرواد . وهكذا لم أتمالك نفسي من ان تتضايق كلما سمعت وقع اقدام على السلم بين حين وآخر ، وكنت أتنفس الصعداء حين أجد أن ليس هناك من أحد غير الساقي . وهكذا شربت قدحين آخرين من النبيذ .

وفكرت وأنا أسمع وقع أقدام أبطأ بكثير من وقع اقدام الساقي « في هذه المرة لا بد من أن يكون القادم زائراً . » وحين حدست بأنه أصبح في اعلى الدرج رفعت رأسي في شيء من التوجس لأنظر الى ذلك الزائر الجديد . ثم اعترتني هزة ، ووقفت. فما دار في خلدي أنني سألتقي في هذا المكان بالذات ودون توقع ، بصديق — اذا كان مايزال يسمح لي بتسميته هكذا . لقد كان القادم الجديد زميل دراسة قديما زاملني عندما كنت معلما . ورغم أنه قد تغير كثيراً فقد عرفته ساعة رأيته ، بيد أنه

أصبح بطيء الحركات ليس غير . يختلف كثيرا عن «لو وي فو» ذلك الزميل الخفيف الحركة النشيط .

« آه ! وي فو ، أهذا أنت ؟ لم أتوقع ابدا أن التقي بك هنا . »

« آه . هذا أنت ؟ ولا أنا كنت . . . »

والححت عليه بأن ينضم الي ، وبعد تردد بدا راغبا في الجلوس ، وفي بادىء الامر حسبت ذلك غريبا جدا ، وشعرت بأنني قد جرحت وتكورت . والمرء حين ينظر اليه عن قرب يجد أنه لا يزال له ذلك الشعر النافر ، واللحية والوجه البيضي غير أنه كان أشد نحافة وأوهن كيانا . وبدا هادئا جدا وربما كان مغموما ، وقد فقدت عيناه تحت حاجبيه الكثيفين خفتيهما ولكنه حين نظر بتثاقل نحو الباحة المهجورة برقت عيناه بتلك النظرات الثاقبات التي غالبا ما رأيتهن في المدرسة .

قلت بفرح ولكن بشيء من الحرج : « آه لم يرأحدنا الآخر منذ زهاء عشر سنوات . وقد سمعت منذ زمن بعيد أنك كنت في تسينان . ولكن كنت كسلان على نحو بائس بحيث لم أكتب . . . »

« أنا كما كنت من قبل . وأنا في تاي يوان منذ أكثر من عامين مع أمي . وحين عدت لآخذها علمت أنك قد غادرتها نهائيا . »

سألته : « ماذا تفعل في تاي يوان ؟ »

« أدرس ابناء عائلة زميل من المقاطعة . »

« وقبل ذلك ؟ »

« قبل ذلك ؟ » وتناول لفافة من جيبه ، وأشعلها ووضعها في فمه ، ثم أخذ يراقب الدخان الذي نفخه ، وقال في تفكير : « عمل عقيم ليس غير ، شبيه بأن لم أفعل شيئا . »

كما سألني هو عما حدث لي منذ ان افترقنا . فأعطيته فكرة أولية ، وفي نفس الوقت دعوت الساقي ليأتي بقدح واعواد أكل حتى يشاركني نبيذي حيث كان لنا رطلان آخران يدفئان . وطلب هو طعاما . وفي الماضي لم تكن بيننا كلفة قط ، أما الآن فقد بدأنا بالشكليات ولم يختر أي واحد منا طبقا . وفي النهاية وقعنا على أربعة اطباق اختارها لنا الساقي : حمص متّبل باليانسون ، ولحم بارد ولوبياء مخثرة مقلية وسمك مملح .

وتحدث بابتسامة مريرة وهو يمسك لفافته بيد ، ويرفع القدح بالأخرى ثم قال : « ما ان عدت حتى علمت أنني كنت أحمق . حين كنت شابا كنت أرى كيف يقف النحل او الذباب في مكان واحد . فاذا خافت نحلة أو ذبابة طارت ولكنها بعد أن تدور دورة صغيرة تعود ثانية لتقف في نفس المكان . وظننت ذلك حماقة شديدة حقا ، كما هي بلادة أيضا . ولكنني لم أكن أظن أنني أعود نفسي أنا ثانية بعد أن درت دورة صغيرة ليس غير كما أنني لم أظن أنك ستأتي أيضا . ألم يكن في وسعك أن تطير أبعد ؟ »

وتحدثت وأنا أبتسم ابتسامة مريرة أيضا : « ذلك من الصعب قوله . فلعلي أيضا قد درت دورة صغيرة . ولكن لماذا عدت أنت ؟ »

وأفرغ قدحه بجرعة واحدة ، ثم سحب عدة أنفاس من لفافته ، وفتح عينيه باتساع قليل ، وقال : « عبث — ولكن يمكنك أن تسمع عنه أيضا . »

وجاء الساقي بالنبيذ المدفأ حديثا ، وأطباق الطعام ، ووضعها على المائدة . وبدا الدخان ورائحة اللوبياء المخثرة المقلية كانما يجعلان الغرفة العليا أكثر حياة بينما كان الثلج ما يزال يتساقط في الخارج كثيفا .

ومضى يقول : « لعلك قد عرفت أن كان لي أخ صغير مات وهو في الثالثة ودفن هنا في الريف وأنا لا أتذكر صورته بوضوح . ولكن سمعت امي تقول انه كان طفلا محبوبا ، وشغوفا جدا بي . وحتى الآن تدمع عيناها حين تتحدث عنه . وفي هذا الربيع كتب لنا ابن عم كبير يخبرنا أن الارض الى جانب قبره اخذ يغمرها الماء بالتدريج ، وهو يخاف أن تنزلق الى النهر بعد وقت قصير ؛ وعلينا ان نذهب في الحال ، ونفعل شيئا بهذا الصدد . وما ان علمت امي بذلك حتى اضطربت غاية الاضطراب ولم تستطع النوم في عدة ليالي — وهي تستطيع ان تقرأ الرسالة بنفسها كما تعلم . ولكن ماذا يمكن ان أفعل أنا ، وليس لي مال ولا وقت . وما في اليد حيلة .

«والآن فقط تمكنت ان أنتهز فرصة اجازتي للعام الجديد وتيسر لي المجيء الى الجنوب لأنقل قبره . » وشرب قدحا آخر من النبيذ وتطلع من الشباك وهتف : « هل تستطيع أن تجد شيئا مثل هذا في الشمال ؟ ! ازهار في الثلج الكثيف ، والأرض لا

تتجمد تحت الثلج . » ثم استمر يقول : « اشتريت يوم امس تابوتا صغيرا لأنني ظننت بأن الانسان تحت التراب لا بد من أنه تعفن منذ زمن طويل . واخذت القطن والفراش ، واستأجرت أربعة عمال ، وذهبت الى الريف لأنقل قبره . وفي حينه شعرت بأنني سعيد جدا ، وكنت متلهفا لأحفر القبر ، ومتهفا لأن أرى فيه جسد أخي الصغير الذي كان شغوفا بي كثيراً وهذا احساس آخر لي وحين وصلنا الى القبر ، كانت مياه النهر قد أصبحت قريبة من الضريح بما لا يقل عن قدمين ، وكان القبر المسكين لم تضف اليه أية كمية من التراب خلال سنتين فانخسف . ووقفت في الثلج ، وأشرت الى القبر وقلت للعمال بثبات : " احفروا ! "

« انا في الواقع رجل بسيط . احسست بأن صوتي في تلك اللحظة غير طبيعي قليلا وأن هذا الامر هو اعظم أمر أصدره في حياتي كلها . ولكن العمال لم يجدوه غريبا على الاطلاق ، ومضوا يحفرون ببساطة . وحين وصلوا الى الحظيرة القيت نظرة ، فرأيت خشب التابوت قد تأكل كليا تقريبا ولم يبق غير ركام من الشظايا وقطع الخشب الصغيرة . وأسرعت دقات قلبي ، ورفعت هذه جانبا بعناية شديدة ، وأنا أريد أن أرى أخي الصغير . ومع ذلك فقد أخذتني الدهشة . ان الفراش والثياب والهيكل قد عفيت كلها ؛ ففكرت : كل هذه قد عفا عليها البلى ولكنني سمعت بأن الشعر هو أكثر المواد مقاومة للبلى . فربما تبقى قليل من الشعر . فانحنيت ونظرت بدقة الى الطين في المكان الذي ينبغي أن تكون الوسادة فيه . ولكن ما من شيء ولم يبق أي اثر . »

وفجأة لاحظت أن اشفار عينيه أصبحت حمراء قليلا ، ولكنني ادركت في الحال ان ذلك من تأثير الخمرة . وكان لا يمس الطعام الا قليلا ، بينما كان يحتسي الخمرة دون انقطاع . فشرب أكثر من رطل واحد ، وصارت نظراته وايماءاته أكثر حيوية وهي تمثل بالتدريج لو وي فو الذي عرفته من قبل . ودعوت الساقي ليدفيء مكيالين آخرين من النبيذ ، ثم عدت اليه وتناولت قدح النبيذ ووجها الى وجه أصغيت بصمت الى ما قصه :

« في الواقع لم تكن ثمة حاجة الى نقله ثانية . فليس علي الا أن أسوي الأرض ، وأبيع التابوت ، وينتهي الأمر . ورغم أن ذهابي لبيع التابوت فيه شيء من الغرابة ، الا ان المحل الذي اشتريت منه التابوت سيأخذه مني بثمن واطيء حين أعرضه ، ويكون في وسعي على الاقل توفير شيء من الفلوس للشراب . ولكنني لم افعل ذلك ، بل بسطت الفراش ، ولففت بالقطن بعض الطين من المكان الذي كان يرقد فيه جسده ، ونقلته الى القبر الذي دفن فيه أبي ، ودفنته بجانبه . ولما كنت قد استعملت الآجر لصنع حظيرة للتابوت فقد انشغلت طوال يوم أمس ثانية وأنا اشرف على العمل . ولكنني بهذه الطريقة عددت الأمر منتهيا ، على الأقل لخداع أمي ، وتطمين خاطرها . أجل . أجل . أنت تنظر الي هكذا ! هل تلومني على اني تغيرت على هذا النحو ؟ نعم ! أنا ما ازال اتذكر حين ذهبنا معا الى معبد الآله الحارس لخلع صور اللحى ، وكيف كنا نتناقش طوال

اليوم في طرق جعل الصين ثورية حتى كنا نتبادل الضربات . ولكنني الآن على هذا النحو راغب في أن اجعل الأمور تمضي كما تشاء وفي بعض الاحيان أفكر : لو رآني اصدقائي القدامى الآن فلعلهم يكفون عن أن يعترفوا بي صديقا لهم . وهذا ما أنا عليه الآن . »

وتناول لفافة أخرى ، ووضعها في فمه وأشعلها .

ثم قال : « ومن سيمائك يبدو أنك ما تزال تملك بعض الأمل في . طبيعي أنني أكثر فدامة من ذي قبل ، ولكنني ما أزال ادرك بعض الاشياء . وذلك يجعلني ممتنا لك ، وغير مرتاح قليلا في نفس الوقت . وأنا أخشى أن أخيب ظن اصدقائي القدامى الذين ما زال لهم بعض الأمل في . . . » وتوقف وامتص بعض الانفاس من لفافته قبل أن يمضي في القول ببطء : « واليوم فقط قبل أن آتي الى حانة ” بيت البرميل الواحد “ قمت بعمل عقيم . ومع ذلك فقد كنت مسرورا في القيام به . ان جاري السابق في الجانب الشرقي يدعى تشانغ فو . وهو نوتي له ابنة اسمها آه شون . وقد يكون بصرك قد وقع عليها حين كنت تأتي الى بيتي في الأيام السالفة ، ولكنك بالتأكيد لم تعرها أي اهتمام لأنها كانت صغيرة آنذاك ، وهي ليست جميلة حين كبرت ، بل لها وجه بيضي نحيل وبشرة شاحبة . وعيناها كبيرتان على نحو غير مألوف لها اهداب طويلة ، وبياضهما صاف كسماء ليلة لا غيوم فيها — وأنا اقصد سماء الشمال الخالية من الغيوم حين لا تهب ريح ؛ فهنا ليست

صافية جدا . وهذه الفتاة قديرة فقدت أمها حين كانت في عقدها الثاني ، وكان عملها أن ترعى أخا صغيرا واختا ؛ كما كان عليها أن تنتظر اباها كل ذلك كانت تقوم به في اقتدار كبير. وهي مدبرة أيضا ، وهكذا تحسنت احوال العائلة بالتدريج . ومن النادر ان تجد جارا لها لا يمدحها ، وحتى تشانغ فوغالبا ما يعبر عن تقديره لها . وحين كنت خارجا في رحلتي هذه تذكرتها أمي — وذاكرة الذين تقدمت بهم السن قوية جدا — وتذكرت أن آه شون كانت قد رأت في الماضي امرأة تضع ازهارا حمراء اصطناعية في شعرها ، فأرادت غصينالها . وحين لم تحصل عليه بكت الليل بطوله تقريبا ، لهذا ضربها ابوها ، وبقيت عيناها حمراوين متورمتين ليومين أو ثلاثة ايام . وهذه الازهار الحمراء كانت من مقاطعة أخرى ، ولا يمكن شراؤها حتى في « س » —لهذا فكيف يمكن أن تأمل في الحصول على واحدة ؟ ولما كنت ذاهبا الى الجنوب في هذه المرة فقد اوصتني أمي بأن اشتري غصنين وأعطيهما لها .

« ولم أشعر بالكدر من هذه المهمة ، بل سررت في الواقع . فقد كنت فرحا حقا في أن افعل شيئا لآه شون . وفي السنة التي سبقت السنة الماضية عدت لآخذ أمي ، وذات يوم حين كان تشانغ فو في البيت حدث أن اخذت أتجاذب اطراف الحديث معه . وأراد أن يدعوني لتناول صحن من العصيدة المصنوعة من طحين الحنطة السوداء قائلا انهم اضافوا اليها سكرا أبيض . انظر ! ان نوتيا يستطيع ان يحتفظ في بيته بسكر

أبيض ليس فقيرا في الظاهر ، ولا بد من أنه يأكل جيدا . واقتنعت وقبلت ، ولكنني رغبت أن يعطوني صحنا صغيرا فقط . وفهم تماما ، وقال لآه شون : « ان هؤلاء العلماء ليست لهم شهية . وفي امكانك ان تصبي في صحن صغير ، ولكن أضيفي اليه مزيدا من السكر ! » ومع ذلك فحين أعدت الصحن وجاءت به انتفضت ، لأنه كان صحنا كبيرا ، قدرما آكله اليوم بكامله . ولكن اذا ما قورن في صحن تشانغ فولاح صغيرا في الواقع . وفي حياتي كلها لم آكل مثل تلك العصيدة من الحنطة السوداء . والآن ذقتها . انها في الحق لا مثيل لها ، رغم أنها حلوة للغاية . وازدردت بعض اللقم دون اهتمام ، وقررت أن لا آكل أكثر حين وقع بصري على آه شون تقف على بعد في أحد أركان الغرفة . واذذاك لم يطاوعني قلبي على أن أضع اعواد الأكل . فقد رأيت في وجهها الأمل والخوف معا — الخوف ، دون شك ، من أن تكون قد أعدتها بصورة سيئة ، والأمل في أن تعجبنا . وعرفت أنني لو تركت معظم ما في صحني فستشعر بالخيبة والاعتذار . لهذا شددت على شجاعتي ، وفتحت فمي على وسعه ، وأخذت آكل بالسرعة التي يأكل فيها تشانغ فو تقريبا . واذذاك عرفت عذاب ارغام النفس على الأكل ؛ وتذكرت أيام كنت طفلا ، وكان علي ان آتي على صحن من السكر الاسمر ممزوجا بدواء للديدان فقد مررت بنفس المشقة . ومع ذلك فلم أشعر بامتعاض لأن ابتسامة الرضا التي كظمت نصفها حين جاءت لتأخذ صحنينا الفارغين عوضتني بسخاء عن كل انزعاجي . لهذا

فرغم أن عسر الهضم قد نفى النوم المريح عني في تلك الليلة ، فقد نزلت علي سلسلة من الكوابيس — ورجوت لها عمرا من السعادة ، ورجوت أن تتحسن امور الدنيا من اجل خاطرها . ولكن تلك الافكار لم تكن الا آثارا لأحلامي في الأيام الخوالي . ففي اللحظة الثانية ضحكت من نفسي ، ونسيتها في الحال .

« ولم أكن اعرف من قبل انها ضربت من أجل غصين من الازهار الاصطناعية ، ولكن حين تحدثت أمي عن ذلك تذكرت حادثة عصيدة الحنطة السوداء ، وأصبحت متحمسا على نحو غريب . وفي الأول بحثت في تاي يوان عن غصين من الازهار الاصطناعية ولكن لم اجد ضالتي في أي دكان . ولم أعثر على ذلك الا حين ذهبت الى تسينان . . . »

وحدثت خارج الشباك خشخشة حين انزلقت كومة من الثلج من على الكاميليا التي كانت ترزح تحت ثقلها ؛ واذذاك رفعت أغصان الشجرة هاماتها ، مظهرة بوضوح أشد خضرتها الكثيفة القائمة ، وازهارها الحمراء كالدم . وصار لون السماء أكثر رمادية . وزغردت العصافير الصغيرة لأن المساء قد دنا . ولما كانت الارض مغطاة بالثلج ، فلم يكن في ميسورها أن تجد شيئا تأكله ، وعادت لتنام في اعشاشها مبكرة .

وتطلع من الشباك ، ثم ادار وجهه واحتسى قدحا من النبيذ ، ومص انفاسا من لفافته ، ومضى يقول :

« ولم يكن ذلك الا حين ذهبت الى تسينان . فعند ذاك فقط اشتريت الازهار الاصطناعية . ولم أعرف أكانت تلك الأزهار

التي ضربت من أجلها من هذا النوع أم لا . ولكن هذه على كل حال مصنوعة أيضا من المخمل . ولم أكن أعرف أ تحب لونا قاتما أم فاتحا . واشتريت غصينا أحمر ، وآخر ورديا . وجئت بهما الى هنا .

« وبعد ظهر هذا اليوم بالذات ، عندما انتهيت من الغداء ذهبت لرؤية تشانغ فو ، وقد تأخرت يوما آخر خصيصى لذلك . وكان البيت هناك لما يزل ، ولكنه كان يبدو أكثر جهامة ، أولعل ذلك محض تخيل لي . وكان ابنه وابنته الثانية — آه تشاو — واقفين امام الباب . وقد كبرا ثناهما . وكانت آه تشاو تختلف كثيرا عن أختها فهي بسيطة ، ولكنها حين رأتني مقبلا هرعت مهرولة الى الداخل . وحين سألت الولد الصغير عرفت ان تشانغ فو ليس في البيت " وأختك الكبرى ؟ " وفي الحال حملق بي وسألني ماذا تريد منها . وفضلا عن ذلك كان شديد القسوة . كأنه يريد أن يهجم علي . وابتعدت بتردد . فأنا في هذه الايام أطلق العنان للأمور تجري حسب ما تشاء . . .

« ربما ليست لديك فكرة عن اشتداد خوفي من زيارة الناس أكثر من السابق . لأنني اعرف جيدا كم أنا غير مرغوب فيه . بل وصلت بي الحال الى أن كرهت نفسي ، ولما كنت اعرف ذلك فلماذا افرض نفسي على الآخرين ولكنني في هذه المرة شعرت بأن مهمتي يجب أن تنجز . ولهذا بعد أن فكرت قليلا عدت الى مخزن الحطب المقابل تقريبا لبيتهم . ولعل أم صاحب الدكان السيدة العجوز "فا" هناك على الأقل ، وهي ما تزال تتذكرني .

وعند ما رأتني سألتني أن ادخل المخزن وأجلس . وبعد تبادل العبارات المؤدبة أخبرتها عن السبب في مجيئي الى « س » — وأنني أبحث عن تشانغ فو . وقد ذهلت حين أرسلت زفرة وقالت :

"وا أسفاه ، فليس لآه شون الحظ السعيد لتفرح بهذه الازهار التي جلبتها لها ."

« ثم قصت علي القصة كلها قائلة : "لعل ذلك كان في الربيع الماضي حين أخذت آه شون تبدو شاحبة اللون نحيلة . وفيما بعد كانت غالبا ما تبكي بغتة ، وحين تسأل عن السبب لا تخبر عن أي شيء . وفي بعض الاحيان كانت تبكي طوال الليل ؛ تبكي حتى لا يتمالك تشانغ فو نفسه فيوبخها ، قائلا انها قد انتظرت الزواج طويلا حتى جنت . ولكن حين حل الخريف أصيبت ببرد بسيط في بادىء الأمر ، وحملت الى فراشها ولم تنهض منه ثانية . وقالت لتشانغ فو قبل موتها ببضعة ايام إنها منذ زمن طويل أصبحت مثل امها ، غالبا ما تبصق دما ، وتتصبب عرقا في الليل . ولكنها اخفت ذلك مخافة أن يقلق من اجلها . وذات مساء جاء عمها تشانغ كنغ يطلب فلوسا — وكان دائما يفعل ذلك — ولكنها لم تعطه شيئا فابتسم ببرود وقال : لا يأخذك الزهو على هذا النحو ، ان فتاك ليس على شاكلتي . وقد أقلقها ذلك ، ولكنها كانت أخجل من أن تسأل بل لم تملك الا البكاء . وحالما سمع تشانغ فو بذلك قال لها أي فتى أريب كان زوجها المنتظر ، ولكن فات الاوان . ومع ذلك فلم تصدقه قائلة : شيء حسن أن أكون على ما أنا عليه في الوقت الحاضر والآن لم

يعد يهم أي شيء .

« وقالت العجوز أيضا : "لو أن فتاها كان مكروها اكثر من تشانغ كنغ فذلك شيء مرعب حقا ، واذا كان اشقى من سارق دجاج ، فأي ضرب من الفتيان سيكون هذا ! ولكنه حين جاء الى الجنازة رأيته بعيني هاتين : كانت ثيابه نظيفة ، وكان هو بديع الطلعة جدا . وقد قال والدموع في عينيه انه اشتغل بعناء طوال هذه السنوات في القارب ليدخر مالا ويتزوج . ولكن الفتاة قد ماتت الآن . والظاهر أنه كان فتى طيبا حقا ، وكل ما قاله تشانغ كنغ كذبا . ومن المؤلم أن آه شون قد صدقت مفتريا محتالا . وماتت للاشيء . ولكننا لا يمكن ان نلوم احدا آخر ، لقد كان ذلك نصيب آه شون . "

« ولما كانت الحال على هذا النحو فقد انتهت مهمتي ايضا . ولكن ماذا عن غصين الازهار الاصطناعية التي جلبتها معي ؟ حسنا ، طلبت منها أن تعطيها الى آه تشاو . وهذه آه تشاو ما ان رأتني حتى فرت فكأنما أنا ذئب أو هولة . والحق أنني لم أرد ان اعطيها لها . وعلى أية حال اعطيتها لها ، وما عليّ الا ان اقول لأمي ان آه شون كانت فرحة بها . وهذا كل ما في الأمر . فمن يهتم بهذه الأمور العقيمة ؟ إن المرء لا يريد أن يعكر صفوه بها بشكل من الاشكال . فبعد انقضاء العام الجديد سأعود ثانية الى تدريس المؤلفات الكونفوشيوسية الكلاسيكية كما كنت افعل من قبل . »

سألت في دهشة : « هل انت تدرس هذه ؟ »

« بالطبع . هل تحسب أنني كنت أدرس الانكليزية ؟في بادىء الأمر كان لي تلميذان ، واحد يدرس كتاب الاغاني والآخر منشويوس . وفي المدة الأخيرة حصلت على تلميذ آخر ، فتاة ، تدرس في كتاب قانون للفتيات . (١) أنا لا أدرس حتى الحساب ، لا لأنني لااستطيع تدريسه ، بل لأن الناس لا يريدون دراسته . »

« لا أقدر حقا ان أظن أنك ستدرس مثل هذه الكتب . »

« آباؤهم يريدون تدريسهم هذه الكتب . وأنا شخص غريب ، ولهذا فلا فرق عندي . فمن يهتم بهذه الأمور العقيمة على اية حال ؟ لا حاجة الى آن تؤخذ مأخذا جديا . »

وكان وجهه كله قرمزيا كأنه قد سكر كليا ، غير أن بريق عينيه قد ذهب . وأرسلت زفرة صغيرة ، ولبرهة من الزمن لم أجد شيئا اقوله . وكانت هناك قرقعة على الدرج فقد صعد زوار جدد . وكان الأول قصيرا ذا وجه مدور منتفخ ، ولكن الثاني كان طويلا ذا أنف ظاهر أحمر . ووراءهما آخرون . وحين كانوا يسيرون احسست بالطابق العلوي الصغير يهتز . وتحولت الى لو وي فو وقد حاول أن يحدق في عيني ؛ ثم دعوت الساقي ليقدم الحساب .

وسألته وأنا اتهيأ للخروج : « هل راتبك يكفي لمعيشتك ؟ »

« أحصل على عشرين دينارا في الشهر ، ليست كافية تماما لتدبير الحال . »

---

(١) كتاب يعطي النموذج الاقطاعي لسلوك الفتيات ، والفضائل التي ينبغي ان يتمتعن بها .

« اذن ماذا تنوي ان تفعل في المستقبل ؟ »

« في المستقبل ؟ لا أدري . وما عليك الا ان تفكر : هل سار أي أمر من الامور حسب ما رجونا ورسمنا في الماضي ؟ أنا الآن غير مرتاح من أي شيء ، حتى مما سأفعله في غد ، ولا في اللحظة التالية . . . »

وجاء الساقي بقائمة الحساب وأعطاها لي . ولم يتمسك وي‌فو بالرسميات كما كان يفعل من قبل ، بل ما كان منه الا أن رمقني ثم مضى يدخن ، وتركني أدفع الحساب .

وخرجنا من حانة النبيذ معا . وكان فندقه يقع في الاتجاه المعاكس لفندقي ، ولهذا توادعنا عند الباب . وسرت وحدي نحو فندقي ، وكانت العاصفة الباردة وقطع الثلج تضرب وجهي . ولكنني احسست بانتعاش . ورأيت السماء قد أظلمت محبوكة مع البيوت والشوارع بنسيج الثلج الكثيف الأبيض المتنقل .

١٦ شباط ١٩٢٤

عائلة سعيدة

– على غرار اسلوب شو تشنغ ون (١)

« . . . يكتب الانسان ببساطة كما يشعر ؛ ومثل هذا العمل كمثل ضوء الشمس يشع من ينبوع لا نهائي للاشراق . وليس كنار موقدة من حجر يقدح بحديد أو صخر . وذلك وحده هو الفن الحقيقي ، ومثل هذا الكاتب وحده متفنن حقيقي . . . ولكن أنا . . . في أي صف أنتظم ؟ »

وبعد ما أوغل في تفكيره قفز فجأة من سريره . فقد خطر له أن عليه أن يكسب بعض المال ليعول عائلته ، وعزم عزما قاطعا على أن يرسل مسوداته الى ناشري مجلة « السعادة » الشهرية

(١) روائي معاصر للوشين . وقد أعلن المؤلف أنه كتب هذه القصة على نموذج قصة « زميل مثالي » لشو تشنغ ون .

لأن مكافأتها بدت سخية بالنسبة لغيرها . ولكن في هذه الحال يكون اختيار الموضوعات محدودا ، ومن المحتمل أن ترفض مسوداتي اذا لم توافق خطة المجلة . حسنا ، ليكن محدودا . فأي المشاكل الرئيسة التي تشغل اذهان الجيل الجديد ؟ . . . ما من شك أنها ليست قليلة . ولعل كثيرا منها يتعلق بالحب والزواج والعائلة . . . أجل ، هناك كثير من الناس تربكهم مثل هذه المشاكل وحتى الآن يتناقشون فيها . وفي هذه الحال سأكتب عن العائلة ! ولكن كيف أكتب ؟ . . . ربما لا تقبل كتابتي ولكن لماذا التنبؤ بكل شيء منحوس ؟ . . . ما زال . . .

وقفز من سريره ، وفي أربع أو خمس خطوات وصل الى المكتب ، وجلس ، وتناول ورقة مخططة بخطوط خضراء . وبعجالة وبتردد أيضا كتب العنوان : عائلة سعيدة .

وتوقف قلمه فجأة . ورفع رأسه ، وتثبتت عيناه كلتاهما في السقف محاولا أن يقرر بيئة لهذه العائلة السعيدة .

فكر : « بكين ؟ هذا لا يناسب . انها ميتة تماما . وحتى الجو فيها ميت . وحتى اذا أقيم حول هذه العائلة سور عال فمن المتعذر تقريبا فصل الهواء . لا . ذلك لا يليق أبدا . كيانغسو وتسيكيانغ قد تبدأ الحرب بهما في أي يوم . وفوكيان خارجة عن الصدد . سيتشوان ؟ كوانغتونغ ؟ انهما في قلب القتال (١) . وماذا عن شانتونغ أو خانان ؟ . . . لا . قد يختطف الانسان

---

(١) خلال تلك الفترة كانت هناك حرب اهلية بين امراء الحرب العسكريين في كثير من اجزاء الصين .

فيهما . واذا حدث ذلك تصبح العائلة السعيدة غير سعيدة . والايجارات في الاحياء الاجنبية في شانغهاي وتيانتسين مرتفعة جدا . . . في مكان في الخارج ؟ مضحك . وأنا لا أعرف الحال في يونان وكويتشو ، غير أن المواصلات هزيلة جدا . . . »

وعصر فكره ، غير أنه لم يستطع أن يحدد مكانا معينا فعزم على أن يسميه « A » على سبيل التجربة . وعلى كل حال فكر : « في هذه الايام يعترض كثير من الناس على استعمال الابجدية الغربية لتمثل اسماء الناس والأماكن ، قائلين انها تقلل من اهتمام القراء . لعل من الافضل عدم استعمالها في قصتي هذه المرة لأكون في الجانب المأمون . وفي هذه الحال أي مكان يكون صالحا ؟ هناك قتال في خونان أيضا ، وقد ارتفعت الايجارات في دارين مرة اخرى . وفي تشاخار وكيلين وخيلونغكيانغ سمعت أن هناك قطاع طرق . . . فلا نفع في ذلك ايضا . »

وعصر فكره ثانية ليفكر في مكان صالح . ولكن دون جدوى وأخيرا عزم أن يختار على سبيل التجربة « A » اسما للمكان الذي ينبغي أن تكون فيه عائلته السعيدة .

« قبل كل شيء ينبغي أن تكون هذه العائلة السعيدة في «A » لا اعتراض على ذلك أبدا . وهذه العائلة تتكون بالطبع من زوج وزوجة – السيد والسيدة – تزوجا عن حب . ويتألف عقد زواجهما في اكثر من اربعين بندا تشمل تفاصيل كثيرة ، وبينهما مساواة تامة وحرية مطلقة . وفضلا عن ذلك فكلاهما قد حصل على تعليم عال ، وهما من الصفوة المثقفة . . . والطلاب العائدون

من اليابان لم يعودوا الطراز المرغوب فيه . فليكونا طالبين عائدين من الغرب . ورب البيت يرتدي دائما بدلة اجنبية وياقة دائما ناصعة البياض كالثلج . وشعر زوجته دائما معقوص كواجهة عش العصفور ، واسنانها البيضاء اللؤلؤية بارزة دائما ، غير أنها ترتدي الملابس الصينية . . . »

« لا ينفع لا ينفع ! خمسة وعشرون رطلا . »

واذ سمع صوت رجل خارج النافذة حرّك رأسه بصورة لا ارادية لينظر . كانت الشمس تشع من خلال الستائر المعلقة على النافذة تبهر عينيه بينما كان يسمع صوتا شبيها بصوت حزم صغيرة من الخشب تلقى على الأرض . وفكر وهو يدير ظهره ثانية : « لا بأس ! خمسة وعشرون رطلا من أي شيء ؟ . . . انهما من الصفوة المثقفة وهبا نفسيهما للفنون . ولكن لأنهما شبا في محيط سعيد فهما لا يحبان الروايات الروسية . فأغلب الروايات الروسية تصف الطبقات الدنيا ، فهي لا تلائم أبدا عائلة كهذه . " خمسة وعشرون رطلا ؟ " ، لا بأس . في هذه الحالة أي كتب يقرآن ؟ . . . شعر بايرون ؟ كيتس ؟ لا ينفع ! فكلاهما غير مأمون الجانب . . . آه ، وجدته : كلاهما يحب قراءة "زوج مثالي" ورغم انني لم أقرأ هذا الكتاب بنفسي الا أن أساتذة الجامعة يطرونه ايضا اطراءا كبيرا . وأنا موقن بأن هذين الزوجين يستمتعان به ايضا دون ريب . وهما يقرآنه في وقت واحد ـــ اذ لكل واحد منهما نسخة . العائلة تمتلك نسختين . . . »

واذ أخذ يحس بفراغ في معدته ، وضع القلم جانبا ووضع

رأسه على راحتيه كأنما هو كرة يرفعها محوران .

وفكر : « . . . يبدأ الاثنان بتناول الطعام والمائدة مفروش عليها قماش أبيض ناصع كالثلج ، والطباخ يجلب أطباق الطعام — طعام صيني "خمسة وعشرون رطلا" من ماذا ؟ لا يهم . لماذا ينبغي أن يكون طعاما صينيا ؟ الغربيون يقولون ان الطبخ الصيني متقدم للغاية ، وهو أحسن الأطعمة مذاقا ، واعظمها فائدة للصحة لهذا فهم يأكلون الطعام الصيني . يجلب الطبق الأول. ولكن ما هو هذا الطبق الأول ؟ . . . »

« حطب . . . »

والتفت منتفضا ، ليرى ربة البيت واقفة إلى يساره ، وعيناها المكتئبتان مثبتتان على وجهه .

« ماذا ؟! » تكلم بشيء من الحنق شاعرا بأن مجيئها قد شوش عمله .

« الحطب قد نفد كله ، فاشتريت اليوم شيئا . وفي المرة الماضية كانت عشرة الأرطال بمئتين واربعين درهما ولكن اليوم ترتفع الى مئتين وستين . فماذا لو اعطيته مئتين وخمسين درهما ؟ »

« لا مانع . فليكن مئتين وخمسين درهما . »

« لقد طفف الوزن كثيرا . وهو يصر على أنها اربعة وعشرون رطلا ونصف . ولكن ما رأيك اذا حسبتها ثلاثة وعشرين رطلا ونصفا ؟ »

« أجل . احسبيها ثلاثة وعشرين رطلا ونصفا ! »

« اذن ، خمسة في خمسة خمسة وعشرون ، وثلاثة في خمسة خمسة عشر . . . »

« أوه ، خمسة في خمسة خمسة وعشرون ، وثلاثة في خمسة خمسة عشر . . . » ولم يستطع أن يمضي أكثر ، ولكنه بعد أن توقف لحظة تناول قلمه فجأة ، وطفق يحسب المبلغ في الورقة المخططة التي كتب فيها « عائلة سعيدة » وبعد أن اشتغل في ذلك برهة رفع رأسه ليقول :

« خمس مئة وثمانون درهما . »

« في هذه الحال ليس عندي ما يكفي هنا . ما زال ينقصني ثمانون أو تسعون . . . »

وفتح درج مكتبه ، واخرج منه جميع الفلوس الموجودة فيه – ما بين عشرين وثلاثين دينارا نحاسيا – ووضعها في يدها الممدودة . ثم راقبها تخرج ، وأدار ظهره الى مكتبه آخر الأمر. وبدا رأسه كأنه ينفجر فكأنما مليء الى حافته بحزم حطب حادة. خمسة في خمسة خمسة وعشرون – كانت الارقام العربية المبعثرة ما زالت مطبوعة في ذهنه . وارسل تنهيدة طويلة وزفر ثانية بعمق وكأنما يريد من ذلك ان يبعد الحطب ، و الـ « خمسة في خمسة خمسة وعشرون » والارقام العربية اللاصقة في رأسه . وبعد أن زفر بدا قلبه أروح كثيرا ، من الأول ، وحينئذ طفق يفكر بغموض ثانية :

« اي طبق ؟ لا يهم ولو كان هذا الطبق ثمينا على نحو غريب : لحم خنزير مقلي أو قثاء البحر ، أو رئات البحر كلها شائعة حقا .

ينبغي أن أجعلهما يأكلان "التنين والنمر" . ولكن ما هذا بالضبط ؟ بعض الناس يقول انه مصنوع من الثعابين والقطط ، وأنه طبق كانتوني للطبقة العليا ، ولا يؤكل الا في المآدب الكبيرة. ولكنني رأيت اسمه في قائمة مطعم في كيانغسو ، ومع ذلك فليس من المفروض ان يأكل اهالي كيانغسو الثعابين أو القطط . فلا بد أنه ، كما قال بعضهم ، مصنوع من الضفادع ، وثعابين السمك . والآن من أي جزء من البلاد سيكون هذان الزوجان ؟ لا بأس . قبل كل شيء ، في وسع الناس من اي جزء من اجزاء البلاد أن يأكلوا طبق ثعبان أو قطة (أو ضفدعة أوثعبان ماء) دون أن يؤذوا عائلتهم السعيدة ، وفي كل الاحوال ، ينبغي أن يكون الطبق الاول هذا "التنين والنمر" ، لا جدال في ذلك ابدا .

« والآن يوضع هذا الصحن من "التنين والنمر" في وسط المائدة . ويتناولان أعواد الاكل في آن واحد ، ويوجهانها الى الطبق ، ويبتسم كل واحد للآخر بعذوبة ، ويقول بلسان أجنبي :

"My dear, Please."
"Please you eat first, my dear."
"Oh no, Please you!"

« ويتناولان اعواد الاكل في وقت واحد ، ويأخذان قطعة من لحم الثعبان — لا ، لا ، لحم الثعبان يلوح ذلك غريبا حقا ؛ من الافضل قبل كل شيء ان يقال من لحم ثعبان السمك . اذن فقد قر قراره على ان يكون طبق " التنين والنمر" مصنوعا من الضفادع وثعابين السمك . يأخذان قطعتين من ثعبان السمك في آن واحد ، قطعتين متساويتين تماما . خمسة في خمسة

وعشرون . ثلاثة في خمسة . . . لا يهم . وفي آن واحد يضعانهما في فميهما . . . » واراد أن يلتفت دون ارادة منه ، لأنه كان شاعرا باضطراب شديد خلفه وحركة اقدام كثيرة تروح وتجيء . غير انه تمالك نفسه وتابع سلسلة افكاره بذهول :

« يلوح لي انني قد تجاوزت الحدود المألوفة لتصوير الناحية العاطفية لهذه العائلة . . . اذ ما من عائلة تتصرف هكذا . ما الذي يجعلني مبلد الفكر على هذا النحو ؟ أخشى أن لا يتم هذا الموضوع الجيد ابدا . . . أو ربما لا حاجة أن يكونا من الطلاب العائدين ؟ فان الذين تلقوا التعليم العالي في الصين يتصرفان بهذا الشكل ايضا . كلاهما من خريجي الجامعة، الصفوة المثقفة ، الصفوة . . . الرجل كاتب ، والمرأة كاتبة ايضا ، أو محبة للأدب . — ربما — ، أو أن المرأة شاعرة — . ربما . . والرجل يهوى الشعر ، ومن الذين يحترمون المرأة . أو ربما . . . »

وفي آخر الأمر لم يعد قادرا على تمالك نفسه . والتفت الى جانب خزانة الكتب خلفه فظهر تل من كرات الكرنب ، ثلاث في الاسفل ، واثنتان فوقها ، وواحدة في القمة ، مشكلة حرفاً شبيها بحرف « A » .

« أوه ! » انتفض وارسل حسرة وهو يحس بان وجنتيه تلتهبان بينما كان يحس كأن اشواكا تسير في عموده الفقري جيئة وذهوبا « آه ! » تنفس نفسا عميقا جدا ليتخلص من الشعور بالوخز في عموده الفقري ، ثم عاد الى التفكير : « لا بد من أن يكون بيت العائلة السعيدة محتويا على كثير من الغرف . وهناك مخزن توضع

فيه أشياء كالكرنب . ومكتب السيد منفصل ، وجدرانه مصفوفة عليها رفوف الكتب . وطبيعي ليس هناك كرنب . الرفوف مملوءة بالكتب الصينية والكتب الأجنبية ، ومن بينها كتاب « زوج مثالي » — نسختان منه . وهناك مخدع منفصل ، سرير من النحاس الأصفر ، أو شيء أبسط ، كسرير من تلك الاسرة التي يصنعها من خشب الدردار سجناء السجن رقم ١ . فذلك على حد سواء . والارض تحت السرير نظيفة جدا . . . » ، ونظر تحت سريره هو ؛ كان خشب الوقود قد نفد كله . ولم تبق غير قطعة من حبل القش ما زالت ملتوية مثل ثعبان ميت .

«ثلاثة وعشرون رطلا ونصف . . . » ، وشعر بأن الحطب موشك على أن ينهمر تحت سريره مثل جدول لا نهاية له ، وآلمه رأسه ثانية ، فنهض مسرعا ، وذهب الى الباب ليغلقه . ولكنه ما كاد يضع يده على الباب حتى شعر بأن ذلك تهور ، وتركه وشأنه ، وسحب ستار الباب الذي علاه الغبار . وفي نفس الوقت فكر : « هذه طريقة يتفادى فيها الانسان قسوة حبس نفسه ، ومتاعب ترك الباب مفتوحا ، ان ذلك يساير مبدأ الاعتدال (١)

« . . . اذن فباب مكتب السيد مغلق دائما . » وعاد وجلس وفكر : « وكل من له شأن من الشؤون ينبغي اولا ان يطرق الباب . ويؤذن له بالدخول . فذلك في الحق الشيء الوحيد الذي ينبغي ان

---

(١) احد كتب كونفوشيوس يدعو الى مبدأ التوسط في كل الأمور .

يكون . والآن لنفرض أن الزوج جالس في مكتبه ، وتأتي السيدة لتتناقش في الادب . فتدق الباب ايضا . . . وأقل شيء في هذا أن الانسان يستطيع ان يكون على يقين – انها لن تجلب أي كرنب .

«Come in, please, my dear.»

« ولكن ماذا يحدث حين لا يكون للسيد وقت يناقش فيه الادب ؟ هل يتجاهلها ، وهو يسمعها واقفة في الخارج تدق الباب برقة ؟ لعل ذلك غير لائق . ربما كان ذلك كله موصوفا في كتاب " زوج مثالي " – لا بد من ان يكون الكتاب رواية ممتازة حقا . لو دفعوا لي عن هذا المقال ينبغي أن أشتري نسخة لأقرأها . »

صفعة !

وتصلب ظهره لأنه يعرف من تجربته أن صوت الصفعات هذا يصدره كف زوجته وهي تضرب رأس ابنتهما ذات السنوات الثلاث .

وفكر ، وظهره مازال متصلبا ، وهو يسمع طفلته تبكي : « في عائلة سعيدة . . . يولد الاطفال في وقت متأخر ، نعم ، في وقت متأخر . أو من الافضل أن لا يأتي الاطفال ، بل يكونا شخصين فحسب دون ارتباطات . أو لعل من الاحسن أن يقيم المرء في فندق ، ويتركهم يهتمون بكل شيء ؛ شخص منفرد دون . . . » وسمع صوت النحيب يزداد قوة ، ونهض ، وسحب الستار وفكر : « كتب كارل ماركس "رأس المال" بينما

كان أطفاله يصرخون حوله . لا بد من أنه كان رجلا عظيما حقا . . . » وخرج ، وفتح الباب الخارجي ، فصدمته رائحة كيروسين قوية . وكانت الطفلة منطرحة الى يمين الباب ، ووجهها على الارض . وما ان رأته حتى أخذت تبكي بصوت أعلى .

« ها ، ها . . لا تبكي . أنت بنت طيبة . »

وانحنى يرفعها . وبعد ذلك التفت فرأى زوجته واقفة الى يسار الباب مغتاظة . وكانت متصلبة الظهر أيضا ويداها على وركيها كأنها تتهيأ لاداء تمارين رياضية .

« حتى أنت أخذت تعتدين علي ! لا يمكنك أن تساعديني بل تخلقين لي المتاعب ليس غير — حتى مصباح الكيروسين قد اسقطته فأي شيء سنوقد هذا المساء ؟ »

« ها ، ها . ! لا تبكي ، لا تبكي ! » قال ذلك متجاهلا كلام زوجته المرتجف ، وحمل طفلته الى البيت . ومسد شعرها : « بنت طيبة . » اعاد القول . ثم وضعها وسحب مقعدا وجلس . وأجلسها ما بين ركبتيه ، ورفع رأسه . قال : « لا تبكي . انت بنت طيبة . وبابا سيلعب لعبة القطة معك . » وفي نفس الوقت مد عنقه ، ولعق كفيه مرتين من بعيد ، ثم رسم دائرة نحو وجهه .

اخذت الطفلة تضحك : « هاه . . هاه . . قطة . »

« نعم . . . نعم . قطة . » ورسم عدة دوائر أخرى ثم توقف . ورآها تبتسم له والدموع ما زالت في عينيها . وخطر له فجأة أن وجهها الحلو البريء هومثل وجه أمها قبل خمسة اعوام ولاسيما

شفتاها الحمراوان ، رغم أن ملامحها أصغر . وكان ذلك في يوم شتاء مشرق . وقد سمعت قراره بأن يتغلب على جميع العقبات ، ويضحي بكل شيء من أجلها ، حين نظرت اليه هي الأخرى بنفس الطريقة ، مبتسمة والدموع في عينيها . وجلس مكتئبا ، كأنه ثمل .

وفكر : « آه ، شفتان عذبتان . »

وفجأة أزيح ستار الباب ، وجيء بالحطب .

ثم فجأة عاد الى نفسه ثانية . فرأى الطفلة والدموع مازالت في عينيها تنظر اليه وشفتاها اللامعتان منفرجتان : « شفتان . . . » ونظر من طرف عينيه الى حيث يجلب الحطب : « ربما . . . لا شيء غير خمسة في خمسة خمسة وعشرون ، وتسعة في تسعة واحد وثمانون . وينتهي كل شيء ثانية ! . . . وعينان موحشتان . . . » وحين فكر في ذلك خطف الورقة المخططة بخطوط خضراء المكتوب عليها العنوان والارقام ودعكها في يده ، ثم طواها ثانية ليمسح بها عينيها وانفها : « بنت طيبة ، اركضي والعبي وحدك . » ودفعها وهو يقول ذلك . وفي نفس الوقت ألقى كرة الورقة في سلة المهملات .

ولكن فجأة شعر بشيء من الأسف على طفلته ، وادار رأسه ، وتبعها بعينيه ، وهي تسير كسيرة النفس بينما كانت أذناه مليئتين بصوت ارتطام الحطب . وعزم على ان يركز أفكاره . فتحول الى الخلف ثانية ، واغمض عينيه ، لينفي عنه كل الافكار المذهلة وجلس في هدوء وسلام .

ورأى زهرة مسطحة مستديرة منقطة بالسواد ووسطها بلون برتقالي تمر أمامه سابحة من يسار عينه اليسرى الى الطرف المعاكس حيث اختفت . ثم زهرة خضراء متلألئة وسطها داكن الخضرة ، وفي النهاية كومة من ست كرنبات تشكل حرف « A » تشكيلا هائلا .

١٩ مارس ١٩٢٤

صابونة

كانت زوجة سومين تلصق اوراق النقود في ضوء الشمس المائل ، قربانا للميت ، وظهرها الى النافذة الشمالية ، ومعها ابنتها شيواره ذات ثمانية الأعوام . واذذاك سمعت خطوات بطيئة ثقيلة لشخص ينتعل حذاء قماشيا ، فعلمت ان زوجها قد عاد . ومع ذلك لم تلتفت ، ومضت تلصق النقود غير ان وقع الحذاء القماشي اقترب منها رويدا رويدا حتى استقر الى جانبها آخر الأمر . فلم تجد بدا من ان ترفع بصرها لترى أمامها سومين يقوس منكبيه ، ويميل الى الأمام يبحث باهتمام تحت سترته القماشية في الجيب الداخلي لمعطفه الطويل .

وبعد كثير من التلوي والانعطاف انتزع يده في النهاية فظهرت فيها علبة صغيرة مستطيلة ناولها الى زوجته . وحين اخذتها شمت

رائحة مبهمة ذكرتها بالزيتون على نحو ما . وكان على ورق الغلاف الاخضر ختم ذهبي لماع عليه رسوم صغيرة . وانحنت شيواره لتمسك بالعلبة وتنظر فيها ، ولكن أمها دفعتها جانبا في الحال .

وسألت وهي تنظر الى الصابونة : « أكنت تتسوق ؟ . . . »

« نعم . . . نعم ! » وحدق بالعلبة التي في يدها .

فضت الغلاف الأخضر ، فوجد في الداخل طبقة ورق رقيق أخضر قليلا أيضا ، وبعد ان فضت هذه الطبقة ظهر الشيء نفسه — صقيلا وصلبا فضلا عن انه أخضر وعليه شبكة من الرسوم الجميلة . وكان الورق الرقيق بلون الزبدة كما لاح . وكانت الرائحة الشبيهة برائحة الزيتون اقوى الآن . . .

وتناولت الصابونة وقربتها من أنفها بحذر كأنها طفل ، وشمتها وهي تقول :

« آه ! ! هذه صابونة جيدة حقا . »

« نعم . . . نعم ! استعملي هذه في المستقبل ! »

وحين كان يتكلم لاحظت انه يحدق رقبتها بعينيه ، فشعرت بأنها تتورد خجلا . وفي بعض الاحيان حين كانت تدعك رقبتها على الاخص خلف الاذنين تحس بخشونة ، ورغم انها كانت تعرف ان ذلك هو الوسخ الذي تراكم في سنين كثيرة فلم تفكر به كثيرا . والآن وهي تحت هذا التحديق لم يسعها الا ان تحمر خجلا وهي تنظر الى هذه الصابونة الاجنبية الخضراء ذات الرائحة الغريبة ، وانتشر هذا الاحمرار الى طرفي أذنيها . وعزمت في فكرها على ان تغسل جسمها كليا بهذه الصابونة بعد العشاء .

وتمتمت لنفسها : « هناك مواضع لا يمكنك ان تنظفيها ببراعم الخرنوب البري . » (١)

« ماما ، هل آخذ هذه ؟ » قالت شيو اره وهي تتناول الورق الاخضر . وجاءت تشاو اره الابنة الصغرى راكضة أيضا ، وكانت تلعب في الخارج . وفي الحال دفعتهما السيدة سو مين جانبا ، طاوية الورق الرقيق جيدا ، ولفت الورق الاخضر حوله كما كان في السابق ، ثم مالت لتضعه في أعلى رف للمغسل . وبعد ان القت اليه نظرة أخيرة تحولت الى اوراقها النقدية .

« شويه تشنغ ! » بدا سو مين وكأنه تذكر شيئا فصاح صيحة ممطوطة وهو جالس على كرسي عالي الظهر ازاء زوجته .

« شويه تشنغ ! » صاحت معينة اياه .

وكفت عن الصاق النقود لتنصت . ولكنها لم تستطع ان تسمع صوتا . وحين رأته ورأسه معقوف الى الوراء ينتظر بنفاد صبر شعرت بالرقة والاهتمام له تماما .

« شويه تشنغ ! » نادت صائحة بأعلى صوتها .

وفي هذه المرة استجاب شويه تشنغ لصوت أمه . ثم سمع وقع الحذاء الجلدي يقترب ، ووقف امامها . وكان مشمرا عن ساعديه ، ووجهه الممتلىء يلمع فيه العرق .

سألت في استنكار : « ماذا كنت تفعل ؟ لماذا لم تسمع نداء أبيك ؟ »

---

(١) كان الخرنوب البري يستخدم في الغسل في اجزاء كثيرة من الصين قبل التحرير . وكان رخيصا ولكن ليس كثير التأثير .

« كنت أتمرن على الملاكمة السداسية . . . » تحول في الحال الى ابيه ، وانتصب ناظرا اليه وكأنه يسأله ماذا يريد .

« شويه تشنغ . اريد ان أسألك ما معنى ـ او ـ دو ـ فو (١) . »

« او ـ دو ـ فو ؟ . . . أليست هي امراة قاسية جدا ؟ »

« أي هراء ! مامعنى هذا ؟ هل أنا امرأة ؟ ! ! »

واغتاظ سومين فجأة .

وارتد شويه تشنغ خطوتين الى الوراء ، وانتصب اكثر من ذي قبل . ورغم ان مشية ابيه في بعض الاحيان تذكره بالطريقة التي يسير فيها الشيوخ في اوبرا بكين فلم يعتبر سو مين قط امراة . لقد كان جوابه ، كما يرى الآن ، خطأ كبيرا .

« اذا كنت لا أعرف ان ' او ـ دو ـ فو ' تعني امرأة قاسية جدا ، فهل يجوزان أسألك عن ذلك ؟ ليست هذه بالصينية . انها لغة الشياطين الأجانب . أنا أقول لك ماذا : تعني ؟ هل تعرف ؟ »

فشعر شويه تشنغ بارتباك أشد فقال : « أنا . . . أنا . . . لا أعرف . »

« آه ! ما فائدة صرفي لكل تلك الفلوس لارسالك الى المدرسة اذا أنت لا تفهم شيئا صغيرا كهذا ؟ ان مدرستك تتباهى بأنها تولي عناية متساوية للكلام والفهم . ومع ذلك فلم تعلمك شيئا . والذي كان يتكلم بلغة الشياطين هذه لا يمكن ان تكون سنه اكثر من اربعة عشرة او خمسة عشرة عاماً ، وفي الواقع

---

(١) « او ـ دو ـ فو » تعني بالصينية « الزوجة الشريرة » .

هو أصغر منك بقليل ، ومع ذلك فهم يثرثرون فيها ، بينما أنت لا تستطيع ان تقول لي حتى معنى هذه الجملة الصغيرة ، او تتجاسر فتجيب " انا لا اعرف " اذهب ففتش لي عنها في الحال ! »

« نعم ! » اجاب شويه تشنغ من اعماق حنجرته وانسحب باحترام .

وبعد ان توقف سو مين قليلا أعلن بتأثر : « انا لا اعرف اي طلاب ينشأون اليوم . وفي الواقع انني في عهد "كوانغ سو"(١) كنت مؤيدا تماما لفتح المدارس ، ولكنني لم أتنبأ قط اي شرور ستكون . اي " انعتاق " و " حرية " أصابتنا ! ليس هناك تعليم حقيقي ، بل لا شيء غير السخافات . ولقد أنفقت كمية كبيرة من المال على شويه تشنغ ، وكل ذلك دون فائدة ولم يكن سهلا ان ادخله الى تلك المدرسة النصفية بين غربية وصينية حيث يزعمون انهم يولون عناية متساوية للكلام وفهم الانكليزية (٢) وكنت احسب ان كل شيء سيكون على ما يرام . ولكن — آه — بعد سنة كاملة من الدراسة لا يستطيع ان يفهم او — دو — فو ! لا بد انه ما يزال يدرس الكتب الميتة . ما الفائدة من مدرسة كهذه ؟ وما اقوله أنا هو : اغلقوا جميع المدارس جملة وتفصيلا ! »

فقالت الزوجة : « نعم ، حقا ، من الافضل غلقها جملة

---

(١) اي ١٨٧٥ — ١٩٠٨ .

(٢) كانت الانكليزية تدرس تقريبا في جميع المدارس الجديدة في ذلك العهد . وتعلم الكلام كان يعتبر مساويا في الاهمية لتعلم القراءة .

وتفصيلا . » واعلنت تأييدها لزوجها ، وهي تلصق أوراق النقد .

« لا حاجة لان تذهب شيواره ، واختها الى المدرسة " ما الفائدة من دراسة الفتيات " كما كان الجد التاسع يقول . وحين اعترض على مدارس البنات هاجمته على ذلك ، والآن أرى ان قدامى القوم كانوا على حق على اية حال . ففكري ، لا ذوق أبدا في ان تتجول النساء في الشوارع . ولا شيء يثير اشمئزازي مثلما تثيره بنات المدارس القصيرات الشعر . وما اقوله هو ان هناك بعض العذر للجنود وللصوص ، ولكن اولئك الفتيات قلبن كل شيء رأسا على عقب . يجدر ان يؤخذن بالشدة الصارمة حقا . . . »

« نعم ، وكأنما لا يكفي ان يبدو الرجال كالرهبان ، فتقلد النساء الراهبات (١) . »

« شويه تشنغ ! »

واسرع شويه تشنغ في تناول كتاب صغير سميك مذهب الحاشية ، واعطاه لوالده .

« هذا يشبهه ، هنا . . . » قال ذلك وأشار الى مكان .

وتناوله سو مين ونظر فيه . وكان يعرف انه قاموس . غير ان حروفه كانت صغيرة جدا ، ومطبوعة أفقيا ايضا . والتفت عابسا نحو المائدة ، وضيق عينيه ليقرأ الفقرة التي اشار اليها شويه تشنغ .

---

(١) كان الرهبان والراهبات في الصين يحلقون شعورهم ومن هنا كان المحافظون في نهاية اسرة تشينغ المالكة يضحكون من الذين يقطعون ضفائرهم زاعمين انهم يبدون كالرهبان .

« جمعية تأسست في القرن التاسع عشر للمعونة المتبادلة ــ لا ، لا يمكن ان يكون هذا ــ كيف تلفظه ؟ » واشار الى كلمة من كلمات الشياطين في المقدمة .

« اولد فلوز . »

« لا ، لا . ليس هذا . » وفجأة احتد سومين ثانية : « قلت لك انها لغة سيئة . شتيمة من نوع ما ، لاهانة شخص على شاكلتي . أفهمت ؟ اذهب وفتش عنها ! »

ونظر اليه شويه تشنغ عدة مرات ، ولكنه لم يتحرك .

وقالت الأم :

« ذلك محير جدا . كيف يستطيع ان يعرف الرأس من الذيل ؟ يجب ان تشرح الامر له بوضوح اولا ، قبل ان يفتش عنه بصورة مناسبة . » وشعرت أمه بأسف شديد عليه اذ رأته في حيص بيص ، فتدخلت بشيء من الحنق لنصرته .

زفر سومين وتحول اليها قائلا : « كان ذلك عندما كنت أشتري الصابونة في كوانغ جون شيانغ في الشارع الرئيس . وكان هناك ثلاثة طلاب يشترون ايضا . بالطبع لا بد انني بدوت لهم متزمتا قليلا : فقد تفحصت خمسة أنواع أو ستة أنواع من الصابون ، كلها فوق الاربعين فلسا ، ورفضتها . ثم تفحصت نوعا آخر سعر الواحدة منه عشرة فلوس ، لكنه كان هزيلا جدا ، ولا رائحة فيه على الاطلاق ، ولما فكرت بان الافضل ان آخذ حدا وسطا اخترت هذه الصابونة الخضراء وسعرها اربعة وعشرون فلسا . وكان البائع واحدا من اولئك الشبان المتشامخين الذين

وضعت عيونهم فوق رؤوسهم . فأبدى لي وجها طويلا مكفهرا . واذذاك طفق اولئك الطلاب الوقحاء يغمز احدهم الاخر ، ويتكلمون بلغة الشياطين . ثم أردت ان افض غلاف الصابونة ، وانظر فيها قبل ان أشتريها — فكيف اعرف انها جيدة أو غير جيدة وهي ملفوفة بكل ذلك الورق الأجنبي . ولكن ذلك الشاب المتشامخ لم يكتف بأن يرفض ، بل كان ايضا بعيدا عن الانصاف فتَفَوَّه ببعض الملاحظات السيئة ضحك لها اولئك التافهون وكان أصغر الجماعة هو الذي قال تلك الكلمة لي وجهاً لوجه ، وطفق الآخرون يضحكون : « فلا بد من ان تكون كلمة بذيئة . » ثم تحول ثانية الى شويه تشنغ وقال : « فتش عنها في الباب المعنون بـ" لغة بذيئة " . »

« نعم ! » اجاب شويه تشنغ من اعماق حنجرته ، ثم انسحب باحترام .

تابع الأب كلامه وعيناه على دسر السقف : « نعم مازالوا يصرخون الثقافة الجديدة ! الثقافة الجديدة حين يكون العالم في حال كهذه ، أليس هذا سيئا بما فيه الكفاية ؟ الطلاب ليست لهم اخلاق ، والمجتمع ليس له اخلاق . واذا لم نجد بعض الدواء فان الصين ستزول حقا . أنظري كم كان ذلك محزنا ؟ . . . »

« ماذا ؟ » سألت زوجته عرضا ، دون اهتمام .

« ابنة بارة . . . » ثم أدار عينيه نحوها وكان في صوته نبرة احترام : « كانت هناك شحاذتان في الشارع الرئيس . احداهما

فتاة تبدو في الثامنة عشرة او التاسعة عشرة ، والواقع من غير اللائق ان تشحذ وهي في هذا العمر . ولكنها كانت تشحذ . وكانت معها امرأة عجوز في نحو السبعين عمياء ولها شعر ابيض . وكانتا تشحذان تحت طنف مخزن الملابس . وكل الناس قالوا كم هي بارة . وكانت المرأة العجوز جدتها ، ومهما تلقت من زهيد العطايا اعطته الى جدتهـا ، وهي تفضل ان تظل على الطوى . ولكن أتظنين ان الناس يعطون العطايا حتى لابنة بارة كهذه ! »

وثبت عينيه في عينيها وكأنما يختبر ذكاءها .

ولم تجب بشيء ، ولكنها ثبتت عينيها في عينيه وكأنها تنتظر منه ان يجلو الأمر .

« آه ، لا . » اجاب عن السؤال بنفسه في آخر الأمر : « لقد راقبتهما مدة طويلة ولم أر الا شخصا واحدا اعطاها درهما نحاسيا . وكثير من الناس تجمعـوا قربها لا لشيء الا ليسخروا منهما ومن بين هؤلاء اثنان شـرسان كان في احدهما وقاحة لأن يقول لزميله آفا : " يا آفا ! الا تشمئـز من القذر على هذه البضاعة . فلو تشتري قطعتين من الصابون ، وتجلوها جلوأ جيدا ، فلن تكون النتيجة سيئة على الاطلاق . " انظري اي اسلوب في الكلام هذا ؟ »

ونخرت ، ولوت رأسها . وبعد زمن غير وجيز سألت مسترسلة : « هل اعطيتها شيئا من الفلوس ؟ »

« هل اعطيتها ؟ — لا ، لقد شعرت بالخجل من اعطائها

فلسا او فلسين . فهي ليست شحاذة ممتهنة كما تعلمين . . . »

« مم ! » وقبل ان تنتظر اتمام كلامه نهضت ببطء ، وذهبت الى المطبخ . وكان الغسق يتجمع ، وقد حان وقت العشاء .

نهض سو مين ايضا ، ومشى الى الفناء . وفي الخارج كان النور أشد مما في الداخل وكان سويه تشنغ يتمرن على الملاكمة السداسية في ركن الى جانب الحائط ، ليؤدي التمارين وكان يستعمل طريقة اقتصادية باستخدامه الساعة الفاصلة ما بين النهار والليل لهذه الغاية . وقد انقضى نصف عام على تدريبه ، وهز سو مين رأسه قليلا ، وكأنه استحسان ثم أخذ يذرع الباحة ، ويداه وراء ظهره . وبعد قليل لف الظلام أوراق النبات الخضراء العريضة ، وكان النبات المحفوظ الوحيد الذي يمتلكونه ، وتلألأت النجوم بين الغيوم البيضاء التي كانت تبدومثل قطن مندوف وهبط الليل . ولم يستطع سو مين ان يكبح حنقه النامي ، وأحس بانه مدعو الى ان يأتي باعمال مجيدة ، وان يعلن الحرب على جميع الطلاب التافهين فيما حوله ، وعلى هذا المجتمع الشرير . وشيئا فشيئا اشتدت جرأته وتعاظمت ، واتسعت خطواته أكثر فأكثر ، وارتفع صوت نعله القماشي أعلى فأعلى موقظة الدجاجات وفراخها في كن الدجاج تقأقىء في فزع .

وظهر نور في البهو — اشارة الى ان العشاء قد بدأ — واجتمعت العائلة كلها حول مائدة في الوسط . وكان المصباح في الطرف الاسفل للمائدة ، بينما جلس سومين وحده في اعلاها وكان

وجهه المدور الممتلىء يشبه وجه شويه تشنغ مضافا اليه شاربان خفيفان وكان يبدو من خلال بخار حساء الخضر الحار مثل اله العافية الذي تراه في المعبد . وجلست على اليسار السيدة سومين وتشاو اره ، وعلى اليمين شويه تشنغ وشويه اره ، وكانت اعواد الأكل تقرقع على طاسات الاكل مثل قرقعة المطر . وكانت مائدة عشائهم حية جدا رغم ان أحدا منهم لم يفه بكلمة .

وقلبت تشاو اره طاسها ساكبة الحساء على نصف المائدة . وفتح سو مين عينيه الضيقتين على اوسع ما يستطيع . وحين رأى انها توشك ان تبكي كف عن التحديق بها ومد عوديه ليتناول قطعة طرية من الكرنب اختارها من قبل . لكن القطعة الطرية قد اختفت . وتلفت يمنة ويسرة فاكتشف شويه تشنغ وهو يحشرها في فمه المفتوح على سعته . فاستاء وأكل بدلا منها حشوفمه من الاوراق الصفر .

ونظر الى ابنه : « شويه تشنغ أ وجدت تلك العبارة ام لا ؟ »

« اية عبارة ! — لا ، لحد الآن ! »

« آه ! تمعن في نفسك ، تلميذ غير نجيب ، وعديم الشعور أيضا — كل ما تستطيع ان تفعله هو أن تأكل ! ينبغي ان تتعلم من تلك البنت البارة ، رغم انها شحاذة الاانها تعامل جدتها باحترام شديد ، حتى اذا كان ذلك مما يضطرها ان تظل على الطوى ولكن ماذا تعرفون انتم ايها الطلاب الوقح من هذه الامور ؟ ستكبر وتكون مثل تلك الاصناف الواطئة . . . »

« لقد فكرت بشيء واحد ولكن لا أعرف أ صحيح ؟ . . .

أظن . . ربما . . . قالوا " او ـ دو ـ فو ـ لا " (١) . »

« ذلك حق ! تماما بالضبط ! ذلك هو اللفظ بالذات او ـ دو ـ فو ـ لا . ماذا يعني ذلك ؟ انت من نفس الطائفة ، يجب ان تعرف . »

« ماذا يعني ؟ ـ أنا غير متأكد ماذا يعني . »

« هراء . لا تحاول ان تخدعني . أنتم كلكم جماعة تافهون . »

قالت السيدة سو مين منفجرة فجأة : « حتى الرعد لا يصيب الناس وهم على المائدة . لماذا لا تنفك ثائرا هذا اليوم ؟ وحتى في العشاء تضرب الدجاجة تارة وتصيح بالكلب طورا . ماذا يفهم الاولاد في هذه السن ؟ »

« ماذا ؟ » وكان سو مين موشكا ان يرد حين رأى وجنتيها الغائرتين ترتجفان غضبا، وقد تغير لونها وظهرت ومضة مخيفة في عينيها المثلثتين . فغير نبرته بسرعة : « انا لست ثائرا . ولكني اقول لشويه تشنغ ان يتعلم شيئا من الشعور ليس غير . »

قالت وهي تبدو أشد غضبا من ذي قبل : « كيف يمكن ان يفهم ماذا في ذهنك ؟ لو كان عنده شعور لذهب منذ زمان ليوقد مصباحا ، او شعلة ، ويذهب ليأتي بالبنت البارة تلك . لقد اشتريت لها قطعة من الصابون بالفعل . وكل ما عليك هو ان تشتري قطعة اخرى . . . »

« هراء ! هذا ما قاله أولئك النفر الوضعاء . »

---

(١) هذا اللفظ الصيني للكلمة الانكليزية old FooL اي الاحمق العجوز .

« أنا لست متأكدة . لو تشتري لها قطعة أخرى من الصابون. وتجلوها جلوا جيدا ، وتصلي لها ، يكون العالم كله في سلام . »

« كيف يمكنك ان تقولي شيئا كهذا ؟ ما العلاقة هنا ؟ لانني تذكرت ان ليس عندك صابون . . . »

« هناك علاقة في الواقع . لقد اشتريتها خصيصى للبنت البارة ، اذن فاذهب وأجلها جلوا جيدا . انا لا استحقها . انا لا اريد . أنا لا أريد ان أقاسمها مجدها . »

تمتم سو مين : « حقا ، كيف تتكلمين على هذا النحو ؟ انتم النساء . . . » وتصبب وجهه عرقا مثلما يتصبب وجه شويه تشنغ بعد الملاكمة السداسية ، واغلب الظن لان الطعام كان حارا جدا .

« ماذا عن النساء ؟ نحن النساء أفضل بكثير منكم ايها الرجال فأنتم بالاضافة الى انكم لم تشتموا الطالبات في سن الثامنة عشرة اوالتاسعة عشرة فقد مدحتم الشحاذات في سن الثامنة عشرة او التاسعة عشرة . مثل هذه العقول القذرة عندكم ! اجلوها ، حقا ! الا تشعرون بالخجل من انفسكم ؟ ! »

« ألم تسمعي؟ كان ذلك واحدا من الاصناف الواطئة ! . . . »

« سو مين . » سمع صوت مدو انبعث من الظلام في الخارج .

« تاو تونغ ؟ أنا قادم . »

كان سومين يعرف انه « هوتاو تونغ » المعروف بجهارة صوته ، فرد عليه بفرح شبيه بفرح مجرم قد أجل تنفيذ عقابه حديثا .

« شويه تشنغ ، أسرع واوقد قنديلا لتقود العم الى المكتبة . »
اشعل شويه تشنغ قنديلا ، ورافق تاو تونغ الى غرفة في الجهة الغربية . وتبعهما « بووي يوان » .

وجاء سو مين وفمه مازال مملوءا بالرز ، وانحنى ويداه متشابكتان في تحية وقال : « انا آسف لأني لم استقبلكما . أعذراني. الا تشاركاننا طعامنا البسيط ؟ . . . »

« لقد تناولنا طعامنا الآن . » وتقدم وي يوان وحياه : « لقد اسرعنا الى هنا في مثل هذا الوقت من الليل للمرة الثامنة عشرة لوضع عنوان عام للمقالات المختارة ومن المباراة الشعرية التي ستقيمها دار " الادب الحديث " غدا . »

« أليس غد هو اليوم السابع عشر ؟ »

سأل سو مين في دهشة : « ماذا ؟ هل اليوم هو السادس عشر ؟ »

دوى تاو تونغ قائلا : « أنظر كم انت ساهي الفكر ! »

« اذن فعلينا ان نرسل شيئا في هذه الليلة الى مكتب الصحيفة لنتأكد من انهم سيطبعونه غدا . »

وقال تاوتونغ : « لقد وضعت مسودة عنوان المقالة . فانظر أتظن انه ملائم ام لا ! » وعندما كان يتكلم اخرج قطعة من الورق من منديله اليدوي ، واعطاها الى سومين .

ومضى سو مين الى القنديل ، فنشر الورقة ، وقرأها كلمة كلمة : « نحن نقترح بتواضع مقالة باسم الامة كلها نتضرع بها الى الرئيس ليصدر امرا لتشجيع الكتب الكلاسيكية الكونفوشيوسية

وعبادة أم منشيوس (١)، من أجل انعاش هذا العالم المشرف على الموت ، والحفاظ على طابعنا القومي . » وقال سومين : « حسنا جدا ، حسنا جدا . أليست طويلة قليلا مع ذلك ؟ »

أجاب تاوتونغ بصوت عال : «هذا لا يهم . لقد عددت كلماتها . . . ولا يكلف الاعلان عنها شيئا ، ولكن ماذا عن عنوان القصيدة ؟ »

قال سومين وبدا فجأة شديد الاحترام : « عنوان القصيدة. لقد فكرت بواحد . مارأيكم في البنت البارة ؟ انها قصة حقيقية . وهي تستحق المدح . في الشارع الرئيس اليوم . . . »

« اوه ، لا ، هذا لا ينفع . » قال وي يوان في عجالة هازا يده ليوقف سومين: « لقد رأيتها انا ايضا انها ليست من هذه الانحاء . ولم استطع ان افهم لهجتها ، كما هي لم تفهم لهجتي . وانا لا اعرف من اين هي . وكل الناس يقول انها بارة . ولكن حين سألتها هل تستطيعين نظم الاشعار ، هزت رأسها . لوكانت تعرف لكان ذلك رائعا (٢). »

« ولكن لما كان الاخلاص والشفقة البنوية امرين مهمين جدا ، فلايهم كثيرا اذا كانت لا تعرف نظم الشعر . . . »

قال وي يوان : « ليس هذا صحيحا ، بل بالعكس تماما .»

---

(١) امراة مشهورة بصلاحها . وتحكي التقاليد انها حركت البيت ثلاث مرات لتتفادى اصحابا لابنها غير مرغوبين .

(٢) في الصين القديمة كان يعتبر شيئا رومانتيكيا بالنسبة للنساء ان يتبادلن الافكار مع الرجال شعرا . والعواهر النموذجيات كن يستطعن نظم الشعر .

ورفع يديه واندفع نحو سو مين ليهزه ويدفعه : « ليست طريفة الا اذا كانت تنظم الشعر . »

قال سو مين وهو ينحيه جانبا : « لنستعمل هذا العنوان . ضف شرحا ، واطبعه ، فأولا سينفع لمدحها ، وثانيا ، يمكننا استخدامه لانتقاد المجتمع والآن سيتدهور العالم إلى أيةدرجة ! لقد راقبتها قليلا ، ولكنني لم أر أحدا يعطيها فلسا — هل الناس بلا قلوب على الاطلاق ؟ . . . »

واندفع وي يوان ثانية وهو يقول : « أيا ، سو مين ! انت تشتم ذوي الصلع امام راهب . انا لم أعطها شيئا لأنه لم يكن معي ، مصادفة ، اي فلس . »

ودفعه سو مين ثانية : « لا تكن سريع التأثر يا وي يوان ! طبعا انت مستثنى ودعني أتم كلامي . واحتشدت أمامهما جماعة من الناس يستهزئون بهما دون اية شفقة وكان هناك صنفان واطئان كانا اكثر سلاطة . حتى قال احدهما : " آه فا ! لو تشتري قطعتين من الصابون وتجلوها جلوا جيدا . فلن تكون النتيجة سيئة على الاطلاق . . . "فما عليك الا ان تفكر . . . »

جأر تاوتونغ ضاحكا فجأة حتى كاد يمزق طبلات آذانهم : « ها ، ها ، قطعتين من الصابون اشتر صابونة ! هو هو ، هو . »

وانتفض سو مين مرتعبا : « تاوتونغ ، تاوتونغ . لا تحدث ضجة كهذه ! »

« جلوا جيدا ، هو ، هو ، هو. »

« تاو تونغ ! » ولاح سو مين جاهما : « نحن نناقش

قضايا جدية . لماذا تحدث مثل هذه الضجة التي تصم الآذان . اصغ الي ، سنستعمل هذين العنوانين كليهما ، ونرسلهما على الفور الى مكتب الجريدة ، لينشرا غدا حتما . سأجشمكما مؤونة حملها الى هناك . »

وافق وي يوان في الحال : « حسنا ، حسنا ، بالطبع . »

« ها ، ها ، جلوا جيدا ! هو ، هو ! »

«تاو تونغ !!! » صرح سومين في غيظ .

وحملت هذه الصرخة تاوتونغ على التوقف عن الضحك . وبعد ان صاغوا الشرح استنسخه وي يوان في ورقة ، وغادر مع تاو تونغ الى مكتب الجريدة . وحمل سو مين القنديل ليرافقهما الى خارج البيت ، ثم عاد الى باب الصالة ، وهو يشعر بشيء من الخوف . وبعد قليل من التردد تخطى العتبة في آخر الأمر . وحين دخل وقع بصره على علبة الصابونة الصغيرة المستطيلة الخضراء في وسط الطاولة الموضوعة في الوسط ، والحروف الذهبية المكتوبة عليها تلمع في ضوء المصباح تحيط بها الرسوم الجميلة .

وكانت شويه اره ، وتشاو اره ، تلعبان على الارض عند طرف الطاولة الواطيء بينما جلس شويه تشنغ عند الطرف الايمن يفتش في قاموسه عن شيء . واخيرا اكتشف سو مين زوجته جالسة في الظلام على الكرسي المرتفع الظهر بعيدة عن المصباح . وكان وجهها الجامد لا يعلن عن فرح ولا عن غضب ، وكانت تحدق في

فراغ .

« اجلوها جيدا حقا ! »

وسمع سو مين بخفوت صوت شيو اره خلفه ، والتفت . ولكنها لم تكن قد تحركت وتشاو اره وحدها قد مدت يديها الصغيرتين الى وجهها ، كأنها تسخر من أحد الناس .

ولم يكن ذلك مكانا له ، فأطفأ القنديل ، وخرج الى الباحة ليسير جيئة وذهوبا . ولانه نسي ان يهدأ طفقت الدجاجة الام ، وفراخها تقأقئ ثانية . وفي الحال مشى بخفة اكثر ، وابتعد اكثر . وبعد زمن طويل نقل المصباح الموضوع في البهو الى غرفة النوم وكان ضوء البدرعلى الارض كأنه قطعة واحدة من النسيج الرقيق . والبدر — في تمامه — مثل قرص من اليشم بين الغيوم المتلألئة .

وكان يشعر بشيء من الحزن . وكأنه ، مثل البنت البارة . كان « مهملا جدا ، ووحيدا » . وفي تلك الليلة نام في وقت متأخر .

ومع ذلك ففي الصباح التالي نالت الصابونة شرف الاستعمال . فعندما استيقظ متأخرا اكثر من عادته رأى زوجته تميل على المغسل وهي تدعك رقبتها ، وفوق اذنيها الاثنتين فقاعات كتلك التي تحدثها سراطين البحر وهي تتراكم عاليا وراء اذنيها . والفرق بين هذه الفقاعات والفقاعات الصغيرة التي تولدها براعم الخرنوب البري هو مثل الفرق بين السماوات والارض . وبعد ذلك صارت تنبعث من السيدة سومين دائما رائحة مبهمة تذكر بالزيتون . وما

كاد ينقضي نصف عام حتى حلت محل هذه الرائحة فجأة رائحة اخرى كان جميع الذين يشمونها يجزمون على انها تشبه خشب الصندل .

٢٢ مارس ١٩٢٤

كاره البشر

— ١ —

صداقتي مع وي لين شو ، التي أخذت أفكربها الآن ، هي بالتاكيد صداقة غريبة . فقد بدأت وانتهت في مأتم .

عندما كنت أعيش في « س » — كنت غالباما أسمع الناس يذكرونه بأنه فتى غريب الأطوار ، وبعد أن درس علم الحيوان أصبح مدرسا للتاريخ في مدرسة متوسطة ، وهو يعامل الآخرين على طريقة الفرسان ، الا انه كان يحب الاهتمام بشؤونهم . وبينما كان ينادي بوجوب إلغاء نظام الأسرة كان يحول راتبه الى جدته في نفس اليوم الذي يسحبه . وكان له كثير من الطرق الغريبة الأخرى الكافية لتحريك الألسن في البلدة .

وذات خريف نزلت في « هان شيه شان » عند أقرباء لي وكانت أسماؤهم نفس الاسم الذي يحمله وتربطهم به قرابة بعيدة الا أنهم كانوا يعتبرونه غريبا عنها قائلين : « انه لا يشبهنا » .

ولا غرابة في ذلك . فبالرغم من أن المدارس المتوسطة الحديثة قد فتحت في الصين منذ ما يقرب من عشرين عاما — بيد أنه لم يكن في هان شيه شان حتى مدرسة ابتدائية . وكان هو الوحيد الذي غادر تلك القرية الجبلية للدراسة . ومن هنا كان في عيون القرويين شاذا دون شك . ومع ذلك فقد كانوا يحسدونه أيضا قائلين انه كسب مالا كثيرا .

وعند نهاية الخريف حصلت في القرية موجة وبائية لمرض الدسنطريا ، ففكرت في فزع بالعودة الى البلدة . وقد سمعت أن جدته قد أصيبت بهذا المرض . وبسبب سنها المتقدمة كانت حالتها خطيرة . وفضلا عن ذلك لم يكن في القرية أي طبيب . ولم يكن لديه قريب آخر غير جدته هذه التي كانت تعيش عيشة بسيطة مع خادمة . وقد فقد أبويه في طفولته فكفلته هي . ويقال إنها لقيت مشاق كثيرة في الماضي ، الا أنها تعيش الآن عيشة مريحة . ولما لم تكن له زوجة ولاأطفال فقد كانت حياته هادئة . ومن الممكن أن يكون ذلك أحد الأشياء الغريبة المعروفة عنه .

كانت القرية تبعد عن البلدة ثلاثين ميلا في طريق البر ، وأكثر من عشرين ميلا في طريق النهر . لهذا كان يستغرق مجيء وي أربعة أيام . وفي تلك القرية القصية كانت مثل هذه

الأمور تعتبر من الأنباء الخطيرة يتصيدها الجميع بلهفة . وفي اليوم التالي أعلن أن العجوز في حالة حرجة ، وان الرسول في الطريق . وعلى أية حال ماتت العجوز قبل الفجر . وكانت آخر كلماتها :

« لماذا لا تدعونني أرى حفيدي ؟ »

كان كبار العشيرة ، وذوو القرابة الأدنون وأعضاء عائلة جدته ، والآخرون مجتمعين في الغرفة منتظرين عودة وي التي ستكون في وقت اقامة المأتم . وقد أعد التابوت والكفن منذ زمن ، ولكن المشكلة الآنية بأي أسلوب يقابلون هذا الحفيد . لأنهم كانوا يتوقعون أنه سيصر على اجراء تغيير في مراسيم الجنازة . وبعد المداولة اتفقوا على ثلاث مواد يجب أن تقبل . أولها يتحتم عليه أن يلبس ثياب الحداد كاملة ، ثانيا أن يسجد على التابوت وثالثاً يجب أن يسمح للرهبان البوذيين والتاويين بأن يتلوا القداس . وباختصار يجب أن تجري هذه بالأسلوب التقليدي .

وحين أجمعوا أمرهم على هذا القرار عزموا على التجمع بكامل قوتهم حين يعود وي الى البيت ليعضد بعضهم بعضا في هذه المفاوضات التي يجب أن تقبل دون قيد ولا شرط . وانتظر القرويون التطورات بشغف وهم يلعقون شفاههم . لقد كان وي « العصري » و« المشايع للعقائد الأجنبية » غير معقول على الدوام . ولا بد من خوض نضال قد يخلق مشهدا فريدا في بابه .

ووصل الى البيت ، كما سمعت ، بعد الظهر ، واكتفى بالانحناء على جثمان جدته وهو داخل . وتصرف الكبار في الحال

وفق الخطة . فقد استدعوه الى البهو وبعد ديباجة طويلة انتهوا الى الموضوع . واذ ذاك تكلموا في اتفاق واطناب غير تاركين له فرصة للنقاش . وفي آخر الأمرعلى أية حال ، نضب ما عندهم من كلام ، وساد القاعة صمت عميق . وكل العيون تثبتت على شفتيه . ولكنه أجاب ببساطة دون أنيغير شيئا من سحنته :

« حسنا . »

وكان ذلك غير متوقع البتة . وأزيح ثقل من أذهانهم ، ومع ذلك فقد أحسوا بأن قلوبهم أثقل من ذي قبل ، لأن ذلك كان غريبا جد ابشكل يثير القلق . كما أن القرويين المتسقطين للأخبار قد خيب ذلك ظنهم ، فكان بعضهم يقول لبعض « غريب قال ' حسنا . ' لنذهب ونراقب . » وقولة وي « حسنا » عنت أن كل شيء أرادوه سيكون المتبع ، وفي هذه الحالة لا يستأهل مراقبة ، ومع ذلك فقد أرادوا أن يتفرجوا ، وبعد الغروب امتلأت القاعة بالمشاهدين الخفاف الروح .

وكنت أحد الحاضرين ، وقد أرسلت في أول الأمر هديتي من البخور والشمع . ولما وصلت كان يكفن المتوفاة رجل نحيل له وجه معروق يخفيه الى حد معين شعره الأشعث ، وحاجبان أسودان ، وشارب . وكانت عيناه تومضان وميضا بغموض وقد كفنت الجثة تكفينا جيدا بمهارة خبير حتى تأثر المشاهدون لذلك . وحسب العادة الجارية في تلك الأنحاء أن أفراد عائلة المرأة المتزوجة المتوفاة يتصيدون الخطأ حتى لوكان كل شيء على مايرام ، ومع ذلك فقد لزم الصمت مذعنا لرغباتهم بوجه خلا من

كل تعبير . وكانت تقف أمامي امرأة بيضاء الشعر فأرسلت زفرة حسد واحترام .

وركع الناس ، ثم أعولوا باكين ، وأخذت كل امرأة ترتل وهي تبكي . وحين وضعت الجثة في التابوت ركع الجميع مرة أخرى ، وانتحبوا ثانية حتى سمر غطاء التابوت . وساد الصمت لحظة ، ثم حدثت حركة دهشة وتبرم . وفجأة عرفت أنا أيضا أن وي لم يذرف دمعة واحدة من البداية حتى النهاية بل جلس على حصيرة التعزية ليس غير ، وعيناه تومضان بغموض .

وفي هذا الجو من الدهشة والتبرم انتهت المراسيم . ولاح المشيعون المتبرمون كأنهم على وشك أن يغادروا ، غير أن وي مازال جالسا على الحصيرة غارقا في تفكير عميق . وفجأة تساقطت الدموع من عينيه ، وانفجر في عويل طويل مثل ذئب جريح يعوي في برية في سكون الليل ، وقد امتزج الغضب والأسى بألمه . ولم يكن ذلك وفق التقاليد المتبعة ، وقد أخذتنا الدهشة على حين غرة ووقعنا في ذهول . وبعد قليل من التردد أخذ بعضهم يحاول اقناعه بأن يكف عن البكاء ، وانضم الى هؤلاء آخرون وآخرون حتى كان في آخر الأمر محاطا بجمهور . غير أنه ظل يعول هناك بلا حراك كتمثال صنع من حديد .

وانفض الجمع بشعور من التخاذل . واستمر وي يبكي قرابة نصف ساعة ، ثم توقف فجأة ، ودخل الى البيت دون أن يقول كلمة للمعزين . وفيما بعد قال الذين شاهدوه انه دخل الى غرفة جدته ، واستلقى على السرير ، وبعد لحظة

غط في نوم عميق .

وبعد يومين ، في عشية عودتي الى البلدة سمعت القرويين يتناقشون بلهفة وكأنما تملكهم عفريت ، كيف أن وي عقد النية على حرق معظم أثاث جدته المتوفاة واهبا بقيته الى الخادمة التي خدمتها في حياتها ، ولازمتها وهي على فراش الموت . وحتى البيت أعير للخادمة الى أمد غير محدود . وقد تجادل أقرباء وي فيما بينهم بشدة ، غير أنهم لم يستطيعوا زحزحته عن قراره .

وقد مررت ببيته في طريق عودتي ، لعل ذلك بدافع الفضول ، ودخلت لأعزيه ، فاستقبلني وهو يرتدي ثياب حدا دبيضاء لا حواشي فيها ، وكانت سحنته باردة كماهي دائما . وقد ناشدته بأن لا يتأثركثيرا ، ولكن كل ما قاله بالاضافة الى وضعه المبهم والمتحلل من الالتزامات الأدبية :

« شكرا على اهتمامك . »

— ٢ —

التقينا في أوائل ذلك الشتاء للمرة الثالثة . وكان اللقاء في مخزن كتب في « س » ، حيث هز أحدنا رأسه للآخر في آن واحد دلالة على أن أحدنا يعرف الآخر على الأقل . ولكننا لم نصبح أصدقاء الا في نهاية ذلك العام حين فقدت عملي . منذ ذلك الحين زرت وي زيارات كثيرات . فأولا ، بالطبع ، لم يكن لي أي عمل أقوم به ، وثانيا قيل ان له عطفا على الأشقياء

رغم تحفظه المألوف ، ومع ذلك ، والحظ فى تقلب ، فان الأشقياء لايمكن أن يظلوا في حظ ساقط الى الأبد ومن هنا لم يكن له من الأصدقاء الثابتين غير القليل . وقد ثبتت صحة القول ، ذلك لأنه قد استقبلني دون تأخير بعدما أرسلت اليه بطاقتي الشخصية . كانت غرفة الاستقبال في بيته تتألف من غرفتين وصلت احداهما بالأخرى ، عارية تماما من كل حلية ، ولم يكن فيها غير منضدة ، وبضعة كرا سي ، وبعض خزانات للكتب . ورغم أنه معروف بـ« عصريته » المفزعة فلم يكن على الرفوف من الكتب العصرية غير القليـل ، وكان يعرف أنني فقدت عملي ، ولكن بعد تبادل عبارات المجاملة المعتادة جلس الضيف والمضيف صامتين لا يتحدث أحدهما بشيء للآخر . وقد لاحظت أنه قد أنهى لفافته بسرعة شديدة ، ولم يلقها على الأرض الاحين كادت تحرق أصبعيه .

وقال فجأة وهو يتناول لفافة أخرى : « خذ واحدة . »

فأخذت واحدة ، وبين نفثات الدخان تحدثنا عن التعليم والكتب . ومع ذلك لم نجد ما نقوله غير النزر القليل . وكنت أفكر في المغادرة حين سمعت صيحات ووقع أقدام خارج الدار ، واندفع أربعة أطفال كان أكبرهم في نحو الثامنة أو التاسعة وأصغرهم في نحو الرابعة أو الخامسة . وكانت وجوههم وأيديهم وملابسهم قذرة جدا ، وكانوا مزعجين تماما ، ومع ذلك فقد أضاء الحبور وجه وي ، ونهض في الحال ، وذهب الى الغرفة الأخرى قائلا :

«تعال يا تاه ليانغ ، واره ليانغ ، وأنتم جميعا ! لقد اشتريت لكم المعازف التي أردتموها يوم أمس . »

واندفع الأطفال داخلين خلفه ، وعادوا وكل واحد منهم يحمل معزفا صغيرا ولكنهم ماان خرجوا حتى أخذوا يتشاجرون ، وبكى أحدهم ، فقال وي وهو يتبعهم :

« لكل واحد معزف . وكلها متشابهة تماما فلا تتشاجروا ! »

وسألت : « أطفال من هؤلاء ؟ »

« أولاد صاحب البيت . وليست لهم أم ، بل جدة ليس غير . »

« صاحب بيتك أرمل ؟ »

« نعم ، ماتت زوجته قبل ثلاث سنوات أو أربع ولم يتزوج من جديد . ولو لا ذلك لما أجر غرفه الزائدة لعزب مثلي . » قال ذلك بابتسامة باردة .

لقد تملكتني رغبة شديدة في أن أسأله لماذا بقي عزبا طوال هذه المدة ، ولكن لم تكن أسباب معرفتي به قد توطدت .

وحين تتوطد المعرفة به تجده متحدثا جيدا . وكان مملوءا بالأفكار ولكن كثيرا منها مدهش جدا . وكان الذي ينفرني عنده هو بعض ضيوفه . فقد كانوا دائما يصفون أنفسهم بـ «الشبان التعساء » أو « المبنوذين » ، ولعل ذلك نتيجة قراءتهم لقصص يوتافو العاطفية (١) ، ويتمددون على الكراسي الكبيرة مثل سراطين الماء الكسالى المتعجرفة ، ويتأوهون ، ويدخنون ، ويقطبون جميعا

---

(١) كاتب معاصر للوشين كتب عن الشبان المكبوتين .

في نفس الوقت .

ثم كان هناك أطفال صاحب البيت الذين كانوا دائما يتشاجرون فيما بينهم ، ويقلبون الطاسات والصحون ويستجدون الكعك ، محدثين ضجة تصم الآذان ، ومع ذلك فقد كان منظرهم على الدوام يبدد برودة وي المعتادة وكانوا ، كما يبدو ، أغلى شيء في حياته . وذات مرة قيل ان الطفل الثالث أصيب بالحصبة. وقد قلق عليه قلقا شديدا حتى اكتسى وجهه الداكن لونا أشد دكنة . وكانت الاصابة خفيفة على أية حال ، وفيما بعد أخذت جدة الأطفال تنكت على قلقه .

وذات يوم انتهز مناسبة ليقول : « الأطفال دائما طيبون ، وكلهم بريئون جدا . » والظاهر أنه أحس بنفاد صبري .

أجبت متجاهلا : « ليس دائما . »

« دائما . فالأطفال ليست لهم أخطاء الكبار . واذا ساء سلوكهم الذي تتهجم عليه دائما فهو من تأثير بيئتهم العفنة . فبالأصل ليسوا سيئين ، بل طويتهم سليمة . . . أعتقد أن أمل الصين الوحيد يكمن في هذا . »

« أنا لا أتفق معك . فكيف يمكن أن يأتوا ثمار الشر في الحياة المقبلة دون أن تكون فيهم جذور شر ؟ خذ بذرة على سبيل المثال . فلأنها تحمل جنين الأوراق والازهار والثمار يمكن أن تتفتح عن هذه الأشياء . واذا لم تكن ثمة علة . . . » ومنذ ان تعطلت عن العمل أخذت أقرأ الكتب البوذية ، تماما مثل أولئك الموظفين الكبار الذين استقالوا من المناصب ، وانشغلوا

في البوذية . ومع ذلك فلم أكن أفهم الفلسفة البوذية بل أرسل القول على عواهنه .

وعلى أية حال استاء مني وي . فرمقني بنظرة ، ولم يقل شيئا . ولم يكن في وسعي أن أعرف أ هناك شيء لديه يقوله ؟ أم أحس أن لا فائدة من الجدل معي . ولكنه بدا عليه البرود ثانية ، وهو أمر لم يبد عليه منذ زمن طويل . وقد دخن في صمت لفافتين واحدة بعد أخرى . وحين تناول الثالثة لم أجد بدا أن أنسحب من المجلس .

ودام تباعدنا ثلاثة أشهر . ثم لسبب راجع بعضه الى النسيان ، وبعضه الآخر الى أنه قد تخاصم مع أولئك الأطفال « البريئين » اعتبر ملاحظاتي الخفيفة معذورة ، أو هكذا خمنت . وقد حدث هذا في بيتي ذات يوم بعد الشراب حين رفع رأسه بنظرة قلقة وقال :

« تعال فكر في الأمر ، انه غريب حقا . التقيت في طريقي الى هنا بطفل في يده ورقة شجرة أشاربها الي صائحا : "أقتل". لقد كان طفلا يحبو ليس غير . . . »

« لابد من أن محيطه قد عفنه . »

وما ان قلت هذا حتى وددت أن أسحبه . ومع ذلك فلم يبد أنه قد اهتم بل مضى يشرب بكثرة ، ويدخن بين ذلك بشراهة .

قلت محاولا أن أغير الموضوع : « أردت أن أسألك : أنت لا تزور الناس في العادة ، فما الذي حملك على المجيء اليوم ؟ أنا أعرفك منذ أكثر من سنة ومع ذلك فهذه هي المرة الأولى التي تجيء فيها الى هنا . »

« لقد كنت أهم في أن أقول لك : لا تزرني في الوقت الحاضر ، ففي بيتي أب وابن هما كآفتين تماما . لا يكادان يكونان انسانين.»

سألت مندهشا : « أب وابن ؟ من هما ؟ »

« ابن عمي وابنه . حسنا الابن يشبه الأب . »

« أخمن أنهما جاءا الى البلدة لرؤيتك ، وقضاء وقت طيب.»

« لا ، لقد جاءا يستميلانني لتبني الولد . »

صحت في دهشة : « ماذا ؟ لتبني الولد ؟ ولكنك غير متزوج . »

« هما يعرفان أنني غير متزوج ولن أتزوج . ولكن لا يهمهما ذلك . وفي الحقيقة أنهما يريدان أن يرثا ذلك البيت المتداعي الذي أملكه أنا في القرية . وليس لي ملك آخر ، كما تعلم ، وكلما حصلت على مال أنفقه . وليس لي غير ذلك البيت . وهدفهما في الحياة هو طرد الخادمة العجوز التي تعيش في البيت في الوقت الحاضر . »

وأدهشني حقده البالغ ، وقد حاولت ، على أية حال ، أن أهدئه بقولي :

« لا أظن أن أقرباءك يمكن أن يكونوا على هذا النحو من السوء . انهم من طراز قديم فحسب . فمثلا في تلك السنة حين بكيت بمرارة فقد تقدموا متلهفين يستعطفونك . . . »

« حين كنت طفلا وتوفي أبي بكيت بكاء مرا لأنهم كانوا يريدون أخذ البيت مني ، وحملي على التوقيع بامضائي على وثيقة فتقدموا متلهفين واستعطفوني . . . » ورفع بصره وكأنه

يبحث في الهواء عن ذلك المنظر الذاهب .

« ان المحير في الأمر هو أنه ليس لك أولاد . فلماذا لا تتزوج ؟ » وهنا وجدت طريقة لتغيير الموضوع ، ثم ان هذا شيء أردت أن أسأله عنه منذ زمن بعيد . وقد بدت فرصة رائعة .

نظر الي في اندهاش ، ثم ألقى ببصره الى ركبتيه ، وطفق يدخن . ولم أتلق جوابا عن سؤالي .

— ٣ —

حتى هذا الوجود الخاوي لم يسمح له في أن يقضيه بسلام . وبالتدريج ظهرت هجمات من غير توقيع في صحف ذات حظ قليل من الشهرة ، وانتشرت اشاعات في المدارس تتعلق به . ولم تكن هذه أقاويل بسيطة من أقاويل الأيام السالفة بل كانت كيدا مدبراً بحذق — وكنت أعرف أن ذلك نتيجة المقالات التي عكف على كتابتها للمجلات ، فلم ألق اليها اهتماما . وكان مواطنو « س » لا يكرهون شيئا أكثر من كرههم للجدل الجريء ، وكل من يجادل يصبح بلا ريب غرضا للهجمات السرية . وكانت هذه قاعدة ، ووي يعرفها أيضا . ومع ذلك ففي الربيع حين سمعت بأن سلطات المدرسة قد طلبت منه أن يستقيل أعترف بأني أصبت بدهشة ولكن لم يكن داعيا الى الدهشة ، فقد كنت آمل بأن في وسع صديقي أن يتخلص . فان مواطني « س » لم يبرهنوا بكيدهم له على أنهم أكثر شرا مما هم في العادة .

وكنت اذذاك مشغولا بمشاكلي الخاصة مجريا المفاوضات لأن أذهب الى مدرسة في شان يانغ في ذلك الخريف ، لهذا لم يكن عندي متسع من الوقت لزيارته . ولم يكن لي وقت فراغ الا بعد أن انقضت قرابة ثلاثة أشهر ، وحتى اذذاك لم يحدث أن زرته . وذات يوم وأنا أمر في الشارع الرئيس صادف أن توقفت أمام كشك لبيع الكتب المستعملة ، وهناك أفزعني أن أرى من بين المعروضات طبعة قديمة لكتاب « التعليقات على مذكرات التاريخ » (١) من مجموعة كتب وي ، ولم يكن وي من أهل الخبرة ، بل كان شغوفا بالكتب ، وأنا أعرف أنه كان معجباً بهذا الكتاب كثيرا على وجه الخصوص فلا بد من أنه كان في ضائقة شديدة فاضطر لبيعه . ولكن من غير الممكن تقريبا أن يصبح فقيرا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من فقده عمله ، مع أنه كان ينفق جميع ما كان يحصل عليه من المال دون أن يوفر شيئا . لهذا عزمت على زيارته . واشتريت من نفس الشارع زجاجة مشروب وعلبتين من الفول السوداني ، ورأسي سمك مقددين.

وكان الباب مغلقا . فناديت مرتين ، ولكن دون جواب . وظننت أنه نائم فناديته بصوت أعلى ، وأنا أطرق على الباب في نفس الوقت .

« لعله في الخارج . » أخرجت جدة الأطفال رأسها الأشيب من النافذة المقابلة . وتكلمت بضيق . وكانت امرأة سمينة ولها

(١) مؤلف هذه الكتاب هو سو ما تشين من عهد أسرة تانغ الملكية (٦١٨–٩٠٧).

عينان صغيرتان .

سألت : « أين ذهب ؟ »

« أين ؟! من يدري أين ذهب ؟ يمكنك أن تنتظر فسيأتي قريبا . »

وهكذا دفعت الباب ، وذهبت الى غرفته المعدة للاستقبال . وكانت متغيرة تغيرا كبيرا فلاحت مهجورة بما فيها من فراغ . ولم يبق فيها الا أثاث قليل ، بينما لم يبق من مكتبته غير تلك الكتب الأجنبية التي لا يمكن بيعها . وكان وسط الغرفة مازالت تحتله المنضدة المستديرة التي كان يتجمع حولها في الماضي أولئك الشبان الشهام ، العباقرة غير المعترف بهم ، والأطفال القذرون الصخابون . والآن بدا كل شيء هادئا ، وكان على المنضدة طبقة خفيفة من الغبار . فوضعت الزجاجة والعلبتين ، وسحبت كرسيا وجلست الى المنضدة في مواجهة الباب .

وبعد وقت قصير جدا فتح الباب ، ودخل شخص صامتا كالظل . وكان ذلك وي . ولعل الغسق جعل وجهه يبدو قاتما ، غير أن سحنته لم تتغير .

« آه . هذا أنت ؟ كم مضى عليك من الوقت وأنت هنا ؟ » سأل وبدا مسرورا .

قلت : « ليس وقتا طويلا جدا . أين كنت ؟ »

«لم أكن في أي مكان على وجه الخصوص ، بل كنت أتمشى فقط . »

وسحب كرسيا ، وجلس الى المنضدة . وبدأنا نشرب ، ونتحدث عن فقده عمله . ومع ذلك فلم يهتم في الكلام عنه

كثيرا ، واعتبره شيئا كان متوقعا . وقد مر بكثير من الحالات المشابهة ، فليس ذلك غريبا على الاطلاق ، ولا يستأهل نقاشا . وكالعادة شرب كثيرا ، وخاض في حديثه عن المجتمع ودراسة التاريخ . وقد جعلني شيء ما أنظر رفوف الكتب الخالية ، واذ تذكرت كتاب « التعليقات على مذكرات التاريخ » ، شعرت بوحشة خفيفة وحزن .

« لغرفتك منظر مقفر . . . هل زارك زوار قليلون في المدة الأخيرة ؟ »

« لا واحد على الاطلاق . فهم لا يستظرفونني حين أكون في مزاج غير صاف . ان المزاج غير الصافي بالتأكيد يجعل الناس غير مرتاحين تماما مثلما لا يذهب أحد من الناس الى الحدائق في الشتاء . . . »

وشرب جرعتين من الشراب بالتالي ، ثم صمت . وفجأة رفع بصره وسأل : « أظن أنك أيضا لم يكن لك حظ في ايجاد عمل ؟ »

وعلى الرغم من أنني أعرف أنه كان ينفس عن مشاعره نتيجة لتأثير الشراب ، فقد شعرت بالحنق على الطريقة التي يعامل الناس بها . وكنت أهم بأن أقول شيئا حين أرهف سمعه ، ثم غرف بعض الفول ، وخرج . وكان في الوسع سماع ضحك الأطفال وصيحاتهم في الخارج .

ولكن ما ان خرج حتى هدأ الأطفال . وبدا ذلك كأنهم قد انصرفوا . ومشى في أثرهم ، وقال شيئا ، ولكن لم يكن

في وسعي أن أسمع ردا . ثم عاد صامتا كالظل وأعاد غرفة الفول الى موضعها من العلبة .

وقال بسخرية في صوت واطىء : « هم لا يريدون أن يأكلوا أي شيء أعطيه لهم . »

« أوه ، يا وي ، » قلت وأنا أتكلف ابتسامة رغم ألم قلبي : «أظن أنك تعذب نفسك من غير ضرورة . لماذا تسيء الظن بأصحابك على هذا النحو ؟ »

ولم يكن منه الا أن ابتسم بسخرية :

« أنا لم أكمل حديثي بعد . أحسب أنك تعتبر الناس من أمثالي الذين يأتون الى هنا بين حين وآخر لا يفعلون ذلك الا قصد تزجية الوقت أو تسلية نفوسهم على حسابك ؟ »

« لا ، لا أعتبر هذا كذلك الا في بعض الأحيان ، لعلهم يأتون ليجدوا شيئا يتحدثون عنه . »

قلت متأففا : « إنك على خطأ . فالناس ليسوا على هذه الشاكلة . وانك في الحق تغلف نفسك في شرنقة . ينبغي أن تنظر نظرة أبهج . »

« ربما . ولكن خبرني . من أين جاء غلاف الشرنقة ؟ بالطبع هناك كثير من الناس على هذا النحو : خذ مثلا جدتي . فرغم أن ليس في عروقي شيء من دمها فقد أرث مصيرها . ولكن لا يهم . لقد بكيت كبكائي على مصيرها . . . »

واذذاك تذكرت ما حدث في مأتم جدته ، حتى أكاد أراه الآن أمام عيني .

قلت بكلال : « مازلت غير فاهم لماذا بكيت بمرارة شديدة . »

أشعل مصباحا وقال : « تقصد في مأتم جدتي ؟ سأقول لك . . لماذا بكيت ؟ أنت لا تفهم . . . أحسب أننا بسبب ذلك أصبحنا صديقين . » قال بهدوء : « أنت تعرف أن هذه الجدة كانت الزوجة الثانية لجدي . فقد ماتت أم أبي حين كان في الثالثة من العمر . » وغرق في التفكير ، وشرب بصمت ، واتى على رأس سمك .

« لا أعرف كيف أبدأ . فقط ، منذ طفولتي كنت أشعر بأن الأشياء تبدو مبهمة . وفي ذلك الحين كان والدي لم يزل على قيد الحياة ، وكانت عائلتنا في يسار . وخلال السنة الجديدة القمرية كنا نعلق تماثيل الاسلاف ، ونقدم قرابين كثيرة . وكانت احدى متعي النادرة أن أنظر الى تلك التماثيل التي ألبست ببهاء . وفي ذلك الوقت كانت احدى الخادمات تحملني دائما الى احد التماثيل ، وتشير اليه وتقول : "هذه جدتك الحقيقية . فانحن لها حتى تصونك ، وتجعلك تشب قويا معافى ." وليس في وسعي أن أفهم كيف أصبحت لي جدة أخرى بالاضافة الى الجدة التي الى جانبي . ولكنني أحببت تلك الجدة التي كانت "جدتي الحقيقية" . ولم تكن كبيرة السن كجدتي الموجودة في البيت . وكانت شابة جميلة ترتدي بدلة حمراء موشاة بالذهب ، ومتوجة باكليل محلى باللآلىء . فكانت تشبه أمي . وحين أنظر اليها تبدو عيناها كأنهما تحدقان بي ، وتظهر ابتسامة خفيفة

على شفتيها . وكنت أعرف أنها شغوفة بي أيضا .

ولكنني كنت أحب الجدة الموجودة في البيت أيضا ، فقد كانت تجلس طوال اليوم تحت النافذة تعمل بإبرتها . ومع ذلك فمهما ضحكت ولعبت بمرح أمامها ، أو ناديتها لم يكن بوسعي أن أجعلها تضحك ؛ وذلك جعلني أشعر أنها كانت جد باردة ، مختلفة عن جدات الأطفال الأخريات . ومع ذلك كنت أحبها . وفيما بعد أخذ ميلي نحوها يبرد بالتدريج لا لأن السن قد تقدمت بي ، وعرفت أنها ليست جدتي الحقيقية ، بل بالأحرى لأنني قد ضقت ذرعا بالطريقة التي تظل فيها تخيط ، بصورة آلية يوما بعد يوم . ولم تتغير على أية حال . بل كانت تخيط ، وترعاني ، وتحبني وتحميني كالسابق ؛ ورغم أنها لا تبتسم الا نادرا الا أنها لم تزدجرني قط . وكان الشيء نفسه بعد وفاة أبي ، وفيما بعد كنا نعيش كليا على خياطتها ، وظلت الحال على هذا النحو حتى ذهبت الى المدرسة . . . »

وخفق النور في مصباح الكيروسين ، وانطفأ ، ونهض المصباح مجددا من ابريق صغير من القصدير موضوع تحت دولاب الكتب .

« ارتفع سعر الكيروسين الى الضعف في هذا الشهر . » قال ذلك ببطء ، وقال بعد أن أدار الفتيلة : « ستصبح الحياة أقسى في كل يوم يمر . لقد بقيت على حالها حتى تخرجت في المدرسة وحصلت على عمل ، حين أصبحت حياتنا مضمونة أكثر . ولم تتغير ، على ما أظن ، الا بعد أن مرضت ، ولم

تستطع أن تستمر في أمرها ، فكان عليها أن تلازم الفراش . . .

« وأحسب أنها ، في أيامها الأخيرة ، لم تكن بائسة جدا على وجه الاجمال . وقد عاشت عمرا مديداً ، ولا حاجة بي الى النحيب عليها . وفضلا عن ذلك ألم يكن هناك كثير من الآخرين قد تلهفوا للنحيب ، وحتى أولئك الذين حاولوا كل ما في وسعهم الاعتداء عليها قد انتحبوا ، أو ظهر أنهم انحنوا في أسى . »

وضحك : « وعلى أية حال ، ظهرت أمامي حياتها كلها — حياة من خلقت الوحدة لنفسها ، وذاقت مرارتها وشعرت أن هناك كثيرين على هذه الشاكلة . فأردت أن أبكي لهم ؛ ولكن لعل ذلك بصورة رئيسة لأنني كنت عاطفيا جدا . . .

« ورأيك الحالي عني هو نفس الرأي الذي كنت أحمله نحوها . غير أن أفكاري في ذلك العهد كانت خاطئة في الواقع . أما عن نفسي أنا فمنذ أن شببت بردت مشاعري نحوها . . . »

وتوقف ثم غرق في تفكير واللفافة بين أصبعيه ، ورأسه مطرق . وخفق ضوء المصباح .

« أجل . من الصعب أن تعيش بحيث لا يبكي أحد على موتك . » قال ذلك كأنما يحدث نفسه . وبعد أن توقف قليلا رفع بصره الي وقال : « أحسب أنك لا تقدر على مساعدتي ، ينبغي أن أبحث عن شيء أفعله قريبا جدا . »

« أ ليس لديك أصدقاء آخرون يمكن أن تطلب منهم ؟ »

وكنت في وضع لا أستطيع معه أن أساعد نفسي فكيف بالآخرين .

« كان عندي عدة أصدقاء ولكن ظروفهم لم تكن أحسن . »

وحين انصرفت منه كان البدر بتمامه عاليا في السماء . وكان الليل شديد السكون .

— ٤ —

ولم تكن المدارس في شان يانع على ما يرام ، بل كانت في ضيق وعسر فقد درست شهرين دون أن أتلقى فلسا واحدا ، حتى اضطررت الى التقليل من اللفائف . ولكن موظفي المدرسة حتى أولئك الذين يكسبون خمسة عشر أو ستة عشر دينارا في الشهر ، كانوا في قناعة يسيرة . وكانت لهم أجسام تمرست بالبؤس والفقر ثم اصبحت كأنها مصنوعة من حديد ، رغم نحافتهم وشحوبهم ، فهم يعملون من الصباح حتى الليل ؛ واذا دخل رؤساؤهم عليهم وهم في العمل نهضوا اجلالا لهم . وهكذا كان جميعهم يعيشون في قناعة بسيطة ، وخشوع بالغ . وذلك ، على أية حال ، ذكرني بكلمات وي عند الفراق . وكان اذذاك أكثر عسرا في العيش ، وغالبا ما يبدو مرتبكا ، وقد فقد ، كما هو ظاهر ، سخريته السابقة . وحين سمع أنني سأغادر جاء في وقت متأخر من الليل ليودعني ، وبعد أن تردد قليلا تمتم قائلا :

« هل سيكون لي شيء هناك ؟ حتى عمل استنساخ براتب عشرين أو ثلاثين دينارا شهريا يمكن أن ينفع ، أنا . . . »

ودهشت . ولم يطرأ على بالي أنه سيفكر في شيء واطىء ، ولم أعرف كيف أجيب .

« أنا . . . علي أن أعيش مدة أطول قليلا . . . »

« سأنظر حين أصل الى هناك ، سأبذل قصارى الجهد . »

وذلك ما وعدت به في حينه ، بل أن الكلمات أخذت ترن في أذني فيما بعد كأنما وي كان أمامي يتمتم : « علي أن أعيش مدة أطول قليلا . » وحاولت أن أجعل مختلف الناس يهتمون بقضيته ، ولكن دون جدوى . وكانت هناك وظائف قليلة ، وكثير من الباهلين بلا عمل ، وكانوا جميعا ينتهون الى الاعتذار بأنهم غير قادرين على العون وكان علي أن اكتب له رسالة اعتذار وفي نهاية الفصل تردت الأمور من سيء الى أسوأ . وأخذت مجلة « العقل » التي يحررها بعض الأعيان المحليين تهاجمني . ولكنها لم تذكر أي اسم ، بل قد لمح بشكل لبق الى أنني أبذر روح التمرد بين طلاب المدرسة ، وحتى تقديمي لوي فسر على أنه مبادرة لجمع زمرة حولي .

وهكذا كان علي أن أظل ساكنا . وماعدا حضوري للدروس كنت أدفن نفسي في غرفتي وفي بعض الأحيان كنت أخاف حتى من أن يعتبر تسرب دخان لفافتي من النافذة ضربا لاثارة الضوضاء . وطبيعي انني لم أستطع أن أفعل شيئا لوي . وقد استمرت هذه الحال حتى منتصف الشتاء .

كان الثلج ينزل طوال النهار ، ولم يتوقف حتى المساء . وفي الخارج كان السكون شاملا حتى لتكاد تسمع السكون . وأغمضت عيني ، وجلست في ضوء المصباح الكابي لا أفعل شيئا ، سوى أني أتخيل نثار الثلج المتساقط مالثانهيرات الثلج التي لا حدود لها . وسيحل العام الجديد قريبا في مسقط رأسي أيضا وسيكون كل واحد

مشغولا . ورأيت نفسي قد عدت طفلا ثانية ، أصنع انسانا من الثلج مع جماعة من الأطفال على الأرض المسطحة في الفناء الخلفي . وعينا رجل الثلج المصنوعتين من قطع الفحم السوداء انقلبتا فجأة الى عيني وي .

« علي أن أعيش مدة أطول قليلا » نفس الصوت مرة أخرى .

« لأي شيء ؟ » سألت وأنا شارد الفكر . وفي الحال شعرت بسخافة ملاحظتي .

وهذا الجواب هو الذي أيقظني . وجلست معتدلا وأشعلت لفافة ، وفتحت النافذة لأجد الثلج يتساقط بغزارة أشد . ثم سمعت دقا على الباب ، وفتحته بعد لحظة ليدخل منه الخادم الذي أعرف وقع أقدامه . وأعطاني مغلفا كبيرا طوله اكثر من ست عقد . وكان العنوان مكتوبا بعجالة ، غير أنني رأيت اسم وي عليه . كانت هذه هي الرسالة الأولى التي يكتبها الي منذ أن غادرت « س » . ولأنني أعرف أنه لا يتراسل لم أكن مستغربا من صمته ، وفي بعض الأحيان فقط كنت أشعر بأن عليه أن يزودني ببعض أخباره . ولهذا كان تسلمي لهذه الرسالة مفاجأة لي تماما . وفضضت الغلاف . وكانت الرسالة مكتوبة بعجالة ، وهي :

... شن – في :

كيف ينبغي أن أخاطبك ، فلأترك فراغا لتملأه أنت بما تشاء . فالأمر عندي سواء .

لقد تلقيت ثلاث رسائل منك بالمجموع . ولم أرد عليها لسبب واحد بسيط

هو : انني لا أملك حتى فلوس الطوابع .

لعلك تحب أن تعرف ماذا حصل لي . وأقول ببساطة : انني قد فشلت . لقد ظننت أنني قد فشلت من قبل ، ولكنني كنت على خطأ اذذاك ؛ أما الآن ، فأنا ، على أية حال ، خائب . وفي الماضي كان هناك بعض الناس يريد لي أن أعيش مدة أطول قليلا ، وكنت أنا راغبا في ذلك أيضا ، ولكنني وجدت ذلك عسيرا ، والآن لا رغبة لأحد في هذا . ومع ذلك ، ينبغي أن أعيش . . .

فهل سأعيش ؟

ان الشخص الذي أراد لي أن أعيش مدة أطول قليلا ،لم يستطع هو نفسه أن يعيش . فقد وقع في الشرك ، وقتله العدو . من قتله ؟ لا أحد يدري .

تغيرات تحصل بسرعة خاطفة ! في خلال النصف الأخير من العام كنت في واقع الحال شحاذا ؛ وتلك حقيقة وقعت وفي الامكان اعتباري شحاذا . وعلى أية حال كنت متمسكا بأمنيتي . لقد كنت راغبا في أن ألتمس هدفا ساميا أبرد وأجوع من أجله ، أن أكون وحيدا من أجله ، أن أعاني العسر في سبيله . ولكنني لم أرد أن أدمر نفسي . ومن هنا ترى أن حقيقة وجود شخص يريد لي أن أعيش كانت فعالة جدا . ولكن الآن لا أحد ، لا أحد . وفي نفس الوقت أشعر أنني لا استحق الحياة ، كما لا يستحقها بعض الناس أيضا في رأيي . ومع ذلك فأنا شاعر بالحاجة الى أن أعيش رغم أولئك الذين يتمنون موتي ؛ لأنه على الأقل لم يبق أحد يريد أن أعيش بصورة لائقة ، ولهذا ليس من أحد يمكن أن يتألم لذلك . وأنا لا أريد أن أؤذي مثل أولئك الناس . ولكن الآن ما من أحد ، ما من أحد . فيا للمسرة ! يا للروعة ! أنا الآن أفعل ما كنت أنفر منه في الماضي وأعترض عليه . وأنا الآن أتخلى عن كل ما كنت أؤمن به في الماضي وأتمسك . لقد فشلت حقا ولكن ربحت .

هل تظن أنني مجنون ؟ هل تظن أنني أصبحت بطلا أو رجلا عظيما ؟ لا ، ليس هذا . ان الأمر بسيط جدا . لقد أصبحت مستشارا للجنرال تو . ومن هنا أصبح لي راتب شهري مقداره ثمانون دينارا .

. . . شن – في !

ما هو رأيك في ؟ قرر . فالأمر عندي سواء .

لعلك ما تزال تذكر غرفة الاستقبال في بيتي ، الغرفة التي تحدثنا فيها الأحاديث الأولى ، والأحاديث الأخيرة . انا ما أزال أستعملها . وهناك ضيوف جدد ، ورشى جديدة ، وتزلف جديد ، وسعي جديد للترقية ، وسجدات وانحناءات جديدة وألعوبة جديدة ، ولعب وشرب ، وعجرفة جديدة وقرف ، وأرق جديد ، وتقيء دم . . .

لقد قلت في رسالتك الأخيرة أن تدريسك لا يجري بصورة جيدة ، فهل تحب أن تكون مستشارا ؟ فه بالكلمة ، وسأدبر الأمر لك . وسيكون هناك نفس الضيوف ، والرشى ، والتزلف . . .

ينزل الثلج بغزارة هنا . فكيف الحال عندك ؟ ان الليل قد انتصف ، وتقيؤ قليل من الدم أعاد لي الصحو . وأتذكر أنك قد كتبت لي ثلاث رسائل على التوالي منذ الخريف . هذا رائع ! لهذا فعلي أن أزودك ببعض أخباري ، مؤملا أن لا تصدم .

لعلي لا أكتب لك ثانية : فأنت تعرف طرائقي القديمة . متى ستعود ؟ اذا عدت قريبا فقد نلتقي ثانية . وما أزال أحسب أننا سلكنا سبيلين مختلفين ، لهذا كان من الأفضل أن تنساني . أشكرك من صميم قلبي على محاولتك لايجاد عمل لي . ولكن الآن أرجوك أن تنساني ، فأنا في « خير » .

وي لين شو
١٤ كانون الأول

ورغم أن هذه الرسالة لم « تصدمني » حين قرأتها بعناية بعد أن تصفحتها بعجالة ، الا أنني شعرت بعدم ارتياح وبفرج معا . وعلى الأقل لقد ضمنت معيشته ، ولا حاجة لأن أقلق عليه بعد الآن . ومهما يكن من شيء فلم يكن في وسعي أن أفعل شيئا هنا . وفكرت في الكتابة اليه ، غير أنني شعرت بأن ليس هناك شيء يقال .

وفي الحقيقة أخذت أنساه بالتدريج . ولم يعد وجهه يقفز

الى فكري كثيرا جدا . وعلى أية حال بعد أقل من عشرة أيام من قراءتي رسالته ، أخذ مكتب مجلة « س » الأسبوعية يرسل صحيفته الي . ومن عادتي لم أكن أقرأ مثل هذه الصحف ، ولكن مادامت ترسل الي كنت أنظر في بعض محتوياتها . وقد ذكرني ذلك بوي لأن الصحيفة كانت تحمل باستمرار أشعارا ومقالات عنه . مثل « زيارة السيد وي في الليل عند عاصفة ثلج » و« اجتماع الأدباء في مكتب المستشار وي » وما أشبه ذلك . وذات مرة ، قرأت تحت باب « حديث مائدة » حكوا بتلذذ قصصا معينة كانت في الماضي تعتبر مادة للضحك ، ولكنها الآن أصبحت « قصصا عن عبقري غريب الأطوار » فان الرجل الشاذ وحده كما ذكر ، هو القادر على الاتيان بأشياء غير اعتيادية كهذه .

ورغم أن ذلك قد ذكرني به ، فان انطباعي عنه أخذ يتضاءل . ومع ذلك فطوال الوقت كان يبدو أنه يزداد سلطانا علي ، وولد ذلك في نفسي شعورا غامضا والقى ظلا من الخوف . وعلى أية حال كفت الصحيفة عن المجيء الي في الخريف بينما بدأت مجلة شان يانغ تنشر بصورة متتابعة مقالة طويلة بعنوان : « عنصر الحقيقة في الشائعات » أكدت أن الشائعات حول بعض السادة قد وصلت الى سمع ذوي القدرة . وكان اسمي بين الأسماء التي هوجمت . فكان علي اذن أن أكون حذرا جدا ، وعلي أن أحذر من أن يتسرب دخان لفافتي الى الفناء . وقد استغرقت كل هذه الاحتياطات زمنا طويلا ولم يكن في ميسوري أن أحضر أي مكان ، وطبيعي أن لا يكون لي وقت فراغ للتفكير

في وي . وقد نسيته في الواقع .

وعلى أية حال لم أستطع أن أحتفظ بعملي حتى الصيف ، ففي نهاية أيار تركت شان يانغ .

— ٥ —

تنقلت ما بين شان يانغ وليتشنغ وتايكو أكثر من نصف عام ، ولكن لم أستطع أن أجد عملا فقررت العودة الى « س » . وقد وصلتها في يوم من أيام الربيع الباكر بعد الظهر وكان يوما غائما ، وكل شيء قد لفه الضباب . ولما كانت هناك غرف فارغة في فندقي القديم فقد نزلت فيه . وفي الطريق بدأت أفكر في وي ، وبعد وصولي عزمت على زيارته بعد العشاء . وأخذت معي علبتين من كعك ونشي المعروف ، وسلكت طريقي عبر كثير من الشوارع الرطبة ، وأنا أسير بحذر مارا بكثير من الكلاب النائمة حتى وصلت الى الباب . وكان ما وراء الباب يبدو مضيئا جدا . وحتى غرفته حسبتها أضوأ منذ أصبح مستشارا . وابتسمت لنفسي . وعلى أية حال عندما رفعت بصري رأيت قطعة من ورق بيضاء (١) ملصقة في الباب . وقد خطر ببالي ، وأنا أدخل ، أن جدة الأطفال ربما قد ماتت ؛ بيد أنني مضيت قدما الى الداخل .

وكان في الساحة الكابية الضوء تابوت وقف الى جانبه جندي

(١) اللون الابيض هو لون الحداد في الصين . والورقة البيضاء على الباب تدل على ان في البيت ميتا .

يتحدث الى جدة الأطفال . كما كان هناك بعض العمال في معاطف قصيرة يتلكئون . وبدأ قلبي يدق بسرعة واذذاك التفتت الجدة لتنظر الي .

وهتفت فجأة : « آه . لقد عدت ؟ لماذا لم تعد في وقت أبكر ؟ »

« من ؟ من الذي توفي ؟ » . سألت ذلك ، رغم أنني في الواقع عرفت جلية الأمر .

« المستشار وي مات يوم أمس الأول . »

وتلفت ، فرأيت غرفة الاستقبال مضاءة بضوء شاحب ، ربما كان بمصباح واحد فقط ، وكانت الغرفة الامامية قد زخرفت بستائر المأتم البيضاء ، وكان أحفاد الجدة مجتمعين خارج تلك الغرفة .

وقالت الجدة وهي تتقدم الى الأمام مشيرة الى الغرفة الأولى : « هناك جثمانه . بعد أن رقي السيد وي أجرت له الغرفة الأمامية أيضا ، وهو فيها الآن . »

وكانت ستائر المأتم خالية من كل كتابة . وفي المقدمة منضدة طويلة ، ثم منضدة مربعة نثر عليها زهاء عشرة صحون . وحين دخلت ظهر رجلان في جبتين بيضاوين طويلتين ليسدا الطريق علي . وعيونهما الشبيهة بعيني سمكة ميتة تثبتت في وجهي بدهشة وارتياب . وبسرعة شرحت علاقتي بوي ، وجاءت صاحبة البيت تؤكد أقوالي . واذذاك خفضا عيونهما وأيديهما ، وسمحا لي بالتقدم والانحناء للميت .

وعندما انحنيت رن عويل الى جانبي من الأرض . وحين

نظرت الى الأسفل رأيت طفلا في نحو العاشرة يركع بركبتيه على حصيرة وقد لبس البياض أيضا . وكان شعره مقصوصا والتصق به قطعة من الخيش .

وفيما بعد عرفت أن أحد هذين الرجلين كان ابن عم وي ، وهو أقرب أقربائه ، وكان الآخر ابن أخ له من بعيد . وسألت أن يسمحا لي برؤية وي غير أنهما حاولا جهد استطاعتهما صرفي عن ذلك قائلين انني « لطيف » جدا . وفي النهاية اذعنا ، ورفعا الستارة .

في هذه المرة رأيت وي في موته . ولكن ، ياللغرابة ، رغم أنه كان يرتدي قميصا مغضنا ملطخا من أمام بقليل من الدم ، ووجهه نحيل جدا ، الا أن سحنته لم تتغير . كان نائما بوداعة وهدوء ، مغلق الفم والعينين حتى راودتني نفسي على أن أضع أصبعي أمام منخريه لأرى أ ما زال يتنفس .

كان كل شيء ساكنا سكون الموت ، الأحياء الحاضرون والميت المسجى معا . وحين انسحبت دنا مني ابن عم وي ليقول ان موت وي في غير أوانه ، وهو في مقتبل عمره ، وثمة مستقبل عظيم أمامه ، فقد كان كارثة لعائلته المتواضعة ومصدر حزن لأصدقائه أيضا . وبدا كأنه يعتذر لوي على موته . ومثل هذه اللباقة نادرة بين القرويين . وعلى أية حال التزم الصمت بعد هذا الكلام ، وكل شيء كان ساكنا سكون الموت ، الأحياء وهذا الميت معا .

وانسحبت الى الفناء ، وأنا أشعر بانقباض ، لا بحزن على

الاطلاق . وقالت لي العجوز أن التشييع سيتم عن قريب جدا ، فهم ينتظرون الكفن . وحين يسمر التابوت يجب أن لا يقترب منه الذين ولدوا تحت نجوم معينة . وأخذت تثرثر بكلمات تتدفق كالسيل . وتحدثت عن مرض وي ، والحوادث التي مرت عليه خلال حياته ، ووجهت اليه انتقادات معينة .

« بعد أن أقبل الحظ على السيد وي أصبح رجلا مختلفا . كان يرفع رأسه عاليا ويبدو متغطرسا جدا . وكف عن أن يعامل الناس بطريقته القديمة المؤدبة . وهل تعرف أنه كان يتصرف كأبله ، ويدعوني ' مدام ' ؟ » وفيما بعد ارسلت ضحكة وقالت : « صار يسميني "الكلبة العجوز" ؛ انها كلمتان مضحكتان جدا . وعندما كان الناس يرسلون اليه أعشابا نادرة كان يرميها الى الفناء هنا وينادي : "خذي هذه ، أيتها الكلبة العجوز !" وبعد أن أقبل عليه الحظ أخذ يزوره عشرات الزوار ، ولهذا أفرغت غرفتي الأمامية له ، وانتقلت الى غرفة جانبية وكما نقول ذلك ، لقد أضحى رجلا مختلفا بعد أن أقبل عليه الحظ . فلو جئت قبل شهر لكان في وسعك أن ترى كل أنواع اللهو هنا ، مجالس الشراب تعقد كل يوم ، والأحاديث ، والضحك ، والغناء وقرض الشعر ، ولعب "الما هجونغ" . . .

« كان يخاف من الأطفال أكثر مما يخاف هؤلاء من أبيهم ، وفي الواقع يتذلل لهم . ولكن هذا قد تغير أيضا في المدة الأخيرة ، وأصبح صاحب نكتة . وكان أحفادي يحبون اللعب معه ، فيذهبون الى غرفته كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وكان يبتكر كل أنواع الفكاهات العملية . فمثلا حينما يريدون منه أن يشتري أشياء لهم كان يجعلهم ينبحون كالكلاب ، أو يجعلهم يسجدون في خشوع . آه ، ذلك المزاح بعينه . وقبل شهرين طلب اليه حفيدي الثاني أن يشتري حذاء فكان عليه أن يخر ساجدا ثلاث مرات . وهو مايزال يرتدي الحذاء ، ولم يبل بعد . »

وحين أقبل احد الرجلين اللابسين بياضا كفت عن الحديث. وسألت عن مرض وي ولكن لم يكن عندها ما تقول غير الشيء النزر . فلم تعرف شيئاً الا أن وزنه ظل يقل زمنا طويلا ، ولكنهم لم يكترثوا به لأنه كان يبدو طلق الأسارير دائما . وقبل زهاء شهر سمعوا أنه كان يسعل دما . ولكن لم يستشر طبيبا . ثم أضطر الى ملازمة الفراش ، وقبل ثلاثة أيام من موته يبدو أنه فقد القدرة على الكلام . وقد جاء ابن عمه من القرية قاطعا الطريق كله ليسأل هل من مال مدخر ، ولكنه لم يقل كلمة . وقد ظن ابن عمه أنه يتظاهر عمدا ، غير أن بعض الناس قالوا ان الذين يموتون بالسل يفقدون القدرة على الكلام . . .

« وكان السيد وي رجلا غريب الأطوار . » همست فجأة : « انه لم يدخر مالا قط ، بل كان يسيل من بين أصابعه كالماء . وما يزال ابن عمه يرتاب في أننا نأخذ شيئا منه . والسماء تعلم أننا لم نأخذ أي شيء منه . لقد أنفقه بطريقته الارتجالية . يشتري اليوم شيئا ، ويبيعه في غد ، أو يكسره — والله يعرف ما الذي حدث . وعندما مات لم يبق شيء ، لقد أنفق كل شيء ! ولولا

ذلك لما كان الجو مكفهرا على هذا النحو اليوم . . .

« كان مستطار اللب ، لا يريد أن يفعل الفعل اللائق . وقد فكرت بذلك ، وتحدثت اليه : في سنه تلك كان يجب أن يتزوج ؛ ولم يكن الأمر عسيرا عليه اذذاك . واذا لم يعثر على عائلة لائقة ، كان في وسعه على الأقل ان يشتري بعض المحظيات ليقضي أمره معهن . وعلى الناس أن يحافظوا على المظاهر ، غير أنه كان يضحك كلما فتحت الموضوع . ايتها الكلبة العجوز أنت دائما تهتمين بهذه الأمور للآخرين ؛ كان يقول هكذا . ولم يكن جديا قط ، ألا ترى ، انه لم يصغ الى أية نصيحة طيبة . فلو كان قد استمع الى كلامي ، لما كان يهيم وحيدا في الآخرة كما هو الآن . على الأقل كان ينتحب عليه اعزاؤه . . . »

ووصل البائع جالبا معه بعض الثياب . والتقط أقرباء الميت الثلاثة الملابس الداخلية ، ثم اختفوا وراء الستارة . وبعد قليل رفعت الستارة ، وقد البست الجثة الملابس الداخلية ثم أخذوا يلبسونها الحلل الخارجية وقد دهشت اذ رأيتهم يلبسونه بنطلونا كاكيا عسكريا عليه شرائط حمراء واسعة ، وقميصا عسكريا عليه رمانتا كتف مذهبتان ، وليس في وسعي أن أعرف أية رتبة تشير اليها هذه الشرائط ، أو كيف حصل عليها . ثم وضعت الجثة في التابوت . ورقد وي هناك في هيئة مرتبكة ، والى قدميه حذاء بني جلدي لامع في وسطه سيف من ورق ، والى جانب وجهه النحيل الرمادي قبعة عسكرية حولها شريط مذهب .

وانتحب الأقرباء الثلاثة الى جانب التابوت ، ثم كفوا عن

النحيب ، ومسحوا دموعهم وانسحب الصبي ذو شريط الخيش المربوط به شعره ، كما فعل حفيد العجوز الثالث – ولا شك في أنهما ولدا تحت نجمين نحسين .

وحين رفع العمال غطاء التابوت تقدمت لألقي نظرة أخيرة على وي .

كان يرقد بوداعة وهو في بدلته المتغضنة وفمه مطبق وعيناه مغلقتان . وبدا كأن ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيه . . . ساخرة بالجثة المضحكة .

وحين بدىء بدق المسامير ، بدأ العويل من جديد . ولم أتحمل ذلك طويلا جدا فانسحبت الى الفناء ، ثم بطريقة ما أصبحت خارج الباب . وكان الطريق الرطب يلمع ، ورفعت بصري الى السماء حيث تشتتت السحب وظهر البدر يرسل نورا باردا .

ومشيت بخطى متعجلة ، كأنني متلهف لأخترق بعض الحواجز الثقيلة ، بيد أنني وجدت ذلك مستحيلا ، وكان ثمة شيء يجاهد في أذني ، وبعد وقت طويل ، وطويل جدا انفجر . وكان مثل عواء طويل . . عواء ذئب جريح في البرية ، في أعماق الليل يمتزج الغضب والأسى في ألمه الممض .

ثم خف الثقل عن قلبي ، ومشيت بهدوء تحت القمر في الطريق الرطبة المرصوفة بالحجارة .

١٧ تشرين الاول ١٩٢٥

أسف على الماضي

ــ مذكرات تشوان شنغ

أريد ــ اذا كان في مستطاعي ــ أن أصف تبكيت ضميري وأساي على تسو تشون وعلى نفسي ايضا . هذه الغرفة الرثة المنزوية في ركن منسي من النزل هادئة جداً وفارغة . والزمن يطير حقا . انقضى عام بكامله منذ ان وقعت في حب تسون تشون ، وبفضلها تخلصت من هذا الهدوء المميت والفراغ الموحش وفي عودتي كانت هذه الغرفة هي الغرفة الوحيدة من سوء الحظ . وهذه النافذة المحطمة وشجرة الخرنوب نصف الميتة ، والوسطاريا العجوز في الخارج ، والمائدة المربعة في الداخل ، هي نفسها كما كانت من قبل ، وكذلك الجدار المصوف والسرير الخشبي

الى جانبه ، وفي الليل كنت استلقي على السرير وحيدا ، كما كنت أفعل قبل أن اعيش مع تسو تشون . وقد انمحت السنة الماضية كأنها لم تكن — وكأنني لم اتحول عن هذه الغرفة الرثة ، لأؤسس بيتا صغيرا عامرا بالامل الكثير في شارع تشيتشاو .

وليس هذا كل شيء . فقبل عام كان هذا الصمت والفراغ مختلفين — فقد كان فيهما في الغالب ترقب . لقد كنت اترقب وصول تسو تشون . حين كنت انتظر طويلا وبصبر نافد وقع الكعبين العاليين على الرصيف الحجري الذي يعيدني الى الحياة . ثم أرى وجهها المدور الشاحب المفتر عن نقرتين حين تبتسم ، وذراعيها البيضاوين النحيلتين ، وبلوزتها القطنية المخططة ، وتنورتها السوداء . وتعودت أن تجلب معها ورقة جديدة من شجرة الخرنوب الذابلة قليلا خارج النافذة لأنظر اليها ، أو عناقيد من الأزهار البنفسجية المعلقة من شجرة الوسطاريا العجوز الذي يبدو جذعها كأنه نابت من حديد .

اما الآن فليس هناك غير الصمت القديم والفراغ ، وتسو تشون لن تعود ثانية . . . ابداً . . . ابداً .

في غياب تسو تشون لم أكن أرى شيئا من هذه الغرفة الرثة . كنت من الضجر المحض ألتقط كتابا — في العلم أو الادب فذلك سواء عندي — وأقرأ وأقرأ حتى أفطن الى أنني قلبت عشر اوراق دون ان أعي كلمة مما قرأت . وكانت أذناي وحدهما مرهفتين جدا ، فكان يبدو لي أنني قادر على أن أسمع كل خطوة خطوة

خارج الباب ، ومن بينها خطوات تسو تشون . وكانت خطواتها في الغالب تبدو خافتة شيئاً فشيئا كلما اقتربت أكثر فأكثر حتى تضيع في أصوات الاقدام الاخرى . وكنت أكره ابن الخادم الذي يرتدي حذاء قماشيا ويوقع صوتا يختلف تماما عن وقع خطوات تسو تشون . وكذلك كنت أكره الفتاة الخليعة العذار المجاورة لي ، التي تستعمل طلاء الوجه ، وغالبا ما كانت ترتدي احذية جلدية جديدة ، وكان وقع خطواتها يشبه تماما وقع خطوات تسو تشون .

هل يمكن أن تكون عربتها قد انقلبت ؟ هل يمكن أن تكون قد دعست بترام ؟ . . .

وأهم بان أضع قبعتي على رأسي ، وأذهب لأراها ، غير أن عمها قد شتمني علنا .

وفجأة أسمعها تقترب خطوة خطوة ، وحين أخرج للقياها تكون هي قد مرت بعريش الوسطاريا ، ووجهها يفتر عن نقرتين عندما تبتسم . ولعلها لم تعامل معاملة سيئة في بيت عمها كل شيء . وحين أراها أهدأ وبعد ان يحدق احدنا بالاخر في صمت لحظة تمتلىء الغرفة الرثة بصدى صوتي وأنا اعلن عن طغيان العائلة الاقطاعية والحاجة الى تحطيم التقاليد ، وعن المساواة بين الرجل والمرأة ، وعن ابسن وطاغور وشيللي . . . وتهز هي رأسها مبتسمة ، وعيناها تغمرهما نظرة دهشة طفولية . وعلى الجدار كانت صورة نصفية لشيللي نحاسية قطعت من مجلة ، وهي واحدة من أحسن الصور التي تشبهه . ولكن حين أوجه نظرها اليه كانت تلقي نظرة خاطفة دون تأمل ، ثم تطرق برأسها

كأنها مرتبكة . وفي قضية كهذه لعل تسو تشون لم تحرر نفسها كليا من إسار الافكار القديمة . وقد فكرت فيما بعد بأن من الأفضل ، أن أستبدل بها صورة شيللي الاخرى المأخوذة حين يغرق في البحر أو صورة لإبسن . ولكنني لم أعثر على ذلك قط . والآن حتى تلك الصورة قد اختفت .

« أنا سيدة نفسي ، وما من أحد له الحق في التعرض الي . »

أعلنت هذا البيان بوضوح وحزم ووقار بعد صمت مفعم بالتفكير — وكنا نتحدث عن عمها الذي كان هنا ، وأبيها الذي كان في قريته . وقد انقضى على تعارفنا نصف عام . واذذاك كنت قد قلت لها كل آرائي ، وكل ما حدث لي ، وما هي نقائصي . وأخفيت شيئا يسيرا جدا ، وبدت هي تفهمني كليا وكانت كلماتها القليلة هذه قد هزتني هزا من أعماق قلبي وبقيت ترن في اذني اياما طويلة بعد ذلك . وكنت سعيدا سعادة يقصر عنها الوصف بأن أعرف أن المرأة الصينية ليست ميئوسا منها كما يفهم المتشائمون ، وأننا سنراها تتمتع بمجدها في المستقبل غير البعيد جدا .

وكلما كنت ارافقها عند الخروج كنت دائما اسير على بعد عدة خطوات خلفها . وكان الرجل العجوز ذو العارضين المشعرين الشبيهين بملمسي السمك يضغط بوجهه دائما على زجاج الشباك القذر بشدة حتى لتتسطح ارنبة انفه . وحين نصل الى الفناء الخارجي يظهر خلف زجاج النافذة اللامع وجه الفتاة

الصغيرة المطلية بدهان الوجه . ولكن تسو تشون كانت تخرج فخورا دون ان تنظر يمنة ولا يسرة . فكانت لا تراها . وأعود أنا فخورا ايضا .

« أنا سيدة نفسي ، وما من أحد له الحق في التعرض الي . » وكان فكرها تماما قد تركز على هذه النقطة . وكانت أكثر كمالا بشوط بعيد ، وأعظم حزما مني ، فما الذي كان يهمها من نصف قنينة من دهان الوجه ، أو أرنبة أنف مسطحة ؟

ليس في ميسوري ان أتذكر الآن كيف عبرت لها عن حبي الصادق الجياش . ليس الآن فحسب ، بل حتى بعد ان حدث ، فان انطباعي كان مبهما . وحين فكرت بذلك ثانية في الليل كنت لا أتذكر الا نتفا مما قلت : بينما بعد شهر أو شهرين من بدء العيش معها اختفت حتى تلك النتف وتلاشت مثل حلم دون ان تترك اثراً . وانا لا اتذكر الا كيف أني قبل أسبوعين من ذلك تقريبا فكرت بعناية شديدة أي موقف أتخذ ، وهيأت ما أقول ، وعينت ما أنا فاعل اذا هي رفضت . ولكن حين حل الوقت كان كل ذلك بلا فائدة . ومن اضطراب اعصابي استعملت الطريقة التي رأيتها في السينما . وتذكر ذلك يجعلني خجلا للغاية ، ومع هذا فالشيء الوحيد الذي أتذكره بوضوح . حتى هذا اليوم يبدو مثل مصباح وحيد في غرفة مظلمة ليضيء لي وأنا أضم يدها ، والدموع في عيني وأركع على ركبة واحدة ...

وأنا لا أرى بوضوح ايضا كيف كان رد الفعل لدى تسو تشون

في ذلك الوقت . وكل ما أعرفه أنها قبلت بي ومع ذلك يبدو لي أنني أتذكر أن وجهها شحب في اول الامر ، ثم تورد شيئا فشيئا . فكان أكثر حمرة من كل مرة رأيته فيها من قبل . وشعت من عينيها الشبيهتين بعيني طفل كآبة وغبطة ممزوجتان بتوجس ، رغم أنها جاهدت لتتفادى التحديق بي ، فبدت كأنها تود ان تطير خارج النافذة من فرط ارتباكها . ثم عرفت أنها قبلت ، رغم أنني لم أعرف ما الذي قالت ، أو لعلها لم تقل شيئا على الاطلاق .

على كل حال ، هي تتذكر كل شيء . وكان في وسعها أن تتلو ما قلته دون ان تتوقف وكأنما حفظته عن ظهر قلب ، وتصف كل أفعالي بتفصيل ، وبالتمام مثل شريط ينشر امام عيني يضم ذلك المنظر الضحل من الفلم . . . المنظر المتلهف الى نسيانه . وفي الليل ، حين يسكن كل شيء ، يحل وقت مراجعتنا للاشياء . وكنت غالبا ما أسأل واختبر ، او اؤمر باعادة حكاية ما قيل في تلك المناسبة ، ولكن كان عليها ، في الغالب ، ان تسد الثغرات ، وتصحح أخطائي وكأني طالب اؤدي امتحانا صعبا قاسيا .

وبالتدريج اصبحت تلك المراجعات اقل ، وبين مراجعة واخرى زمن طويل . ولكن ، كلما رأيتها تحدق في الفضاء بذهول وبنظرات رقيقات أعلم أنها ستعود الى الدرس القديم ثانية ، وأخشى ان تكون قد رأت تصرفي المضحك في الفلم وأعرف ، رغم ذلك ، انها لا بد ان تراه ، وانها مصرة على ان تراه .

ولكنها لم تره مضحكا . فرغم أنني أراه يثير الضحاك ، بل الازدراء لا تراه هي هكذا على الاطلاق . واعرف انا ان ذلك بسبب انها تحبني بصدق وعاطفة جياشة .

كانت أواخر الربيع في العام الماضي أسعد اوقاتنا وأكثرها شغلا . وكنت اذ ذاك اهدأ ، رغم ان جزءا من ذهني أضحى نشيطا نشاط بدني . وكان ذلك حين أخذنا نخرج معا . وقد ذهبنا عدة مرات الى المتنزه ، ولكن في الغالب كنا نخرج لنبحث عن مسكن . وفي الطريق كنت أشعر بالنظرات المتفحصة ، والبسمات الساخرة ، او الرمقات الفاجرة المزدرية ، واذا لم أحافظ على رباطة جأشي فانها تجعلني أرتجف . وفي كل لحظة كان علي ان استجمع كل شجاعتي ، وعدم اكتراثي بالخطر ليعينانى . اما هي فقد كانت دون وجل على الاطلاق ، صلبة العود تماما غير متأثرة بذلك كله . وكانت تسير ببطء هادئة كأنها لا ترى احدا .

لم يكن العثور على مسكن بالامر الهين . وفي معظم الحالات نرفض لعذر من الاعذار ، بينما بعض المحلات لم تكن ملائمة لنا . وفي البداية كنا مدققين ولا بد ان نكون مدققين جدا لأننا رأينا معظم تلك المساكن لا تبدو محلات يمكن ان نسكن فيها . وفيما بعد ، اصبح كل ما نطلبه هو ان يكون شيئا محتملا . وقد نظرنا في أكثر من عشرين مكانا قبل أن نجد مكانا يمكن ان يكون صالحا – غرفتان تواجهان الشمال في بيت صغير

في شارع تشيتشاو . وكان مالك البيت موظفا صغيرا يحتل الغرفتين الوسطى والجانبية . وتتألف عائلته من زوجة وطفل رضيع في أشهره الاولى ، وخادمة من الريف . وعندما كان الطفل لا يبكي كان البيت جد هادئ .

وأثاثنا البسيط ، قد استهلك الجزء الكبير من الفلوس التي ادخرتها . وباعت تسو تشون خاتمها الذهبي الوحيد ، وقرطيها ايضا . وقد حاولت ان اصدها عن ذلك غير انها اصرت ، لهذا لم اتمسك برأيي . فانا اعرف انها ستشعر بعدم الارتياح اذا هي لم تشارك في بيتنا .

وكانت قد تخاصمت مع عمها ، فبلغ به الغضب مبلغا دفعه لان يتبرأ منها . وقطعت انا صلتي بعدد من الاصدقاء ظنوا انهم يسدون لي النصح الشديد ، ولكنهم في الواقع كانوا اما خائفين علي ، او غيورين . ومع ذلك فهذا قد جلب لنا الهدوء التام . ورغم ان الظلام كان منتشرا حين أغادر المكتب ، وساحب العربة يمضي ببطء شديد الا ان الوقت الذي نلتقي به ثانية كان يجيء على الدوام . وفي الاول كان احدنا ينظر الى الآخر بصمت ، ثم نسترخي ، ونتحدث في الحال ، وفي النهاية نصمت ثانية ، مطرقين برأسينا دون ان نفكر بشيء مخصوص . وبالتدريج كنت قادرا على قراءتها بتعقل جسما وروحا مثلما اقرأ كتاباً . وفي ثلاثة اسابيع فحسب استطعت ان أعرف كثيرا جدا عنها ، وحطمت الحواجز التي لم أكن اعرف انها قائمة ، ولكنني الآن أكتشف انها حواجز حقيقية .

وبمرور الايام اصبحت تسو تشون اكثر حيوية . ولكنها لم تكن تحب الازهار . فقد اشتريت اصيصي ازهار من السوق . غير انها ماتت بعد ان ظلت اربعة ايام دون سقي ، واهملت في زاوية . ولم يكن لي وقت لان أفحص كل شيء . وكانت رغبتها في الحيوانات قد تكون بتاثير زوجة الموظف ، وفي اقل من شهر ازداد افراد عائلتنا كثيرا . فقد طفقت اربعة فراخ لنا تأخذ طريقها عبر الباحة ، مع الفراخ العشرة التابعة لربة البيت . ولكن السيدتين كان في وسعهما أن تميزا بينها ، وأن تعرفا فراخهما . ثم كان هناك كلب مرقط اشتريناه من السوق . وأعتقد ان له اسما منذ البداية ، بيد ان تسو تشون اطلقت عليه اسما جديدا هو آهسوي . وسميته انا آهسوي ايضا . رغم انني لم اكن احب الاسم .

حقا ان الحب يجب ان يجدد على الدوام ،. وينمو ويخلق . وحين تحدثت بذلك الى تسو تشون هزت رأسها موافقة .

آه ، ما أهدأ وأسعد تلك الامسيات !

السكينة والسعادة ستتجمدان اذا استمرّتا الى الابد . وحين كنا في النزل كان يحدث في بعض الاحيان اختلاف في الرأي ، وسوء تفاهم ، ولكننا بعد ان انتقلنا الى شارع تشيتشاو اختفت حتى تلك الخلافات البسيطة . فكنا نجلس في ضوء المصباح وأحدنا يواجه الآخر نسترجع الذكريات ، ونتذوق ثانية فرح الوئام الجديد الذي أعقب نزاعاتنا .

واخذت تسو تشون تمتلىء جسما ، ويصبح خداها أكثر

كاتبا في مكان آخر وأدرس رغم ان ذلك صعب قليلا ، أو ان أقوم ببعض اعمال الترجمة . وانا اعرف محرر « صديق الحرية » وقد راسلته شهرين من قبل . ومع ذلك فقد كان قلبي يخفق . والذي كدرني اكثر ان تسو تشوان نفسها على ما هي عليه من عدم الخوف ، قد شحبت ايضا . وفي المدة الاخيرة لاحت كأنها تنحل .

قالت : « ما الذي يهم في ذلك ؟ سنبدأ بداية جديدة . أ ليس كذلك ؟ سنبدأ . . . »

ولم تنته من كلامها حتى صار صوتها متطأمنا . ولاح ضوء المصباح كابيا اكثر من العادة . ان الرجال مضحكون حقا فما ايسر ما تثيرهم التوافه . وفي الاول حدق احدنا في الاخر في صمت ثم أخذنا نتذاكر فيما نحن فاعلون . وفي نهاية الامر قررنا ان نعيش بأكثر اقتصاد ممكن لتكفينا الفلوس التي نملكها ولنتمكن ان نعلن في احدى الصحف عن طلب وظيفة كاتب او معلم ، واكتب في نفس الوقت الى محرر « صديق الحرية » أشرح له وضعي الراهن ، واسأله ان يقبل نشر ترجمة لتساعدني على الخروج من الصعوبة .

« العمل خير من القول . لنبدأ بداية جديدة . »

وذهبت قدما الى المنضدة ، ونحيت جانبا زجاجة الزيت النباتي ، وصحن الخل بينما جاءت تسو تشون بالمصباح الكابي الضوء . وفي الاول وضعت صيغة الاعلان ، ثم اخترت الكتب للترجمة . ولم أكن قد نظرت في كتبي منذ ان غيرت داري ،

فكان كل مجلد مثقلا بالغبار . وفي النهاية كتبت الرسالة .

وتوقفت وقتاً طويلا عند كلمات الرسالة ، وحين توقفت عن الكتابة لأفكر ، نظرت اليها في ضوء المصباح الشاحب فكانت تبدو قلقة البال مرة أخرى ولم أكن أتصور قط أن شيئا تافها كهذا يمكن أن يسبب مثل هذا التغير الصاعق في شخص مكين وجلد مثل تسو تشون . وفي الحق ازداد نحولها فيما بعد ، مما جعلني في ضيق أشد . ودارت في خاطري رؤيا حياة وادعة — لقد لمعت امام عيني غرفتي الهادئة الرثة في النزل ، وكدت القي عليها نظرة طيبة حين وجدت نفسي مرة اخرى في ضوء المصباح المغبش .

وبعد وقت طويل انتهت الرسالة . وكانت طويلة جدا . وأصابني تعب شديد بعد الفراغ من كتابتها . وأدركت أنني ، لا محالة ، قد ضعفت في المدة الاخيرة ايضا . وقررنا ان نرسل الاعلان ، ونبرد الرسالة في اليوم التالي . ثم اتفقنا على ذلك ، وانتهينا في صمت ، كأن أحدنا أدرك حزم الآخر وقوته ، واصبح يرى أملا جديدا ناهضا من هذه البداية الجديدة .

الواقع ان تلك الضربة من الخارج مدتنا بروح جديد . وعشت في المكتب مثل طائر يرى في قفص لا يعطيه آسره من الحب غير ما يقيم أوده لا ما يسمنه . وبمرور الزمن لم يعد يعرف كيف يستخدم جناحيه ، وهكذا كلما اخرج من القفص فيما بعد كان غير قادر على الطيران . والآن على اية حال خرجت

من القفص ، وينبغي ان أحلق من جديد في السماء الواسعة قبل ان يفوت الأوان ، وانا ما أزال قادرا على التصفيق بجناحي .

وطبيعي اننا لم نكن نتوقع نتائج سريعة من الاعلان الجديد . ومع ذلك فان الترجمة ليست امرا يسيرا ايضا . فانت تقرأ شيئا ، وتظن انك قد فهمته ولكن حين تأتي لترجمته تفاجئك الصعوبات في كل مكان ، ويمضي العمل ببطء شديد . ومع ذلك فما زلت مصمما على ان أبذل قصاراي . وفي اقل من اسبوعين كانت حواشي قاموس جديد جدا قد اسودت من طبعات الاصابع ، وذلك يدل على مقدار جديتي في العمل . وقال محرر « صديق الحرية » ان مجلته لن تهمل اية ترجمة جيدة .

ومن سوء الحظ لم يكن هناك مكان اجلس فيه بهدوء ، ولم تكن تسو تشون هادئة ورصينة كما هي من قبل . وكانت غرفتنا تقرقع فيها الصحون والطاسات وتمتلىء بالدخان حتى كان من المستحيل العمل باستمرار هناك . ولكن من الطبيعي انني لا الوم غير نفسي على ذلك – لانني لم اقدر على اعداد مكتب لي . وعلى رأس ذلك كان هناك آهسوي والفراخ . والفراخ كبرت فأضحت دجاجات ، وكانت مثار خصام أكثر بين العائلتين .

ثم كانت هناك القضية التي لا تنتهي – قضية الأكل كل يوم . وكانت كل جهود تسو تشون فيما يبدو ، مكرسة لطعامنا . والمرء يأكل ليكسب ويكسب ليأكل ، بينما كان ينبغي اطعام الدجاجات وآهسوي ايضا . والظاهر أنها نسيت كل ما تعلمته ، ولم تدرك انها تقطع سلسلة افكاري حين كانت تدعوني للطعام . ورغم

انني في بعض الاحيان ابدي قليلا من الكدر حين اجلس الى المائدة فقد كانت هي لا تعير اهتماما لذلك ابدا ، بل تمضي في المضغ غير مكترثة أبداً .

مضت خمسة أسابيع قبل ان تدرك ان عملي لا يمكن ان يخضع لساعات الطعام اليومية . وحين أدركت ذلك ربما كانت متكدرة ولكنها لم تقل شيئا . وبعد ذلك تقدم عملي تقدما كبيرا ، فسرعان ما ترجمت خمسين ألف كلمة . وكان علي ان اهذب الترجمة ، ثم بعد ذلك يمكن ارسالها في قطعتين صغيرتين كاملتين الى « صديق الحرية » . وكانت وجبات الطعام تورث صداعا للرأس . ولم يكن مهما ان يبرد الطعام ، ولم تكن لنا ألوان كثيرة منه . وكانت شهيتي للأكل أقل بكثير من السابق . والآن انا جالس طوال اليوم في البيت مستعملا فكري ، ولكن نحن حتى في هذه الحال ، لم تكن لدينا دائما الكفاية من الرز . فقد كان يعطى قسم منه لآهسوي ، وفي بعض الاحيان يعطى له مع لحم الضأن الذي نادرا ماكنت آكله انا نفسي في المدة الاخيرة . وقد قالت ان آهسوي نحيف جدا ، وهذا محزن حقا ، يجعل صاحبة البيت تهزأ بنا ، ولم تكن تتحمل الهزء .

وهكذا لم تبق الا الدجاجات لتأكل فتات طعامي وقد انقضى زمن طويل قبل ان أدرك ذلك . ومع هذا فقد شعرت بأن « مكاني في الكون » كما يصفه هلسكي في نقطة مابين الكلب والدجاجات ليس غير .

وفيما بعد ، عقب جدل كثير واصرار اخذت الدجاجات تظهر على مائدتنا . وقد استمتعنا وآهسوي بأكلها أكثر من عشرة ايام . ومع أنهن كن نحيفات جدا ، لأنه مضى زمن طويل وهن لا يأكلن غير حب قليل من الذرة الصينية كل يوم . وبعد ذلك اصبحت الحياة اكثر امنا . الا ان تسو تشون اضحت مغمومة جدا ، وبدت جد حزينة وضجرة ، كما اخذت سحنتها تعبس قليلا . فما أيسر ما يتغير الناس .

ومع ذلك فينبغي التخلي عن آهسوي ايضا . وقد كففنا عن الامل في وصول رسالة من أي مكان ، وانقضى زمن طويل وليس لدى تسو تشون طعام حتى صار الكلب يتوسل من اجله او يقف على رجليه الخلفيتين . وفضلا عن ذلك فقد اقبل الشتاء سريعا جدا ، ولم نكن نعرف ماذا نفعل لايجاد موقد . ومسئوليتنا عن طعام الكلب منذ زمن طويل مسئولية ثقيلة كنا شاعرين بها جدا . وعلينا الآن أن نطلق سراحه .

ولو أننا نربطه بحبل ، ونأخذه الى السوق لنبيعه فقد نحصل على بعض الدريهمات . ولكن كل واحد منا لم تطاوعه نفسه على ان يفعل ذلك .

وفي آخر الامر لففت رأسه في قماش ، وذهبت به الى الضاحية الغربية وهناك اطلقته وحين جرى خلفي دفعته في حفرة غير عميقة جدا .

وحين عدت الى البيت وجدته اكثر هدوءا ولكنني قد صعقت بسحنة تسو تشون الفاجعة ، فلم أرها قط محتدمة مهمومة

على هذا النحو . وطبيعي ان ذلك بسبب آهسوي ، ولكن لماذا تتكدر عليه هكذا ؟ وانا لم اقل لها انني دفعته الى حفرة .

في تلك الليلة تسلل الى محياها شيء بارد فلم أتمالك نفسي من أن أقول لها : « حقا ! ما الذي حل بك اليوم يا تسو تشون ؟ »

« ماذا ؟ » حتى أنها لم تنظر الي .

« تبدين جدا . . . »

« لا شيء — لا شيء على الاطلاق . »

واخيرا ادركت انها لا بد معتبرة اياي صلب القلب . والواقع عند ما كنت وحيدا كنت أسير سيرا حسنا رغم زهوي على الاختلاط بمعارف من العائلة . ولكن منذ ان انتقلت اصبحت نافرا من جميع اصدقائي القدامى . ومع ذلك فلو استطيع التخلص من هذا كله فان هناك طرقا كثيرة تفتح لي . والآن علي ان أقاسي كل هذه المشاق من اجل خاطرها على الاكثر والتخلص من آهسوي نقطة من صلب الموضوع . ولكن تسو تشون تبدو كليلة حتى عن فهم ذلك .

وحين اهتبل فرصة للتلويح بذلك اليها كانت تهز رأسها وكأنها فهمت . ولكنها قياساً إلى سلوكها فيما بعد ، لا تبدو أنها قد وعته ، او انها لم تصدق بي .

ان الجو البارد ، ونظراتها الباردة جعلت من المستحيل علي ان استريح في البيت . ولكن إلى أين أستطيع أن أذهب ؟ في وسعي أن أتخلص من نظرتها الباردة في الشارع والمتنزهات ولكن

الريح الباردة كانت تصفر خلال ذلك . وفي النهاية عثرت على ملجأ لي في المكتبة العامة .

وكان الدخول مجانا ، كما كان في غرفة المطالعة مَوْقِدان، ورغم ان النار كانت واطئة جدا ، فان منظر الموقدين فحسب يجعل المرء دافئا . ولم تكن هناك لي كتب تستحق القراءة ، فالكتب القديمة قد ذهب عهدها ولم يكن هناك في الواقع كتب جديدة .

ولكنني لم آت للقراءة . وفي الغالب لم يكن هناك غير عدد قليل من الناس ، وفي بعض الاحيان لا يتجاوزون العشرة ، وكلهم خفاف الشياب مثلي . وكنا نتظاهر بالقراءة لنتقي البرد . وقد وافقني ذلك كليا . فأنا عرضة لأن ألتقي في الطريق بأناس أعرفهم فينظرون الي بازدراء ، أما هنا فلا صعوبات من هذا النوع لأن معارفي جميعا كانوا مجتمعين حول مواقد أخرى ، أو يدفئون أنفسهم امام مواقد في منازلهم .

ورغم انعدام الكتب التي أقرأها هناك ، فقد وجدت هدوءاً للتفكير . وحين كنت أجلس هناك وحيدا أفكر بالماضي أشعر انني خلال نصف عام من الحب – الحب الأعمى – أهملت كل الاشياء المهمة في الحياة . وأول هذه الاشياء وفي طليعتها المعيشة . فالرجل يجب ان يكسب رزقا قبل ان يكون هناك أي مكان للحب . ولا بد من ان هناك طريقا للخلاص لاولئك الذين يكافحون ، وانا لم أنس بعد كيف أصفق بجناحي ، رغم انني اضعف بكثير من ذي قبل . . .

واختفت الغرفة والمطالعون بالتدريج . ورأيت صيادين في البحر الغاضب ، وجنودا في الخنادق ، ووجهاء في سياراتهم ، ومضاربين في البورصة ، وابطالا في الغابات الجبلية ، ومعلمين على منصاتهم ، وسارين في الليل ، ولصوصا في الظلام . . . وكانت تسو تشون بعيدة جدا . لقد فقدت كل شجاعتها في استيائها على آهسوي وانهماكها في الطبخ . والشيء الغريب انها لم تكن تبدو نحيلة بشكل خاص . . .

واخذ البرد يشتد . واحترقت في النهاية القطع القليلة من الفحم الصلب البطيء الاحتراق في الموقد . وحان وقت الاغلاق . وكان علي ان أعود الى شارع تشيتشاو لاعرض نفسي لتلك النظرات الباردة . واخيرا كنت في بعض الاحيان القى دفئا ، ولكن ذلك كان يقلقني اكثر . وأتذكر ذات مساء وقد شعت من عيني تسو تشون نظرة طفولية لم أرها منذ زمن طويل حين ذكرتني وهي تبتسم بشيء حصل في النزل . ولكن ، كانت في عينيها نظرة خوف مستديمة ايضا . والحقيقة انني عاملتها في المدة الاخيرة ببرود اكثر من ان أقلقها . وفي بعض الاحيان أرغم نفسي على التحدث والابتسام لأطمئنها . ولكن فراغ ضحكي وحديثي الذي يرن فيه صداه حالا في اذني مثل سخرية كريهة كانت أكثر مما أحتمل .

وقد تكون تسو تشون قد احست بذلك ايضا ، لأنها بعد ذلك فقدت هدوءها الخشبي ، وكانت غالباما تظهر قلقا رغمانها حاولت قصارى جهدها اخفاءه . ومع ذلك فقد عاملتني برقة

كثيرا .

واردت ان أتحدث اليها بصراحة ، ولكن لم تؤاتني الشجاعة . وكلما حزمت أمري على الكلام كان منظر تينك العينين الطفليتين يرغمني ، في ذلك الوقت ، على ان أبتسم . ولكن ابتسامتي تتحول على الفور الى سخرية من نفسي ، وتجعلني أفقد رزانتي الباردة .

وبعد ذلك أحيت هي الاسئلة القديمة ، وبدأت باختبارات جديدة مرغمة اياي على ان أجيب بكل الاجوبة الريائية لأظهر عاطفتي نحوها . والرياء اضحى سمة في قلبي حتى امتلأ بالكذب فكان من الصعب ان أتنفس . وغالبا ما شعرت ، وانا في قنوطي ، بأن قول الحقيقة يحتاج حقا الى شجاعة عظيمة . والمرء الذي يفتقر الى الشجاعة ويوطن نفسه على الرياء لن يجد طريقا للخلاص ابدا . والاكثر من ذلك انه لا يستطيع البقاء .

ثم ان تسو تشون اخذت تبدو مبترمة . وقد حدث هذا لأول مرة في احد الاصباح ، في صباح مرير البرد ، على ما أتصور . وابتسمت سرا لنفسي بحقد بارد . وكل الافكار والتعابير الذكية التي تعلمتها هي ، كانت فارغة كليا . ومع ذلك فلم تدرك هذا الفراغ وقد هجرت القراءة منذ زمن طويل ، ولم تدرك ان أول شيء في الحياة هوكسب العيش ، وان الناس ابتغاء ذلك يتقدمون يدا بيد ، اويسيرون وحيدين . وكل ما استطاعت ان تفعله هو ان تعلقت بثوب احد الناس ، جاعلة الكفاح صعبا حتى على المحارب ، مدمرة كليهما .

وشعرت بأن أملنا الوحيد هو الانفصال . وجديربها ان تنفض يدها نهائيا . وفجأة فكرت بموتها ، ولكنني خجلت في الحال وأنبت نفسي . ومن حسن الحظ كان الوقت صباحا ، وهناك متسع من الوقت لأخبرها بالحقيقة . سواء أ كنا قادرين على ان نبدأ بداية جديدة أم لا .

واسترجعت الماضي لها بترو . وتحدثت عن الادب ، ثم عن المؤلفين الاجانب واعمالهم ، وعن « نورا » لإبسن ، و « امرأة البحر » . وامتدحت نورا على ثاقب عقلها . . . كل ذلك قد قيل في العام الماضي في الغرفة الرثة في النزل . ولكنه الآن يرن رنينا فارغا . وحين كانت الكلمات تنطلق من فمي لم أكن قادرا على ان أحرر نفسي من الشك في ان هناك قنفذا غير منظور ورائي يردد كل ما أقوله بخبث .

وأنصتت هي ، هازة رأسها كناية عن الموافقة ، ثم صمتت . وقد فرغت مما كان علي ان أقوله بغتة ، وتلاشى صوتي في الهواء .

قالت بعد صمت آخر : « نعم ، ولكن . . . يا تشوان شنغ أشعر انك قد تغيرت كثيرا مؤخرا . أ هذا صحيح ؟ خبرني . »

وكانت هذه ضربة لكنني تماسكت ، وشرحت آرائي ، ومقترحاتي وقلت أخيراً : فلنبدأ : بداية جديدة ولنفتح صفحة جديدة لئلا ندمرنفسينا معا .

ثم قلت بحزم : « . . . فضلا عن ذلك لا حاجة لك بأن ترتابي . ولكن تقدمي جريئة . لقد سألتني ان أقول الحقيقة . نعم . يجب ان لا يداهن احدنا الآخر . أجل . والحقيقة أقول — ان

ذلك لأنني لم أعد أحبك ! والواقع ان ذلك يجعل الامر افضل بالنسبة لك . وسيكون من الأسهل لك ان تعملي دون ندم . . . »

وكنت أتوقع مشهدا ، ولكن كل ما أعقب ذلك هو الصمت واكتسى وجهها شحوبا مزرقا ، شحوب جثة هالكة . ولكن لونها عاد اليها بعد لحظة ، وانطلقت تلك النظرة الطفولية من عينيها . وتلفتت مثل طفل جائع يبحث عن امه الرؤوم ، ولكن لا شيء غير الفراغ . وتجنبت عيني خائفة .

وكان المنظر اكثر مما احتمله . ومن حسن الحظ ما زال الوقت مبكرا . واقتحمت الريح الباردة مسرعة الى المكتبة .

وهناك رأيت مجلة « صديق الحرية » وفيها كل مقالاتي القصيرة . وقد أدهشني ذلك ، وبدا كأنه مدّني بحياة جديدة . ففكرت : « هناك طرق كثيرة مفتوحة لي ولكن الأمور لا يمكن ان تستمر على هذه الحال . »

وبدأت أزور اصدقائي القدامى الذين انقطعت صلتي بهم منذ زمن طويل . ولكن لم يستمر ذلك الا مرة أو مرتين . وطبيعي ان حجراتهم دافئة ، ولكنني شعرت هناك بالبرد حتى النخاع ، وفي المساء كنت أرتمي في حجرة ابرد من الثلج .

كانت توخز قلبي ابر ثلجية جعلتني أعاني باستمرار بؤسا يخدر الحس . وفكرت : « هناك طرق كثيرة مفتوحة لي . فأنا لم أنس كيف أصفق بجناحي . » وفجأة فكرت بموتها . ولكني خجلت في الحال وأنبت نفسي .

وفي المكتبة غالبا ما أرى – كومضة برق – طريقا جديدة

امامي . وتصورت انها قد واجهت الحقائق بشجاعة ، وتركت ذلك البيت الزمهريري بجرأة . والاكثر من ذلك تركته دون أية ضغينة علي . ثم شعرت بخفة مثل غمامة تسبح في الفضاء ، فوقها السماء الزرقاء وتحتها الجبال الشامخة ، والمحيطات ، والحصون الضخمة وناطحات السحاب ، وسوح القتال والسيارات والبورصات ، وبيوت الاغنياء ، والاسواق والليل البهيم . . .

وأكثر من ذلك شعرت حقا بأن تلك الحياة الجديدة قاب قوسين او أدنى .

واستطعنا ، على نحوما ، ان نعيش خلال شتاء بكين المرير . ولكن ، كنا مثل يعسوبين سقطا في ايدي عفاريت صغار مؤذين فشدوهما في خيوط واصبحا موضعا للهو واللعب والتعذيب كمايشاء اللاعبون . ورغم أننا ظللنا احياء ، فقد كنا خائري القوى ، والنهاية هي قضية وقت ليس غير .

لقد ارسلت ثلاث رسائل الى محرر « صديق الحرية » قبل ان يجيب . وكان الغلاف يحوى مذكرتين ، احدهما بقيمة عشرين فلسا ، والثاني بقيمة ثلاثين فلسا . وصرفت تسعة فلوس على اجرة البريد استقطعتها من قوتي وعانيت الجوع طوال يوم كامل ، كل هذا دون طائل .

ومع ذلك فقد شعرت بأنني قد حصلت على ما توقعت .

اعطى الشتاء مكانه للربيع ، ولم تعد الريح قارسة جدا .

وازجيت وقتا اكثر في التجوال في الخارج ، وبصورة عامة لا أعود الى البيت الا عند الغسق . وذات مساء عدت الى البيت فاتر الهمة كالعادة . وكالعادة ايضا ادلهمت اساريري من منظر بابنا ، فابطأت الخطى . واخيرا ، على اية حال ، وصلت الى غرفتي . وكان الظلام يخيم في داخلها ، وحين كنت أبحث عن علبة ثقاب في الظلام لأشعل عودا ، كان المكان يبدو هادئا وفارغا على نحو غير مألوف .

كنت واقفا في ذهول حين دعتني امرأة الموظف من خلال النافذة .

قالت ببساطة : « جاءأبو تسو تشون اليوم . وأخذها معه . »

ولم يكن ذلك ما توقعته . وشعرت كأن ضربة قد أصابت مؤخر رأسي ، ووقفت دون كلام .

واخيرا استطعت ان أسأل : « هل ذهبت ؟ »

« نعم . »

« هل قالت شيئا ؟ »

« لا . فقط سألتني ان أقول لك عندما تعود بأنها قد ذهبت . »

ولم يكن في ميسوري تصديق هذا . ومع ذلك فقد كانت الغرفة هادئة فارغة على نحو شاذ . وبحثت في كل مكان عن تسو تشون . ولكن كل ما استطعت أن أراه هو الاثاث القديم الحائل اللون الذي بدا مبعثرا جدا ليظهر ان في غير مستطاعه ان يخفي شخصا او شيئا . وخطر ببالي انها ربما تركت رسالة او على الاقل كتبت بضع كلمات على قصاصة ورق . ولكن لا . لا شيء غير

قليل من ملح وفليفلات جافة وحفن من طحين ونصف كرنبة قد وضعت جميعا والى جانبها بعض الدريهمات النحاسية . وهذا كل ما نملك من متاعنا الدنيوي وهي الآن قد تركت بعناية كل هذا لي موصية اياي ، دون الفاظ ، بان استخدم هذا لاعيش مدة اطول قليلا .

وشعرت بما حولي يأخذ بخناقي ، فأسرعت خارجا الى وسط الفناء حيث كان الظلام يلف كل شيء وكان نور المصباح الوهاج يظهر على ورق النافذة في الغرفة المركزية حيث كانوا يداعبون طفلة ليجعلوها تضحك . واخذ قلبي يهدأ ، وطفقت ابحث عن مخرج من هذا الضيق الشديد والجبال العالية واراضي المستنقعات ، والبورصات ، والمآدب الزاهية الانوار ، والخنادق ، والليالي المدلهمة ، ووخزة سكين حاد ووقع اقدام هادئة . . .

واسترخيت مفكرا بنفقات السفر ، وتأوهت .

ورسمت صورة لمستقبلي وانا مستلق مغمض العينين ، ولكن قبل ان يمضي من الليل نصفه تلاشت الصورة . وفي الوحشة بدا لي فجأة انني أرى كومة من مواد البقالة وظهر وجه تسو تشون الرمادي يحدق بي وكأنه يحيطني بعينين طفوليتين . ولكن ما ان وعيت على نفسي حتى تلاشى كل شيء .

ومع ذلك فما زلت اشعر بثقل في فؤادي . لماذا لم استطع ان انتظر اياما قلائل بدلا من ان ابوح بالحقيقة على هذا النحو اليها ؟ انها ستعرف ان كل ما تبقى لديها هو جهامة ابيها الحاد

الطبع – ابيها العديم القلب مثل مراب مع اطفاله – وما تتعرض اليه من النظرات الباردة كالثلج . وما عدا ذلك فليس هناك غير الفراغ . فما اقسى ان يتحمل المرء عبء الفراغ الثقيل قاضيا حياته وسط الجهامة والنظرات الباردة ! وفي النهاية لا يظفر حتى بحجر يضعونه علامة على قبره .

كان علي ان لا اقول الحقيقة لتسو تشون . ومادام احدنا قد احب الآخر كان علي ان أستمر في الكذب عليها . فاذا كانت الحقيقة كنزا فينبغي ان لا تشعر بالفراغ ، والكذب بالطبع فراغ ايضا ، ولكنه على الأقل لا يبدو عبئا محطما في النهاية .

وكنت تخيلت : لو أخبرت تسو تشون بالحقيقة لكان في وسعها ان تسير قدما بجرأة ، ودون وساوس تماما كما كانت حين بدأنا نعيش معا . ولكن لا بد من انني على خطأ . فان عدم خوفها اذذاك راجع الى الحب .

ولم تكن لي الشجاعة على تحمل عبء النفاق الثقيل ، ولهذا ألقيت عبء الحقيقة على كاهلها ، لأنها قد احبتني ، فعليها ان تتحمل هذا العبء الثقيل ، وسط الجهامة والنظرات الباردة حتى آخر ايامها .

لقد فكرت بموتها . . . وأدركت أنني كنت ضعيفا واني مستحق ان ينبذني الاقوياء ، ولا فرق في ان يكونوا صادقين او منافقين . ومع ذلك فهي منذ البداية حتى النهاية كانت تأمل بأن أعيش أطول . . .

اردت ان أترك شارع تشيتشاو ، فهنا فراغ مؤلم ووحشة

شـديدة . وفكرت : لو أستطيع الخروج من هنا فسيكون الأمر كأن تسو تشون لما تزل الى جانبي او على الاقل كأنها لما تزل في البلـدة ، وقد تمـر بي لتزورني في أي وقـت ، كما كانت تفعل حين كنت أسكن في النزل .

وعلى أية حال ان جميع رسائلي لم يرد عليها ، وكذلك طلباتي الى أصدقائي بأن يجدو لي وظيفة ، ولم يكن هناك بد من زيارة احد معارف العائلة ممن لم أزره منذ زمن طويل . وكان هذا احد زملاء الدراسة لعمي وعنده شهادة عالية عاش سنوات كثيرات في بكين ، وكانت له دائرة واسعة من المعارف .

حدق بي البواب بازدراء – ولا ريب في ان ذلك كان بسبب ملابسي الرثة ولم يسمح لي بالدخول الا بمشقـة . وكان صديق عمي ما يزال يتذكرني ، ولكنه عاملني ببرود شديد . وكان يعرف كل شيء عنا .

« فيما يبدو أنك لا تستطيع البقاء هنا » قال ذلك ببرود بعد ان سألته ان يعطيني توصية تسهل لي العمل في اي محل آخر :

« ولكن اين ستذهب ؟ انه صعب للغاية . . . ان . . . ها . . . صد يقتك تلك ، تسو تشون هلا تعرف : قد ماتت . »

واعتراني ذهول .

« هل انت متأكد ؟ » قلت هذا بألم .

وارسل ضحكة مصطنعة : « بالطبع متأكد . ان خادمي وانغ تشنغ من نفس القرية التي تسكنها عائلتها . »

« ولكن – كيف ماتت ؟ »

« من يدري ؟ على اية حال ، ماتت . »

ونسيت كيف استأذنت بالخروج ، وعدت الى بيتي .

وكنت اعرف انه لا يقول كذبا . ان تسو تشون لن تكون معي ثانية كما كانت في العام الماضي ، ورغم انها ارادت ان تتحمل عبء الفراغ وسط الجهامة والنظرات الباردة ، الا ان ذلك قد أصبح مستحيلا عليها ايضا ، والقدر قد كتب بأن تموت غير محبوبة بعد ان عرفت الحقيقة التي قلتها لها .

والظاهر أنني لا أستطيع البقاء هنا . ولكن الى أين أذهب ؟

كان كل ما حولي فراغا عظيما هادئا كالموت . وبدا لي كأنني أرى الظلام امام عيني كل الذين ماتوا غير محبوبين ، وأسمع كل صرخات كفاحهم المرير .

وكنت أنتظر شيئا جديدا ، شيئا غير مسمى وغير متوقع. ولكن الأيام مرت تترى في نفس الهدوء المميت .

والآن أخرج من البيت أقل كثيرا من السابق ، أجلس ، او أرقد في ذلك الفراغ الكبير مبيحا روحي ليأكلها هذا الهدوء المميت . وفي بعض الاحيان يبدو الصمت نفسه خائفا ، يبدو ناكصا على عقبيه . وفي مثل تلك الاوقات يشع أمل جديد غير مسمى وغير متوقع .

وذات صباح مظلم ، حين كانت الشمس غير قادرة على التخلص من السحب ، والهواء ذاته تعب ، دفعني وقع اقدام صغيرة وصوت خفيف على ان أفتح عيني . وارسلت نظرة فيما حولي

فلم تكشف لي شيئا ، ولكن حين خفضت بصري رأيت مخلوقا صغيرا يخبط متجولا — مخلوقا نحيلا اقرب الى الموت منه الى الحياة .

وحين حدقت النظر كف قلبي عن الخفقان ، وقفزت .

كان ذلك آهسوي ، لقد عاد .

تركت شارع تشيتشاو بسبب نظرات صاحبة البيت والخادمة وبسبب آهسوي بصورة رئيسة . واين أستطيع ان اذهب ؟ ولكن لابد أنأ ذهب على اية حال . لقد أدركت ، طبيعيا ، أن هناك طرقا كثيرة مفتوحة امامي ، وفي بعض الاحيان كان يلوح أنها ممتدة امامي . ومع ذلك لم أكن أعرف كيف أخطو الخطوة الاولى .

وبعد ترو كثير في الامر قررت أن النزل هو المكان الوحيد الذي أستطيع ان أسكن فيه . وها هي نفس الغرفة الرثة كما كانت من قبل ونفس السرير الخشبي ، وشجرة الخرنوب نصف الميتة والوسطاريا . ولكن من اعطاني الحب والحياة والسعادة من قبل قد قضى . فليس هناك غير الفراغ ، وغير الوجود الفارغ الذي اشتريته بالحقيقة .

هناك طرق كثيرة مفتوحة امامي ، وعليّ أن أسلك واحدة منها لأنني ما أزال أحيا ولا أزال أعرف كيف أخطو الخطوة الاولى على أية حال . وفي بعض الاحيان كانت الطريق تبدو كأفعى عظيمة رمادية تتلوى زاحفة نحوي . وانتظرت ، وانتظرت أن تقترب ، ولكنها دائما تختفي في الظلام .

وكانت ليالي أوائل الربيع طويلة كأطول ما تكون الليالي .

وأجلس أنا متكاسلا وقتا طويلا . ويمرفي ذاكرتي موكب جنائزي رأيته في الشارع هذا الصباح وكانت هناك صور ورقية وخيول ورقية امام الموكب ، وخلفها بكاء يلوح مثل نغم مرنان . آه . . . كم هم اذكياء هولاء ؟

ثم تقفز الى ذهني جنازة تسوتشون . لقد تحملت عبء الفراغ الثقيل وحدها ، وتقدمت في الطريق الرمادية الطويلة لتزدرد وسط الجهامة والنظرات الباردة .

وأود لو أن لنا ارواحا حقا ، وأن هناك جحيما عن يقين . حينذاك ، مهما تهدر ريح الجحيم ، سأذهب وأرى تسو تشون لاخبرها بتأنيب ضميري ، وباساي ، واسألها الغفران . والا فستحيط بي نار الجحيم السامة ، وتلتهم تأنيب ضميري وأساي بشراهة .

وبين هدير الريح ، واللهب سأضع ذراعي حول تسو تشون ، وأسألها الصفح . او أحاول ان أجعلها سعيدة . . .

ولكن كل هذه الافكار ، على أية حال ، أشد فراغاً من الحياة الجديدة . والآن ليس هناك غير ليالي اوائل الربيع الطويلة كأطول ما تكون . وما دمت أحيا ولما أزل موجودا فعلي أن ابدأ بداية جديدة . والخطوة الاولى ما هي الا ان أصف تبكيت ضميري واساي على تسو تشون ، وعلى نفسي ايضا .

وكل ما عندي بكاء يرن مثل نغم مرنان وأنا أرثي تسو تشون دافنا اياها في النسيان .

أريد ان أنسى . فمن أجل نفسي لا أريد أن أتذكر النسيان الذي لحدث تسو تشون فيه .

ينبغي ان أبدأ بداية جديدة . وينبغي أن أخفي الحقيقة عميقا في قلبي المكلوم ، وأتقدم بصمت متخذا النسيان والكذب مرشدا لي . . .

٢١ تشرين الاول ١٩٢٥

الطـــلاق

« آه ، يا عم مو . كل عام وأنتم بخير ، وعيد سعيد ، وثروة وافرة . »

« كيف أنت يا باسان ؟ كل عام وأنتم بخير ! . . . »

« كل عام وأنتم بخير . وي . . . هنا ايضا — آي كو ! ! . . . »

« لقاء سعيد ، يا جدي مو ! . . . »

ونزل « تشوانغ مو سان » وابنته « آي كو » الى القارب من مرسى جسر مونليا . وانطلقت اصوات من على ظهر القارب . وبعض الركاب ضموا أيديهم وانحنوا ، واخليت اربعة أماكن من مصاطب المقصورة . وجلس تشوانغ موسان ، وهو يرد التحيات ، ويسند غليونه الطويل الى جانب القارب . وجلست آي كو على يساره

مقابل باسان ، وقدماها الشبيهتان بهيئة منجل انفرجتا كانفراج المروحة لتشكل رقم « ٧ » .

« أ ذاهب الى البلدة يا جد مو ؟ » وّجه هذا السؤال رجل له وجه محمر مثل محارة سرطان البحر .

فأجاب الجد « مو » بشيء من الكآبة : « ليس الى البلدة . » غير ان وجهه الأحمر الداكن كان متغضنا جدا فلا يظهر عليه الحزن الا بصعوبة : « نحن ذاهبان الى قرية بانغ . »

وكف الركاب جميعا عن الحديث ليحدقوا بهما .

وسأل با سان أخيرا : « هل هي قضية آي كو نفسها مرة اخرى ؟ »

« نعم . . . هذه القضية سيكون بها حتفي . وقد تجرجرت ثلاثة اعوام حتى الآن وقد تخاصمنا ورقعناها مرة بعد أخرى ، ومع ذلك فلم يسو الأمر حتى الآن . . . »

« هل ستذهب الى بيت السيد وي مرة أخرى ؟ »

« نعم . فهذه ليست هي المرة الأولى التي يكون فيها رسول سلام ، ولكنني لم أوافق ابدا على شروطه . وليس هذا هو الموضوع بل ان عائلتهم الآن قد اجتمع شملها بمناسبة العام الجديد . وحتى السيد السابع من المدينة سيحضر . . . »

« السيد السابع ؟ » قال باسان وهو يفتح عينيه على وسعهما : « اذن فسيكون هناك ليدلي برأيه ايضا ؟ اجل . . . اجل . . . في واقع الأمر منذ ان هدمنا موقدهم في العام الماضي فقد أخذنا بثأرنا تقريبا . وبالاضافة الى ذلك ، ليس هنا اي معنى من عودة

آي كو الى هناك . . . » وخفض عينيه ثانية .

فرفعت آي كو بصرها وقالت في حنق : « أنا لست عائدة الى هناك ، ايها الاخ با سان ! بل انا افعل ذلك لأغيظهم . فكر ! ان الحيوان الشاب ماض في علاقته مع الارملة عازما على ان لا يريدني . ولكن هل الأمر بهذه السهولة ؟ ان الحيوان العجوز يحتضن ابنه ، ويحاول التخلص مني ايضا — وكان كل شيء قد هان وسهل ! وماذا عن السيد السابع ؟ هل مجرد تبادل البطاقات بينه وبين الحاكم يعني انه لا يستطيع التكلم بلغتنا ؟ انه لا يمكن ان يكون جامد الفكر مثل السيد وي الذي لا يقول الا " طلاق . . . من الأحسن ، طلاق " . سأقول له كيف علي ان أتحمل كل هذه السنوات ، وسنرى كيف يحكم السيد السابع بأمرنا . »

واقتنع باسان ، وأغلق فمه .

وكان القارب سريعا جدا ، وما من صوت غير ضربات الماء على مقدمته . وتناول تشوانغ مو سان غليونه وملأه .

وبحث رجل سمين جالس الى الأمام بجنب با سان عن قداحة ، وقدح نارا رفعها الى غليون تشوانغ موسان .

قال تشوانغ مو سان وهو يهز رأسه : « شكرا لك ، شكرا لك . »

وقال الرجل باحترام : « رغم ان هذه هي المرة الاولى التي نلتقي فيها . فقد سمعت بك منذ امد طويل . فمن لا يعرف العم مو في جميع القرى الثماني عشرة على الساحل . ونحن نعرف

ايضا منذ زمن ان شيه الصغير يعيش مع ارملة صغيرة . وحين اخذت اولادك الستة لتهشم موقدهم في العام الماضي من قال انك غير محق ؟ . . . كل الابواب الكبيرة مفتوحة لك . فان لك جرأة وافرة فلمَ تخشاهم ؟ . . . »

قالت آي كو مصدقة : « ان هذا العم هو رجل ذو فطنة حقا . رغم انني لا اعرف من هو ؟ »

اجاب الرجل السمين على الفور : « اسمي وانغ ته كوي . »

« انهم لا يستطيعون اخراجي ! انا لا اهتم بالسيد السابع او السيد الثامن ، بل سأمضي في اثارة المتاعب حتى تتهدم عائلتهم ، ويموت افرادها ! ولقد عرض علي السيد وي الصلح اربع مرات أليس كذلك ؟ حتى بابا قد ثارت ثائرته لدى رؤية تلك التسوية بالفلوس . . . »

وكان تشوانغ مو سان يرد اللعنات في خفوت بينه وبين نفسه .

سأل وجه السرطان : « ولكن يا جدي مو ، ألم تقم عائلة شيه للسيد وي وليمة بكاملها في نهاية العام الماضي ؟ »

قال وانغ ته كوي : « هذا لا يهم هل يمكن لوليمة ان تعمي انسانا كليا ؟ اذا كان الامر كذلك فماذا يحدث لو اقيمت له وليمة اجنبية ؟ ان اولئك العلماء الذين يعرفون الحقيقة ينافحون عن العدل . فاذا تعدى أحد على أحد مثلا ، فسينهضون ويتكلمون الى جانبه سواء أكان النبيذ سيئا أم جيدا ، وفي نهاية العام الماضي عاد السيد يونغ من اهالي قريتنا المتواضعة من بكين . انه انسان رأى العالم العظيم وليس مثلنا نحن القرويين . وقال :

ان مدام كوانغ هناك هي أحسن . . . »

وصاح الملاح وهو يتهيأ لارساء القارب : « رصيف وانغ ! هل هناك ركاب ينزلون في رصيف وانغ ؟ »

« ها ، انا . » قال السمين وهو يخطف غليونه ويندفع خارج المقصورة ، ويقفز الى الشاطىء عند اقتراب الزورق .

« اعذروني ! » صاح بهزة من رأسه الى الركاب .

وجذف القارب في صمت جديد لا يتخلله الا صوت الماء . واخذ باسان يغفو مواجهاً حذاء آي كو الشبيه بشكل المنجل . واخذ فمه ينفتح بالتدريج . وطفقت المرأتان العجوزان في المقصورة الامامية تترنمان بالصلوات البوذية بصوت ناعم ، وتسبحان بمسبحتيهما ، زامتين شفاههما تنظران الى آي كو نظرة استعلاء هازتين رأسيهما .

وكانت آي كو تحدق في المظلة التي فوقها ، ولعلها تفكر في احسن طريقة لاثارة متاعب تدمر عائلة الحيوان العجوز ، ولا يكون له وللحيوان الشاب مخرج منها . وكانت غير خائفة من السيد وي . فقد رأته مرتين ، وهو رجل مكتنز مدور الرأس ولا يمتاز بصفة أخرى فهناك كثيرون من امثاله في قريتها ، الا انهم اكثر سمرة منه بشيء قليل .

وفرغ تشوانغ مو سان من تبغه ، وكان الزيت في الغليون يسيل ، الا انه مضى في سحب الانفاس وكان يعرف ان المحطة بعد رصيف وانغ هي قرية بانغ . وفي الحقيقة في وسعك الآن ان ترى رواق النجم الادبي في مدخل القرية . وكان قد تردد

هناك كثيرا جدا فالقرية في نظره لاشيئ وحتى السيد وي الذي فيها . وكان يتذكر كيف جاءت ابنته الى البيت باكية وكيف تصرف زوجها وحموها تصرفا سيئا ، وكيف صار سيد الموقف وانبسط الماضي امام عينيه مرة أخرى . وكلما تذكّر كيف عاقب صانعي الاثم ابتسم ابتسامة شاحبة — ولكن في هذه المرة لم يبتسم فقد اعترضه شكل السيد السابع السمين على نحوما ، وشتت أفكاره ، وقطع حبل نظامها .

وسار القارب في صمت مستمر . الا ان الصلوات البوذية قد تزايدت وبدا كل راكب غارقا في تفكير مثل آي كو وأبيها .

« ها هي قرية بانغ ياعم مو . »

وأيقظهم صوت الملاح ، ورفعوا ابصارهم ، ورأوا رواق النجم الأدبي امامهم .

وقفز تشوانغ الى الشاطىء ، وتبعته آي كو . ومرا بالرواق . واتجها نحو بيت السيد وي . وبعد ان مرا بثلاثين بيتا في طريقهما جنوبا ، ما لا الى منعطف ، ووصلا الى ما يبتغيان . وكانت عند الباب أربعة قوارب ذوات ظلال سود راسية مشدودة في صف واحد .

وحين عبرا الباب الكبير المختوم بصبغ اسود طلب اليهما ان يدخلا الى غرفة البواب وكانت مملوءة بالملاحين ، والعمال الزراعيين الذين كانوا جالسين الى طاولتين ولم تجرؤ آي كو على التحديق بهم ، ولكنها القت حولها نظرة واحدة سريعة ، فلم تر اي أثر للحيوان العجوز ولا للحيوان الشاب .

وحين جلب أحد الخدم الحساء ومعه كعك السنة الجديدة لسبب لا تدريه ، شعرت بقلق أكثر . وفكرت : « ان مجرد مبادلة البطاقات مع الحاكم لا يعني انه لا يستطيع التكلم بلغتنا . ان اولئك العلماء الذين يعرفون الحقيقة ينافحون عن العدل . وينبغي علي ان اخبر السيد السابع بالقصة كلها ، ابتداء من الوقت الذي تزوجته فيه وانا في الخامسة عشرة من العمر . . . »

وحين فرغت من الحساء عرفت ان الموعد قريب وقبل ان يمضي وقت طويل رأت نفسها تتبع احد العمال الزراعيين مع أبيها عبر القاعة الكبيرة ، وانعطف بهما قليلا ثم وصلوا الى غرفة الاستقبال .

وكانت الغرفة مكتظة بالاشياء حتى لم تستطع ان تحيط بكل ما فيها . وكان هناك ضيوف كثيرون ايضا كانت سترهم القصيرة من الحرير الأحمر والأزرق تشع حول تلك الاشياء وقد توسطهم رجل عرفت في الحال انه السيد السابع لا محالة . ورغم ان له رأسا مدورا ، ووجها مدورا أيضا ، فقد كان اكبر بكثير من السيد وي والآخرين .

وكانت له عينان تشبهان فتقين ضيقين في وجهه الكبير المدور ، وشارب أسود صغير ، ولما كان اصلع فقد كان رأسه ووجهه محمرين لامعين وتحيرت آي كو كثيرا في الوهلة الاولى ، ثم استنتجت بانه لا بد أنه قد طلى جلده بالسلاء .

« هذا صمام الفرج هو الذي كان القدماء يستعملونه في

ارماس الاموات (١) » ـ قال ذلك السيد السابع وهو يمسك شيئا يشبه حجرا متأكلا فرك انفه به مرتين ثم قال : « من سوء الحظ انه جاء من حفر حديث . ومع ذلك فهو ذو قيمة ، ولا يمكن ان يكون الى عهد أقدم من عهد هان (٢) انظروا الى طلاء الزئبق (٣) . . . »

وفي الحال أحاطت بـ « طلاء الزئبق » عدة رؤوس . وكان احدها بالطبع ، رأس السيد وي . وكان في الغرفة عدة ابناء للعائلة ايضا لم تلاحظهم آي كو لانهم من شدة خوفهم من السيد السابع كانوا يبدون مثل بق الفراش المفروك .

ولم تفهم كل ما قاله ، اذ لم تكن مهتمة بـ « طلاء الزئبق » هذا ، ولا رغبت في تفحصه لهذا فقد اهتبلت هذه الفرصة فتلفتت حولها فرأت الحيوان العجوز والحيوان الشاب كليهما يقفان وراءها الى جانب الحائط قرب الباب وبنظرة واحدة رأت انهما كانا يبدوان اكثر سنا مما كان حين رأتهما مصادفة قبل نصف عام .

ثم انصرف الجميع عن « طلاء الزئبق » وتناول السيد وي

---

(١) صمام الفرج ترجمة لكلمة anus-stop الواردة في الترجمة الانكليزية . وكان من عادة القدماء وضع قطعتين من حجر اليشم في مخرج الرجل لانهم كانوا يعتقدون انها تقي الجثة من التفسخ .

(٢) اسرة هان الملكية (٢٠٦ ق.م الى ٢٢٠ ب.م)

(٣) هذا اليشم ، والاشياء المعدنية الموجودة في القبور غالبا ما تطلى بالزئبق ، الذي يوضع في الجثث لوقايتها من التفسخ السريع جدا .

صمام الفرج ، وجلس يفركه ، وتحول الى تشوانغ موسان ليسأله :

« هل أتيتما وحدكما ؟ »

« نعم ، وحدنا . »

« ولماذا لم يأت احد أبنائك ؟ »

« ليس عندهم وقت . »

« لن نجشمكم عناء المجيء في العام الجديد . اذا لم يكن لهذه القضية . . . وانا واثق انك لقيت منها ما فيه الكفاية . لقد انقضى عامان . أليس كذلك ؟ والأحسن ان نزيل العداوة بدلا من ان نبقي عليها . وما دام زوج آي كو لم يعش معها ، وابواه لا يحبانها . . . فالافضل ان تعمل بما نصحتك به سابقا ، واتركهما ينفصلان — وليست عندي القوة الكافية على اقناعك . ولكن السيد السابع — كما تعلم — بطل من أبطال العدل . ورأي السيد السابع مثل رأيي . ومع ذلك فقد قال ان كلا الجانبين يجب ان يجريا بعض التنازل وقد اخبر عائلة شيه بأن تضيف عشرة دنانير اخرى للتسوية فتجعلها تسعين ديناراً . »

« . . . . »

« تسعين دينارا ! اذا رفعت القضية الى الامبراطور نفسه ، فلن تحصل على مثل هذه الشروط الملائمة . ولااحد غير السيد السابع يستطيع ان يقدم مثل هذا العرض ! »

ووسع السيد السابع فتقي عينيه ، وهز رأسه الى تشوانغ موسان .

ورأت آي كو ان الموقف حرج ، وعجبت من ان اباها

الذي يرهب جميع عوائل الساحل لم يفه بكلمة هنا . وفكرت : ثم قالت لنفسها : ذلك شيء لا موجب له ابدا . ورغم انها لم تستطع ان تتابع كل ما قاله السيد السابع ، فقد لاح لها العجوز روحا عطوفا ، ليس مخيفا كما تخيلته .

وقالت بجرأة : « ان السيد السابع عالم يعرف الحقيقة . وهو ليس على شاكلتنا نحن الريفيين ولم يكن عندي أحد أشكو له كل ما أصابني من ضيم ! ولكنني الآن سأبث ضيمي للسيد السابع . لقد حاولت منذ ان تزوجت ان اكون زوجة طيبة — احني رأسي كلما ادخل او اخرج ، ولم اقصر في أي واجب من واجبات الزوجة . ولكنهم كانوا لا يتسقطون أخطائي وفي ذلك العام قتل ابن عرس الديك الكبير . فكيف يمكن ان يضعوا علي اللائمة بعدم غلق كن الدجاج ؟ ان ذلك الكلب الاجرب — اللعنة عليه — هو الذي دفع باب الكن ففتحه ليسرق بعض الرز المخلوط القشور ولكن الحيوان الشاب لا يفرق بين الاسود والابيض . فقد صفعني على خدي . . . »

ونظر اليها السيد السابع .

« أعرف ان لا بد من سبب . هذا شيء لا يفوت على فطنة السيد السابع ، لان العلماء الذين يعرفون الحقيقة ، يعرفون كل شيء . وقد خلبت لبه تلك الكلبة ، واراد ان يبعدني . لقد تزوجته بالصداق المعهود — ثلاث حصص من الشاي ، وست هدايا — وحملت الى بيته بمحفة عروس ! فهل من السهل عليه جدا ان ينحيني جانبا ؟ . . . انا اريد ان اريهم ، ولا يهمني ان اذهب

الى المحكمة . واذا تعسر ان تسوى القضية في محكمة المنطقة ، فسأذهب الى حاكم المقاطعة . . . »

قال السيد وي وهو يرفع بصره : « السيد السابع يعرف كل ذلك . واذا تصري على هذا الموقف يا آي كو فلن يكون بصالحك . انت لم تتغيري قيد انملة . وانظري ما اعقل أباك ! ومن المؤسف انك واخوتك لا تشبهونه . وعلى فرض انك عرضت هذه القضية على حاكم المقاطعة أفلا يستشير السيد السابع ؟ ولكن ، اذذاك ، ستكشف القضية للملأ ، ولن يهمل شعور الناس . . . في هذه الحال . . . »

« سأجازف بحياتي اذا اقتضت الحاجة ، حتى لو تدمر العائلتان . »

قال السيد السابع ببطء : « لا حاجة لمثل هذه التدابير القانطة . انت ما تزالين شابة . ويجب ان نحافظ على السلم جميعا والسلم يخلق الغنى . أليس هذا حقا ؟ ولقد اضفت عشرة دنانير بحذافيرها . ذلك اكثر من الكرم . ذلك لأن حماك وحماتك قالا " اذهبي ! " فعليك ان تذهبي ولا تتحدثي عن حاكم المقاطعة . فالشيء نفسه في شانغهاي وبكين وفي الخارج . وان لم تصدقيني ، فاسأليه ! لقد عاد من المدرسة الأجنبية في بكين . » وتحول الى ابن مدبب الذقن من ابناء العائلة وسأله : « أ ليس كذلك ؟ »

« . . . نعم . . . نعم . » أسرع مدبب الذقن بالانتصاب ليرد بصوت خفيض مملوء بالاحترام .

وشعرت آي كو بأنها معزولة تماما . وقد رفض أبوها ان ينطق ، ولم يجرؤ اخوانها على المجيء وكان السيد وي على الدوام في الجانب ، والآن قد تخلف عنها السيد السابع ايضا ، بينما حتى ذلك الشاب المدبب الذقن بكلامه الناعم مثل بقة مفروكة قال ببساطة ماكان متوقعا منه . ولكنها اذا كانت مضطربة فلها ان تحاول آخر محاولة .

« ماذا ، حتى السيد السابع . . . » ولاحت في عينيها الدهشة وخيبة الامل : « نعم . . . أنا اعرف اننا قوم خشنون جهلاء. ووالدي هو الملوم لأنه لا يفهم كيف يتعامل مع الناس — بل لانه فقد حصافته تماما . فترك الحيوان العجوز ، والحيوان الشاب يتدخلان في كل شيء . ينحطان الى كل وسيلة ، مهما كانت عفنة ، ليتزلفا للذين فوقهما . . . »

وفجأة ابتدر الحيوان الشاب الذي كان واقفا وراءها قائلا : « أنظر اليها السيد السابع ، انها تجسر على ان تسلك هذا السلوك حتى في حضرة السيد السابع . وفي البيت لم تكن تجعلنا نعيش في امان مطلقا . انها تسمي أبي الحيوان العجوز ، وأنا الحيوان الشاب أو ابن الزنى . »

فالتفتت آي كو اليه بشدة : « من الذي يسميك ابن زنى ؟» ثم تحولت الى السيد السابع : « عندي شيء آخر أريد ان أقوله علانية . انه كان دائما دنيئا . كان يقول لي " عاهرة " و" كلبة " على الدوام . وبعد ان صاحب تلك المومس كان يسب اجدادي ايضا ، فاحكم بيننا ايها السيد السابع . . . »

وانتفضت ، وماتت الكلمات على شفتيها ، لان السيد السابع حرك عينيه ، ورفع رأسه المدور بغتة ، وخرجت من فمه المحاط بذلك الشارب الخفيف صيحة راجفة منسرحة .

« تعال هنا ! . . . »

وفجأة طفق قلبها الذي كف عن الخفقان يدق سريعا . لقد خسرت المعركة ، والوضع قد انكفأ كما لاح لها . وخطت خطوة كاذبة ، وسقطت في الماء وكانت تعرف ان كل ذلك خطأها هي .

وفجأة دخل رجل يرتدي جلبابا ازرق وسترة سوداء ووقف مثل عصا امام السيد السابع .

وخلت الغرفة من كل نأمة . وحرك السيد السابع شفتيه . ولكن ما من أحد قدر ان يسمع ما كان يقول ، بل لم يسمع الا خادمه ، وقد نفذت قوة هذا الأمر الى نخاعه ، لانه قد اختلج مرتين وكأنما الرعب قد تملكه ، واجاب :

« أمرك يا سيدي ! »

ثم تقهقر بضع خطوات واتجه الى طريقه ومضى .

وعرفت آي كو ان شيئا غير متوقع ، وغير مدرك من قبل أبدا ، على وشك ان يحدث — شيئا لا قوة لها على رده . وهناك فقط ادركت قوة السيد السابع كاملة . وقد كانت على خطأ من قبل ، وتصرفت بتهور وجفاء شديدين وندمت بمرارة ، ووجدت نفسها تقول :

« انا دائما اقبل بقضاء السيد السابع . . . »

ولم يكن في الغرفة غير صوتها يتردد ، ورغم ان كلماتها كانت رقيقة مثل جداثل الحرير الا انها كانت مثل هزيم الرعد في اذن السيد وي .

صاح مستحسنا ، وهو يقفز على قدمين : « جسنا ! ان السيد السابع عادل حقا وآي كو عاقلة حقا . وفي هذه الحال ، يا مو سان ، لن يكون لديك أي اعتراض مادامت ابنتك قد قبلت بنفسها . وانا واثق من انك قد جلبت معك عقود الزواج التي طلبت منك أن تحضرها . فليبرزها كلا الجانبين الآن . . . »

ورأت آي كو اباها يبحث في زناره عن شيء . وجاء الخادم الذي يشبه العصا وسلم للسيد السابع شيئا صغيرا مسطحا بلون اليشم الأسود ، السلحفاة في الشكل . وخشيت آي كو من ان شيئا مريعا سيحدث ، فألقت نظرة على أبيها ، بيد انه كان يفتح حزمة قماشية زرقاء على المنضدة ، واخذ منها دنانير فضية .

ورفع السيد السابع رأس السلحفاة ، وصب شيئا من جسمها في راحته ، وأعاد الشيء المسطح الى الخادم الذي يشبه العصا . وفرك اصبعا واحدة في راحته ، ثم شمه في كل منخر من منخريه ولطخ انفه وشفته العليا بلون اصفر لامع . ثم قلص انفه وكأنه موشك على ان يعطس .

كان تشوانغ موسان يعد الدنانير الفضية ، واخذ وي قليلا من كومة دنانير لم تعد ، واعطاها الى الحيوان العجوز . ثم غير ايضا وضع العقد الاحمر والأخضر ، واعادهما الى اصحابهما الأصليين .

وقال : « ادخرها . ويجب ان تتأكد من ان المبلغ صحيح

ياموسان . هذا ليس هزلا وكل هذه فضة . . . »

ثم عطس السيد السابع .

ورغم ان آي كو كانت تعرف ان السيد السابع وحده هو الذي يعطس ، فلم تصد نفسها عن ان تلتفت اليه . وكان فمه مفتوحا على سعته ، وأنفه متقلصا ، وما يزال يمسك بيده ذلك الشيء الصغير « الذي استخدمه القدماء في ارماسهم » . وفرك جانب انفه به .

وبشيء من الصعوبة فرغ تشوانغ مو سان من عد النقود واعاد كلا الجانبين العقد الاحمر والاخضر . ثم بدا الجميع وقد زال عنهم الضغط . وتراخت السحنات المتوترة ، وساد الوئام التام .

قال السيد دي : « أجل . . لقد سويت هذه القضية بصورة مرضية . » وحين رآهم على وشك الذهاب تنفس الصعداء : « حسنا ليس هناك شيء آخر الآن . أهنئكم على حل هذه العقدة ! هل انتم ذاهبون ؟ الا تبقون لتشاركونا في وليمة العام الجديد . هذه فرصة نادرة . »

قالت آي كو : « ينبغي ان لا نبقى . وسنأتي لنشرب معكم في العام القادم . »

« شكرا لك يا سيد وي . لا نشرب الآن ، لان اشغالا اخرى . . . » وانسحب تشوانغ مو سان والحيوان العجوز ، والحيوان الشاب باحترام فائق .

« ماذا ؟ ألا تشربون ولو قطرة واحدة قبل الذهاب ؟ » ونظر

السيد وي الى آي كو التي كانت في المؤخرة .

« حقا ينبغي ان لا . . . وشكرا لك يا سيد وي . »

٦ تشرين الثاني ١٩٢٥

الطيران الى القمر

– ١ –

الحيوانات الذكية تبدو كأنها تعرف ماذا يفكر الناس . فما ان ظهر البيت على مرمى البصر حتى ترك الفرس الارقال ، ومشى مشيا ثقيلا مثل مدك مجرشة الرز ، مطرقابرأسه مثلما يفعل صاحبه .

وكان البيت يخيم فوقه ضباب الماء ، والدخان الاسود يتصاعد من كل مداخن الجيران ، لأن الوقت كان وقت عشاء . وحين سمع الحراس وقع حوافر الفرس خرجوا للترحيب بالقادم ، ووقفوا منتصبين امام الباب ، وحين ترجل « ئي » (١) من فرسه

(١) بطل نبال مشهور في الأساطير الصينية القديمة .

بفتور الى جانب كومة التراب ، تقدموا ليأخذوا منه العنان والسوط وما ان وضع قدمه على عتبة الباب الكبيرة ونظر الى كنانته المملوءة بالسهام القشية المشدودة في وسطه ، والى الغربان الثلاثة والعصفور في حقيبته حتى أحس بمزيج من التردد والخجل . ولكنه دخل مظهرا الشجاعة ، وسهامه تقعقع في كنانته .

وحين وصل الى الفناء الداخلي رأى « تشانغ غو » تطل من نافذة مستديرة وكانت حادة البصر حتى لتيقن أنها رأت الغربان . وقد أدهشه ذلك برهة فتوقف فجأة — ولكن ، كان عليه ان يستمر في مشيه . وجاءت الوصيفات يحيينه ، وفككن قوسه وسهامه ، وحللن جعبة صيده . وأحس أنهن يبتسمن مضطربات الاعصاب .

« مدام ! . . . » صاح وهو يسير الى غرفة زوجته بعد ان مسح وجهه ويديه .

وكانت تشانغ غو تراقب غروب الشمس من النافذة المستديرة . فاستدارت ببطء ، وألقت عليه نظرة عابرة ، ولكنها لم تتكلم معه .

وكان قد الف هذه المعاملة زمنا أكثر من عام على الأقل ، لكنه دخل كعادته ، وجلس على جلد النمر الأرقط القديم البالي الموضوع فوق الاريكة الى قبالتها . وحك رأسه وتمتم :

« لم يصادفني حظ سعيد هذا اليوم أيضا . فلم أجد غير الغربان . »

« وي ! »

ورفعت رموشها المتهدلة ، ونهضت فجأة ، وجرت اذيالها من الغرفة متشكية وهي تسير : « حساء معكرونة مع مرق الغربان

مرة أخرى ! حساء معكرونة مع مرق الغربان مرة أخرى ! أحب أن أعرف من غيرنا لا يأكل غير حساء المعكرونة مع مرق الغربان من عام الى عام ؟ ما أتعس حظي في الزواج منك وفي أكل حساء المعكرونة مع مرق الغربان العام بطوله ! »

ونهض ئي على قدميه ، وتبعها : « مدام ، ليس الأمر سيئا جدا في هذا اليوم على أية حال . » ومضى يقول بنعومة : « لقد اصطدت عصفورا ايضا في وسعك ان تطبخيه . » ونادى الخادمة : « نو شين ، هاتي العصفور لتراه سيدتك . »

وكان الصيد قد جلب الى المطبخ فهرولت نو شين لتجلب العصفور ، وحملته بكلتا يديها الى تشانغ غو .

« أوه ! » نظرت اليه ، ووخزته ببطء بأصبعين .

وقالت مغتاظة : « كم هو بغيض ! انه مزق من عظام . أين اللحم ؟ » .

قال ئي وقد فقد أعصابه : « نعم ، لقد مزقته الاصابة . ان قوسي قوية ، ورؤوس سهامي عريضة جدّاً . »

« ألا تستطيع أن تستعمل رؤوسا أصغر ؟ »

« ليس عندي أي واحد منها منذ أن اصطدت الخنزير البري العملاق ، والأصلة (١) الهائلة . . . »

فقالت : « أهذا خنزير بري عملاق أم أصلة هائلة ؟ » وتحولت الى نو شين وأمرتها : « أعدي صحنا من الحساء ! »

---

(١) الأصلة ، محركة : حية صغيرة او عظيمة .

ثم عادت الى غرفتها .

وترك ثي وحده في حيرة ، فجلس وظهره الى الحائط لينصت الى قرقعة الحطب في المطبخ . وتذكر كم كان الخنزير البري عملاقا — لقد كان يلوح من بعيد مثل تل صغير . ولو لم يقتله اذ ذاك وتركه حتى الآن لكفاهم لحمه نصف عام ، ولأعفاهم من كل هذا الهم عن الطعام كل يوم . أما الأصلة الهائلة ، فيمكن صنع حساء منها . . .

ودخلت نو ثي لتوقد المصباح ، وأضاءت أشعته الخافتة القوس الاحمر ، والسهام ، والقوس الاسود ، والسهام ، والقوس المتقاطع ، والسيف ، والخنجر المعلقات على الحائط المقابل له . وبعد أن القى ثي نظرة واحدة اليها خفض رأسه وتأوه . ثم جاءت نو شين بالعشاء ، ووضعته على المائدة في الوسط ، خمس طاسات كبيرة من حساء المعكرونة الى اليسار ، وطاسان كبيران من حساء المعكرونة ، وطاس حساء الى اليمين ، وفي الوسط طاس كبير من المرق المصنوع من لحم الغربان .

واثناء الأكل اعترف ثي بنفسه أن حساء المعكرونة أصبح يعافه الشهية تماما ، واختلس نظرة الى تشانغ غو . لقد ألقت نظرة واحدة الى المرق ليس غير ، ثم نقعت معكرونتها بالحساء ، ووضعت طاسها وهي نصف مملوءة . ولاح له وجهها أكثر شحوبا ونحافة من ذي قبل ، وخشي ان تكون عليلة .

وفي المرة الثانية بدت في مزاج ألطف ، وجلست صامتة على حافة السرير لتشرب شيئا من الماء . وجلس ثي على الأريكة

الخشبية بجوارها يمسد جلد النمر الارقط القديم الذي فقد فراءه .

وقال بصوت مصالح : « آه ، لقد اصطدت هذا النمر الأرقط في التلال الغربية قبل ان نتزوج . وكان منظرا جميلا ، مذهبا ولامعا كله . »

وذكره ذلك بطعامهما في تلك الأيام ، فانهما كانا لا يأكلان غير مخالب الدب الاربعة ، وغير سنام البعير ، معطيين الوصيفات والخدم البقية كلها . وحين ينفد الصيد كله يأكلان الخنازير البرية ، والارانب ، والديوك البرية ، ولأنه كان بارعا في الرماية جدا كان يصطاد قدر ما يشتهي

وفلتت منه آهة .

وقال : « الحقيقة أنني سديد الرماية جدا . وذلك هو السبب في أن المكان كله قد نظف . ومن كان في وسعه ان يخمن أننا سنبقي بلا شيء غير الغربان ؟ »

وابتسمت ثشانغ غو ابتسامة خافتة .

« هذا اليوم ينبغي ان يعد من الايام المحظوظة . » وشعر هو الآخر بالانشراح : « على الاقل اصطدت عصفورا . كان علي ان أسير عشرة اميال اضافية لأصطاده . »

« وهل في ميسورك ان تتوغل أكثر ؟ »

« نعم ، يامدام ، هذا ما أنوي فعله . سأستيقظ غدا في وقت أبكر . فاذا استيقظت أنت أبكر مني فادعيني فأنا أنوي الذهاب زهاء عشرين ميلا أبعد ، وأرى هل في امكاني ان أجد يعامير أو ارانب . . . رغم ان ذلك ليس سهلا . عند ما اصطدت

الخنزير البري العملاق والأصلة الهائلة كان هناك صيد وفير . هل تذكرين كل الدببة السوداء التي كانت تمرbباب حماتي ، وكيف كانت تلح كثيرا ان أرميها ؟ . . . »

« نعم ؟ » وبدت تشانغ غو ناسية .

« من كان في وسعه ان يخمن أن الدببة كلها ستختفي على هذا النحو ؟ فكري في ذلك ، في الحق انني لا أعرف كيف سندبر امرنا في المستقبل . أنا بخير ، وما علي الا أن آكل ذلك الاكسير الذي أعطاه لي الراهن ، واستطيع أن أصعد الى السماء . ولكن ينبغي ان أفكر بك اولا . لهذا عزمت على ان أذهب أبعد قليلا في الغد . . . »

« ايه ؟ »

وانتهت تشانغ غو من شرب الماء . واستلقت ببطء ، واغمضت عينيها .

وأضاء الضوء المتضائل زينتها المهملة . فقد زال كثير من بودرتها ، وبدا الجلد تحت عينيها أدكن لونا ، ولاح الكحل في رموشها نابيا ؟ ومع ذلك كان فمها أحمر كالنار . ورغم أنها لم تكن تبتسم ففي وسعك أن ترى نقرة خفيفة على كل خد .

« آه ! كيف يمكن أن لا أقدم لامرأة كهذه غير مرق الغربان والمعكرونة طوال الحول ؟ »

وكان ئي خجلا من التفكير بذلك حتى خداه وأذناه أخذت تتوهج .

— ٢ —

انقضى الليل ، وبزغ فجر يوم جديد .

وحين فتح ثي عينيه ، ورأى شعاع الشمس مائلا على الجدار الغربي عرف ان الوقت لا يمكن ان يكون مبكرا . ونظر الى تشانغ غو التي كانت تغط في نومها وذراعاها مبسوطتان . ثم قام وارتدى ملابسه بهدوء ، وانزلق من جلد النمر الارقط ، وسار على اطراف اصابعه الى القاعة . وحين كان يغسل وجهه أخبر نو كنغ بأن تأمر وانغ شنغ أن يسرج فرسه .

ولما كان مشغولا جدا فقد ألغى الفطور منذ زمن طويل . ووضعت نو ثي خمس كعكات ، وخمس كراثات وعلبة من مرق الفلفل الأحمر في جعبته ، وشدت هذه بقوة الى خصره مع قوسه وسهامه . وشد هو حزامه ، ومشى خارج القاعة خفيفا ، وتحدث الى نو كنغ التي كانت قد دخلت توا .

« أنوي ان أذهب اليوم أبعد مسافة بحثا عن الصيد . وقد أتأخر قليلا في العودة . وحين تستيقظ سيدتك وتنتهي من تناول فطورها ، وتبدو في مزاج رائق قولي لهاأنا آسف جدا ، بيد أنني آمل في أنها ستنتظر عشاء معي . لا تنسي ! قولي لهاأنا آسف جدا . »

وخرج مسرعا ، وقفز الى السرج ، وانطلق مارا بالخدم المصطفين على الجانبين . وسرعان ما كان يعدو خارج القرية . والى الامام كانت حقول الذرة التي كان يجتازها كل يوم ، ولم يلتفت لها بعد أن رسخ في ذهنه منذ زمن طويل أن ليس

من شيء هنا . وبقرعتين من سوطه اندفع الى الأمام ، وقطع زهاء عشرين ميلا دون توقف . وكانت أمامه غابة كثيفة . ولما كان حصانه يلهث متقطع الانفاس وقد غطى العرق جسمه فطبيعي أنه خفف السير . وبعد ثلاثة أو اربعة أميال وصل الغابة حيث لا يرى فيها غير الزنابير والفراشات ، والنمل ، والجنادب ولا أثر فيها لصيد . و في اول نظرة الى هذا المكان الجديد توقع ان يصيد ثعلبا أو أرنبا على الأقل لكنه الآن أدرك أن ذلك كان حلما عقيما . وخرج من الغابة فرأى أمامه بساطا آخر من حقول الذرة الخضراء ، ومن بعيد لاح كوخ أو كوخان من الطين ، وكان النسيم بليلا ، والشمس وضاءة ، وما من صوت طائر .

« تبا لهذا كله ! » جأر لينفس عن مشاعره .

وبعد ان خطا خطوات قليلة اخرى الى الأمام قفز قلبه الى حلقومه . ذلك لأن في الأرض المنبسطة خارج كوخ طيني يلوح شبح من بعيد . كان ثمة طائر ينقر الأرض في كل خطوة فبدا كأنه حمامة . وأمسك قوسه ، ووضع سهما فيه ، وسحبه الى غايته ، ثم أطلقه ، ومرق سهمه في الهواء مثل نيزك .

وكان لا يخطيء طريدته أبدا . ذلك لا جدال فيه . وكل ما كان عليه ان يفعله أن يهمز فرسه منطلقا وراء السهم ، وفي وسعه أن يحصل على صيده . ولكن ما ان اقترب منه حتى رفعت عجوز الحمامة الكبيرة المطعونة بسهمه ، وهرعت تصيح نحوه :

« من انت ؟ لماذا رميت أحسن دجاجة تفقيس سوداء

عندي ؟ أليس لك شيء افضل من ذلك تفعله ؟ . . . »

وارتج قلب ئي رجة مباغتة ، وتوقف عن السير .

وسأل ثائر الاعصاب : « ماذا ؟ . . . دجاجة ؟ حسبتها سمانى . »

« هل أنت أعمى . ولا بد أنك تجاوزت الاربعين أيضا . »

« نعم ، يا مام . لقد بلغت الخامسة والاربعين في العام الماضي . »

« بهذه السن وما زلت بهذا الحمق ؟ بل حتى أنك لتحسب الدجاجة الأم سمانى ! من أنت على أية حال ؟ »

« أنا ئي ئي . » واذ قال ذلك لاحظ أن سهمه قد انغرس في قلب الدجاجة ، فهي اذن ميتة طبعا ؛ ومن هنا تهافت صوته عندما نطق باسمه وهو يترجل عن فرسه .

« ئي ئي ؟ . . . لم أسمع بهذا الاسم قط ! » وحملقت في وجهه .

« بعض الناس سيعرفونني في الحال . في أيام الملك ياو السعيدة اصطدت كثيرا من الخنازير البرية والأصلات . . . »

«أوه ، أنت كذاب ! ان سيادة فنغ منغ (١) وبعض الرجال الآخرين هم الذين اصطادوا هذه معا . لعلك كنت واحدا منهم . ولكن كيف تستطيع ان تدعي أنك فعلت ذلك كله بنفسك ؟ يا للعار ! »

---

(١) يعتقد أنه تلميذ ئي في الاساطير .

« حقا ، يا مام ، ان ذلك الفتى فيغ منغ كان يزورني خلال الاعوام القليلة الماضية ، ولم نعمل معا أبدا قط . وليس له علاقة بذلك . »

« كذاب . كل الناس يقولون ذلك . وأنا أسمعه أربع او خمس مرات في الشهر . »

« أجل . . فلنتحدث بجد . ماذا عن هذه الدجاجة ؟ »

« يجب أن تحسم أمرها ! لقد كانت أحسن دجاجة بيوض عندي . انها تضع بيضة واحدة كل يوم . ينبغي ان تعطيني معزقتين وثلاثة مغازل . »

« انظري الي يا مام — أنا لست مزارعا ولا غزالا . فمن أين آتي لك بالارفاش والمغازل ؟ وليس عندي فلوس أيضا ؟ لا شيء غير خمس كعكات ، ولكنها مصنوعة من أحسن الدقيق ، وسأعطيها لك عوضا عن دجاجتك وعلاوة عليها خمسة كراثات . وعلبة من مرق الفلفل الأحمر . ماذا تقولين ؟ . . . »

وتناول الكعك من جعبته في يد ، وتناول الدجاجة في اليد الاخرى .

ولم تعارض العجوز في قبول تلك الكعكات المصنوعة من أحسن الدقيق . ولكنها أصرت أن تأخذ خمس عشرة كعكة . وبعد المماكسة زمنا قصيرا اتفقا على عشر ، ووافق ئي على ارسال الخمس الاخريات عند الظهر من غد على آخر تقدير ، تاركا سهماً عندها رهينة . واذ ذاك فحسب شعر بالاطمئنان . وحشر الدجاجة الميتة في جعبته وقفز الى سرجه ، واتجه الى البيت .

وكان سعيدا رغم جوعه . فمنذ أكثر من عام في الواقع لم يذوقوا حساء الدجاج .

وحين خرج من الغابة كان الوقت أصيلا ، فساط حصانه ليعدو به الى البيت . وكان الحيوان منهكا فلم يصل الى حقول الذرة المعهودة الاعند الغسق . ولاح على مدى البصر شخص قاتم الصورة ، ورن سهم في الهواء .

ولم يكبح زمام فرسه بل تركه يسير في تلكؤ ، ووضع سهما في قوسه ، واطلقه . وسمع صوت ارتطام اذ تصادم السهمان وتطايرت الشرارات في الهواء ؛ ثم ارتفع السهمان مثل رقم «٨» وتسطحا ، ووقعا على الأرض . وما ان التقى السهمان الأولان حتى اطلق الرجلان سهمين آخرين تصادما في الهواء ثانية . وأطلقا على هذا النحو تسعة سهام حتى نفد ما في كنانة ئي . لكنه رأى فنغ منغ يحدق قبالته ، وفي قوسه سهم آخر مصوب الى عنقه .

ففكر ئي : « آه ! لقد تصورت أنه ذهب الى ساحل البحر ليصطاد السمك . ولكنه كان يتسكع هنا طوال هذا الوقت يقوم بحيل كهذه . فلااستغراب بما قالته العجوز . . . »

وفي طرفة عين تقوس القوس مثل بدر التم ، وصفر السهم في الهواء نحو ئي . ولعله قد أخطأ مرماه ، لأنه قد انغرس في فمه منحرفا عن عنقه . وانكفأ ئي مطعونا ووقع على الأرض ووقف فرسه بلا حراك .

عندما رأى فنغ منغ أن ئي قد مات خطا ببطء نحوه . وابتسم

كأنه يشرب نخب انتصاره ، وحملق في وجه الجثة .

وحدق طويلا باستغراب حين فتح ثي عينيه ، ونهض جالساً .

وبصق السهم وضحك : « أنت تحاول ولا تحظى بشيء مئة مرة أو أكثر . ألا تعرف مهارتي في " عض السهم " ؟ ان ذلك لا ينفعك أبداً . ان حيلك هذه لا تنطلي . أنت لا تستطيع ان تقتل معلمك للملاكمة بضربات تعلمتها منه . ينبغي ان تبتكر شيئا خاصا بك . »

فتمتم المنتصر : « أنا ادفع اليك من عملك ليس غير . . . »

ووقف ثي وهدر ضاحكا : « أنت دائما تستشهد بقول مأثور . ولكنك بهذه الطريقة لا تؤثر الا في نفس امرأة عجوز . وليس في وسعك أن تحتال علي . فأنا دائما مثابر على الصيد لا أميل أبدا الى أن أكون قاطع طريق مثلك . . . »

ونظر الى الدجاجة في جعبته ، وارتاح لأنها لم تسحق . وقفز الى سرجه ، وسار .

« اللعنة عليك ! . . . » كان السباب ينهال من خلفه .

« لم أفكر قط انه سينحدر الى هذا المهوى . . . فتى مثله . ومع ذلك فقد تعلم أن يسب . فلا غرابة أن تخدع تلك العجوز . »

وهز ثي رأسه بحزن بينا هوسائر .

— ٣ —

هبط الليل قبل ان يصل الى نهاية حقول الذرة . ولألأت

النجوم في السماء . وتألق نجم السماء في الغرب تألقا غير عادي .

وسار الفرس في طريقه في الخطوط البيضاء بين الحقول ، متباطئا في مشيه لأنه منهك . ومن حسن الحظ أن القمر عند الأفق اخذ يريق ضوءه الفضي .

وسمع ئي بطنه يقرقر ، فنفد صبره : « سفالة ! كلما أجهد نفسي أكثر في كسب الرزق ألقى مزعجات أكثر ، مضيعة وقتي . » وضغط بركبتيه على خاصرتي الفرس ليحثه على المسير ، ولكن الحيوان أرعش ردفه ، وتهادى أبطأ من ذي قبل .

وفكر : « لا بد من أن تشانغ غو ستغضب . فان الوقت متأخر . ولعل ثائرتها ستثور . وحمدا للسماء على أن لدي دجاجة تفرحها . سأقول لها : مدام لقد قطعت أكثر من مئة ميل ذهابا وعودة لأجد لك هذه . لا ، لا يصح هذا ! انه يبدو تبجحا شديدا . »

وكف عن القلق وفرح برؤية الاضواء امامه . وخب الفرس خببا دون أن يهمزه . وكان يضيء الدرب بدر مستدير ابيض كالثلج وترطب خديه نسمة باردة — ان ذلك أحسن من العودة من صيد كبير !

وتوقف الفرس بفطرته عند كومة التراب وذهل ئي اذ رأى كل شيء في فوضى . وخف تشاوفو وحده للقياه .

فقال ئي في دهشة شديدة : « ما الذي جرى ؟ اين وانغ شنغ ؟ »

« ذهب وانغ الى عائلة ياو ليبحث عن السيدة . »

« ماذا ؟ هل ذهبت سيدتك الى عائلة ياو ؟ » سأل ئي وهو جالس ببلادة على سرجه .

« نعم ، ياسيدي . » قال ذلك تشاو وهو يتناول العنان والسوط.

وترجل ئي ، وعبر العتبة . وبعد لحظة من التفكير التفت ليسأل :

« هل أنت متأكد من أنها لم تتعب من الانتظار فذهبت الى مطعم ؟ »

« لا ، يا سيدي . لقد سألت عنها في جميع المطاعم الثلاثة. لم تكن هناك . »

وأطرق ئي برأسه ليفكر وهو يسير الى داخل البيت . ووقفت الوصيفات الثلاث مضطربات امام القاعة . فسأل مندهشا بصوت عال :

« ماذا ؟ جميعكن هنا . ان سيدتكن لم تذهب قط الى عائلة ياو وحدها ؟ »

ونظرن اليه بصمت ، ثم نزعن عنه جراب قوسه وكنانته ، والجعبة الموضوعة فيها الدجاجة . وفجأة استولى الرعب عليه . ماذا لو كانت تشانغ غو قد قتلت نفسها في ساعة غضب ؟ وأرسل نو كنغ الى تشاو فو لتخبره بأن يفتش البركة في الفناء الخلفي ، والاشجار . الاأنه ما ان دخل الغرفة حتى عرف أن ظنه كان خاطئا . فقد كانت الغرفة في فوضى عظيمة ؛ فان صناديق الملابس قد فتحت ، و في اللحظة التي نظر فيها الى الجانب الآخر من الفراش ادرك أن علبة الجواهر مفقودة . وشعر كأنه قد غطس في

ماء بارد . وبالطبع لم يكن الذهب واللآلىء شيئا يذكر . ولكن الاكسير الذي اعطاه له الراهن كان موضوعا في علبة الجواهر .

وبعد أن دار مرتين لاحظ وانغ شنغ عند الباب .

وأعلن وانغ شنغ : « سيدي . ان سيدتنا ليست عند عائلة ياو . فانهم لا يلعبون الماهجونغ اليوم . »

ونظر اليه ثي ولم يقل شيئا . وانسحب وانغ شنغ .

وسأل تشاو فو وهو يدخل : « هل ناديتني يا سيدي . »

فهز ثي رأسه ، وأشار اليه بالخروج .

ودار عدة دورات في الغرفة ، ومشى حتى نهاية القاعة وجلس . وحين رفع بصره كان بوسعه أن يرى على الحائط ، القوس المتقاطع والسهام ، والسيف والخنجر . وبعد ان فكر برهة سأل الوصيفات اللاتي كن واقفات كالخشب :

« متى اختفت سيدتكن ؟ »

قالت نو ثي : « حين جلبت المصباح لم تكن هي هناك . ولكن لم يرها احد وهي تخرج . »

« هل رأيتنّها تتناول الدواء من هذه العلبة ؟ »

« لا ، يا سيدي . ولكنها طلبت قليلا من الماء لتشربه بعد الظهر . »

ووقف ثي في فزع . فقد خامره الشك في أنه قد ترك وحيدا في هذه الارض .

فسأل : « هل رأيت اي شيء يطير الى السماء ؟ »

« أوه ! » هتفت نو شين فجأة بعد قليل من التفكير : « عندما

خرجت من الغرفة بعد اشعال المصباح رأيت ظلا اسود يطير على هذا النحو ؛ ولكنني لم أحلم قط بأنها سيدتي . . . » وشحب وجهها .

« لا بد من أنه حصل ! » وصفق ركبتيه وقفز . وفي طريقه الى الخارج التفت ليسأل نو شين : « أي طريق سلكت ؟ »

وأشارت نو شين بأصبع . وكل ما استطاع ان يراه وهو ينظر في ذلك الاتجاه هو القمر المستدير الابيض كالثلج متدليا من السماء ، بسرادقاته وأشجاره . وفي طفولته كانت جدته قد حكت له كم هو جميل قصر القمر . وهو ما يزال يتذكر وصفها بشكل مبهم . وحين كان يراقب القمر يطوف على بحر من الياقوت الازرق شعر بوعي غير اعتيادي لثقله هو .

وفجأة اعتراه الغضب ، وتحول هذا الغضب الى دافع للقتل . وبعينين واسعتين صاح بالخادمات :

« اجلبن لي القوس الذي رميت به الشمس ، وثلاثة سهام ! »

وجلبت نو ئي ونو كنغ قوسا هائلا من وسط القاعة ، ونفضتا عنه الغبار وناولتاه اياه مع ثلاثة سهام .

وأمسك القوس في يد ، والسهام الثلاثة في اليد الأخرى ، وركبها ثلاثتها في الوتر ، وسحب القوس الى آخره مصوبا اياه نحو القمر . ووقف ثابتا كالصخرة ، وعيناه تقدحان شررا ، وشعره المتطاير في الريح يشبه نارا سوداء . ولبرهة واحدة لاح مثل البطل الذي اصطاد الشمس منذ زمن طويل .

وسمع صفير — واحد فقط — عند ما انطلقت السهام

الثلاثة دفعة واحدة ، واحدا اثر الآخر ، أسرع من أن تراها عين أوتسمعها اذن . ولا بد أن السهام الثلاثة قد أصابت القمر في مكان واحد لأن أحدها سار اثر الآخر دون أن تفصل بينها شعرة . ولكن ، لكي يتأكد من تسديد الاصابة نوع هدفه قليلا لكي تصيب السهام الثلاثة أماكن ثلاثة مختلفة ، وتحدث ثلاثة جراح .

وصرخت الوصيفات . فقد رأين القمر يرتعش وفكرن أنه ساقط لا محالة – ولكنه ما زال معلقا هناك في امان مريقا ضوءاً هادئا ، بل كان اسطع من ذي قبل كأنما لم يصب بعطب ابداً .

ألقى ئي رأسه الى الوراء ليرشق السماء بسبة . وراقب وانتظر . غيران القمر لم يكترث لذلك . وخطا ثلاث خطوات الى الامام ، وتراجع القمر ثلاث خطوات الى الخلف . وخطا ثلاث خطوات نحو الخلف فتقدم القمر ثلاث خطوات الى الامام ثانية .

ونظر أحدهما الآخر في صمت .

إستند ئي بفتور الى باب القاعة ، ثم دخل البيت . وتبعته الوصيفات .

وجلس واطلق زفرة : « أجل ، ان سيدتكن ستكون سعيدة وحيدة الى الابد . كيف طاوعها قلبها على تركي والطيران الى هناك وحدها ؟ هل احست بأنني عجوز جدا ؟ ولكنها في الشهر الماضي فقط كانت تقول : انك لست عجوزا ومن الضعف العقلي أن تفكر بأنك عجوز ك . . . »

قالت نو ئي : « لا يمكن ان يكون هذا هو السبب . فان

بعض الناس ما زالوا يصفونك بالمحارب ياسيدي . »

وقالت نو شين : « وفي بعض الاحيان تبدو كمتفنن حقا.»

« أي هراء هذا ! ولكن الحيقيقة أن مرق الغراب ذاك والمعكرونة كانت غير قابلة للاكل أبدا . . . ولا يمكن ان ألومها على أنها لا تستطيع ان تضعها في معدتها . . . »

قالت نو شين : « سأقطع قطعة من ساق النمر الارقط المواجهة للجدار لأرقع ما بلي من سطحه . فانه يلوح غير جميل . » ودخلت .

وقال ئي : «انتظري لحظة . » وتابع قوله بعد قليل من التفكير : « لا عجلة في ذلك ، أنا جائع . فكوني حاذقة واطبخي لي طبقا من الدجاج مع الفلفل الأحمر . واخبزي خمسة أرطال من الكعك . وسآوي الى الفراش ، ففي الغد سأذهب لأفتش عن ذلك الراهن واطلب منه اكسيرا آخر لأتبعها . قولي يا نو كنغ لوانغ شنغ ليقدم الى فرسي اربعة مكاييل من الفول . »

كانون الاول ١٩٢٦

صانع السيوف

— ١ —

ماان استلقى مي تشين شين (١) لينام الى جانب أمه حتى اثارت اعصابه فئران خرجت تقرض الغطاء الخشبي للقدر . وصفر صفيرا خافتا كان له في البداية بعض التأثير ، ولكن الفئران بعد ذلك تجاهلته تماما قاضمة قارضة بحريتها . ولم يجرؤ على ان يحدث صوتا اصخب ليطردها مخافة ان يوقظ أمه التي اتعبت نفسها كثيرا خلال النهار فغطت في النوم ما ان مس رأسها الوسادة.

وبعد وقت طويل هدأت الأمور . وكان على وشك ان ينام

(١) ان قصة انتقام مي تشين شين لابيه من الملك تشو قد سجلت منذ عهد الربيع والخريف سنة (٧٢٢ – ٤٣١ ق م) .

حين سمع رشاشا بغتة فحمله على فتح عينيه . وفي نفس الوقت سمع تخديش مخالب على الاواني الفخارية .

وفكر : « أوه ، يا للشيطان ! » . وجلس فرحا .

ونزل من سريره ، وتلمس طريقه على ضوء القمر الى خلف الباب باحثا عن عود ثقاب ، وأشعل شظية من خشب الصنوبر ، وأضاء حوض الماء . بالتأكيد ان فأرا كبيرا قد وقع . ولكن لما لم يكن ماء كثير فلم يستطع ان يخرج فكاد يدور محوما ، حاكا جانب الحوض .

« الق جزاءك ! » . وحين فكر بأن هذه هي المخلوقات التي تقضم الاثاث كل ليلة ، وتوقظه بضوضائها شعر بسرور شديد . وغرس شعلة النار في ثقب صغير في الحائط الطيني ليستمتع بالمنظر : ولكنه في الحال استبشع عيني الفأر الصغيرتين اللتين تشبهان خرزتين وتناول قصبة جافة . ودفعه تحت الماء . وبعد وقت قصير رفع القصبة ، ومضى الفأر العائم يدور ويحك جانب الحوض ثانية . الا انه كان يتشبث بأقل قوة من ذي قبل ، وكانت عيناه تحت الماء . كان يرى ارنبة انفه المدبب الصغير الاحمر تتنشق بيأس .

وكان مي تشين شين في الآونة الاخيرة يشعر بقدر كبير من الكراهية لذوي الانوف الحمراء . ومع ذلك فقد لاح له الآن هذا الأنف المدبب الصغير الاحمر شجيا جدا فتناول القصبة ثانية ، وحشرها تحت بطن الفأر . وامسك الفأر بها ، وبعد ان استرد انفاسه تسلق عليها . وحين لاح جسم الحيوان كله — الفروة السوداء المبللة ،

والبطن المنتفخ ، والذيل الشبيه بالدودة ، بدا له منفرا كريها مرة أخرى ، فنفض القصبة في عجالة ، وسقط الفأر في الحوض ثانية في رشاش من الماء . وضربه بالقصبة على رأسه عدة مرات ليغرقه .

ونفدت ستة مشاعل من شظايا الصنوبر . وهناك فقط كف الفأر عن الحركة فكان يعوم غائصا في وسط الحوض ، وبين آونة واخرى يجاهد قليلا نحو سطح الماء . وتملكت مي تشين شين الرأفة مرة أخرى فكسر القصبة الى نصفين ، وبصعوبة كبيرة أخرج الحيوان ووضعه على الأرض . وفي البداية لم يتحرك الفأر . ثم استنشق نفسا ، وبعد وقت طويل ارتعصت قوائمه الأربع ، وانقلب كأنما يريد ان ينهض وينطلق . وانزعج مي تشين شين لذلك مرتعبا ، وأنزل على الفأر قدمه اليسرى بقوة . فخرج صوت انفاس متقطعة وحين جلس القرفصاء لاحظ كأن على جانب فم الفأر دما طريا ومن المظنون انه مات .

وشعر بأسف عليه شديد مرة أخرى ، وبالتعاسة وكأنما اقترف جرما حقيقيا . وظل جالسا القرفصاء يحدق بالفأر غير قادر على ان ينهض .

واذذاك استيقظت امه ، وسألت وهي في فراشها :

« ماذا تفعل يا ولدي ؟ »

« فأر . . . » نهض بعجالة ، والتفت مجيبا باختصار .

« فأر ، نعم ، انا اعرف . ولكن ماذا تفعل تقتله ام تنقذه ؟ »

ولم يجد جوابا . واحترقت الشعلة . ووقف في الظلمة صامتا ،

محدقا الى ضوء القمر الشاحب .

وزفرت أمه زفرة .

« بعد منتصف الليل ستبلغ السادسة عشرة ولكنك مازلت ناعما جدا . لم تتغير قط . ويبدوان اباك ليس له من يثأر له . »

وكانت أمه وهي جالسة في ضوء القمر الرمادي تبدو مرتجفة كليا ، وكان في صوتها الخفيض أسى غير متناه جعله يرتجف . وفي اللحظة التالية شعر بالدم الحار يجري مسرعا في بدنه كله .

« الثأر لأبي ؟ أيحتاج أبي الى ثأر ؟ » قال في دهشة وهو يخطو الى الامام .

« نعم ، عليك ان تأخذ بثأره . لقد اردت ان أخبرك منذ زمن طويل ، ولكنك كنت صغيرا جدا ، فلم اخبرك بشيء . والآن لم تعد طفلا غريرا ، ومع ذلك فأنت تتصرف تصرف الطفل الغرير . وأنا لا أعرف ماذا أفعل . كيف في وسع صبي مثلك ان ينهض بعمل رجل حقيقي ؟ »

« في وسعي . خبريني يا اماه ! سأغير تصرفي . . . »

« بالطبع ، في وسعي ان أخبرك فقط . وقبل كل شيء غير تصرفك . . . حسنا ، تعال . »

ومشى اليها . وكانت أمه جالسة على السرير جامدة . وعيناها تومضان في ضوء القمر الابيض الوهاج .

قالت بحزن : « اصغ الي ! ان أباك كان مشهورا بصنع السيوف — فقد كان احسن حداد في الدنيا ، وقد بعت كل أدواته لئلا تموت جوعا . فلم يبق لك شيء منها لتراه . ولكنه كان احسن

صانع سيوف في العالم كله . وقبل عشرين عاما ولدت محظية الملك قطعة من الحديد. وقد قيل حبلت بعد ان احتضنت عمودا حديديا . وكانت قطعة الحديد التي وضعتها حديدا نقيا شفافا . وادرك الملك ان ذلك كنز نادر ، وقرر ان يصنع منها سيفاً يستطيع به ان يذود عن حياض مملكته ، ويجندل اعداءه ، ويصون نفسه . ومن سوء الحظ ان اباك قد اختير لهذه المهمة ، وجاء بقطعة الحديد الى البيت . وظل يسقيها ليل نهار طوال اعوام ثلاثة حتى صنع منها سيفين .

« وفي اليوم الذي فتح فيه كوره لآخر مرة ظهر اكثر الاشياء رعبا ! وانطلق في الهواء عمود من البخار الابيض ، وزلزلت الأرض زلزالها . وتحول البخار الابيض الى غيمة بيضاء غطت هذه البقعة ، ثم تحولت شيئا فشيئا الى حمرة قانية القت على كل شيء نورا ورديا . وكان في كورنا الأسود الفاحم سيفان احمران متوهجان. وحين رش أبوك عليهما ببطء ماء البئر الصافي هس السيفان ونفثا ، وأخذا يزرقان بالتدريج ، ثم بعد ان استمر ذلك سبعة أيام وسبع ليال اختفى السيفان . واذا امعنت النظر فقط تستطيع ان ترى أنهما مايزالان في الكور نقيين شفافين . مثل ماء قد تجمد صافيا .

« وشعت من عيني أبيك نظرة فرح عميم . وتناول السيفين وطرقهما مرة بعد أخرى . ثم ظهرت خطوط الحزن على جبينه ، وجانبي فمه . ووضع السيفين في غمدين .

« قال لي بخفوت : " ما عليك الا ان تنظري الى النذر التي

ظهرت في الايام القليلة الماضية لتدركي ان كل الناس عرفوا ان السيفين قد صنعا . وفي غد علي ان اذهب لأقدم احد السيفين الى الملك . ولكن اليوم الذي سأقدمه فيه اليه سيكون آخر أيام حياتي . وانني لأخشى ان لا نلتقي بعد هذا ابدا . "

« وتملكني الرعب ، ولم اكن على يقين مما قصد اليه ، ولم أعرف ما اقول . فكل ما استطعت ان أتمتم به هو " لقد انجزت هذا العمل على نحو رائع . . . "

« فصاح : " آه ! انت لا تفهمين . ان الملك دائما كثير الريبة والقسوة . والآن صنعت له سيفا لم ير له نظيرا قط : وانا على يقين من انه سيقتلني حتى لا اصنع سيفا آخر على غراره لغيره فيناظره او يفوق عليه ."

« وذرفت الدمع .

« قال : " ينبغي ان لا تحزني . فلا مفر من ذلك . والدمع لا يمحو القضاء . لقد اعددت لذلك منذ زمن طويل " ، ولاحت عيناه تقدحان شررا وهو يضع على ركبتي احد السيفين ، بعد ان ادخله في غمده . وقال لي : "هذا احد السيفين فاحفظيه ففي غد سآخذ صنوه لأقدمه الى الملك . فاذا لم أعد فاعرفي انني قد هلكت ، انك حامل منذ اربعة او خمسة أشهر ، فلا تحزني ، وربي طفلنا تربية طيبة حتى يكبر ثم أعطيه السيف ، وقولي له بأن يقطع رأس الملك به ليأخذ بثأري ! " »

فسأل الصبي بعجالة : « هل عاد ابي في ذلك اليوم ؟ »

فأجابت بهدوء : « لم يعد ! وسألت عنه في كل مكان ، وما

من خبر عنه . وبعد ذلك قال لي احد الناس ان اول دم تلطخ به السيف الذي صنعه أبوك هو دم ابيك نفسه . وخوفا من ان تسكن روحه القصر دفنوا بدنه امام الباب الامامي ، ورأسه في الحديقة الخلفية . »

وبدا جسم مي تشين شين كله كأنه يحترق بنار قاسية . واحس كأن الشرر يخرج من كل شعرة في رأسه . وشد قبضتيه في الظلام حتى قرقعت الانامل .

ونهضت امه ، وأزاحت اللوح في رأس السرير ، ثم اشعلت مشعلة ، وتناولت فأسا من خلف الباب واعطتها الى ابنها قائلة : « احفر ! »

وكان قلب الصبي يخفق ، ولكنه حفر بهدوء وبعد بضع ضربات ظهر تراب بني من الحفرة فأخرجه حتى وصل الى عمق اكثر من خمسة اقدام ، وهناك تغير لون التراب وكأن فيه بعض الخشب المتهرئ .

وصاحت أمه : « انظر ! كن على حذر الآن ! »

وانحنى مي تشين شين على الحفرة التي حفرها ومد فيها يده . وأزاح الخشبة المتهرئة بحذر شديد حتى مس طرف أصبعه شيئا باردا كالثلج ، وظهر السيف النقي الشفاف . وعرف مكان مقبض السيف فأمسك به وأخرجه .

وفجأة لاح البدر والنجوم خارج النافذة ، وشعلة الصنوبر داخل الغرفة تفقد لمعانها ، ولاح العالم يغمره نور فولاذي . وانحل السيف في ذلك النور الفولاذي واختفى في الظاهر . ولكن

— ٢ —

عندما جاز مي تشين شين عتبة البيت دون ان ينظر خلفه لم يكن قد طلع في المشرق أي نور بعد . وكانت عيناه منتفختين ، وقد ارتدى المعطف الازرق وتقلد السيف وراءه ، ومشى وئيد الخطى باتجاه المدينة . وكان هواء الليل ما يزال يخفي الندى العالق باطراف الاوراق في غابة الصنوبر . غير انه حين وصل الى الطرف الآخر من الغابة كانت قطرات الندى تتألق متلألئة ، والفجر قد بزغ . ومن بعيد كان في وسعه ان يلمح معالم اسوار المدينة الرمادية القاتمة ذات الفوهات .

واختلط مع بائعي الخضر المتجولين ودخل باب المدينة ، ورأى الشوارع تعج بالضجيج والحركة . وكان الرجال يقفون كسالى زرافات زرافات ، بينما تطل النساء بين آونة واخرى من ابوابهن . وكانت عيونهن في الغالب مازالت منتفخة من اثر النوم ، وشعورهن لم تمشط ووجوههن شاحبة اذ لم يكن لهن وقت لطلائها بالمساحيق .

وأحس مي تشين شين ان شيئا كبيرا يوشك ان يحدث ، شيئا ، ينتظره كل اولئك الناس بتلهف وصبر .

وحين تقدم مرق طفل وكاد يندق في رأس السيف الموضوع وراءه . وتصبب عرقاً باردا . ثم اتجه شمالا غير بعيد عن القصر ، ورأى الناس يحتشدون متزاحمين يشرئبون الى اتجاه الطريق . وكان يصل الى الاسماع من بين الحشد صياح النسوة والاطفال . وخشي ان يصيب سيفه غير المنظور احدا بأذى فلم يجرؤ على ان يشق

طريقه بين الناس ، غير ان الناس كانوا يضغطون من الخلف . وكان عليه ان يتنحى عن طريقهم حتى وصلت به الحال الى انه لم يكن في ميسوره ان يرى غير ظهور الناس امامه وهم مشرئبو الاعناق .

وبغتة ركع الناس الذين كانوا امامه واحدا بعد آخر . ومن بعيد كان بوسعه ان يرى فارسين يرقلان بفرسيهما جنبا الى جنب . وتبعهما محاربون يحملون القسي والرماح والسيوف والأقواس والاعلام ، وخلفهم سحابة من الغبار . وبعدهم جاءت عربة كبيرة تجرها اربعة جياد جلس فيها جوق يدق بالنواقيس والطبول وينفخ بآلات موسيقية غريبة . وخلف هذه العربة عربات لنقل الندماء بثيابهم الزاهية شيوخا وفتيانا قصارا مكترين ، ووجوههم يلمع فيها العرق . وتبع ذلك كوكبة من الفرسان حاملي السيوف والرماح والمطارد . ثم سجد الناس بعد ركوعهم . ورأى مي تشين شين عربة كبيرة عليها ظلة صفراء ، يجلس في وسطها رجل سمين في ثياب زاهية . وكانت له لحية بيضاء ، ورأس صغير ، وبدا انه يتقلد في جانبه سيفا شبيها بذلك الذي يتقلده مي وراءه .

واعترت الصبي رعشة غريزية ، ولكنه اضطرم على الفور كأن ألسنة من اللهب تحرقه . ومد يده ليمسك السيف الموضوع وراءه ، وشق طريقه بين رقاب الناس الراكعين .

ولكنه ما ان خطا خطوات اربعا او ستا حتى اوقعه أحد الناس ارضا فانطرح فوق فتى له وجه ذابل . وخاف ان يصيبه طرف السيف بأذى وهم ان يقف ثائر الاعصاب ليرى ، حين عاجلته

لكمتان على الضلوع . ودون ان يتوقف ليحتج نظر ثانية الى الطريق . وكانت العربة ذات الظلة الصفراء قد مرت . وليس هذا فحسب ، بل ان الخدم الممتطين خيولا خلفها كانوا على مسافة بعيدة منه ايضا .

ونهض الناس على جانبي الطريق ثانية ، وظل الفتى ذو الوجه الذابل يمسك بتلابيب مي تشين شين ولا يدعه يمضي . واتهمه بأنه حطم ضفيرته الشمسية (١) وامره بان يعطيه ضمانا بدفع تعويض له اذا مات وهو دون الثمانين . وتجمهر المتبطلون ليشاهدوا ، ولكن لم ينبس احدهم ببنت شفة ، ثم ان قليلا من المارة ارسلوا بعض النكت واللعنات منحازين الى جانب الفتى ذي الوجه الذابل . ولم يعرف مي تشين شين وهو يواجه مثل هؤلاء ، أيضحك ام يغتاظ . لقد كان شيئا مضايقا ، ومع ذلك لم يستطع التخلص منه . وقد استغرق ذلك زمنا يكفي لطبخ كعكة من الدخن. واذذاك عيل صبر مي تشين شين والتهب ، ومع ذلك فان المشاهدين لم ينصرفوا ، بل ظلوا يتطلعون بشغف اشد من ذي قبل .

ثم شق رجل اسمر طريقه بين جمهرة الناس وكانت له لحية سوداء ، وكان نحيفا كقصبة المجرفة . وابتسم لمي تشين شين ببرود دون ان ينطق بكلمة ، رافعا يده ليضرب فك الفتى ذي الوجه الذابل ، وينظر الى عينيه بثبات . وخفض الفتى بصره برهة ، ثم

---

(١) كان التاويون يعتقدون بان الضفيرة الشمسية اكثر اجزاء الجسم حيوية .

فك تلابيب الصبي ببطء . وتفرق الجمع متذمرين . ولم يتقدم غير نفر من الناس يسألون مي تشين شين عن عمره وعنوان مقره وهل له اخوات في البيت ، غير ان مي تشين شين تجاهلهم .

ومشى صوب الجنوب مفكراً في نفسه : مادام الضجيج والحركة في المدينة على اشدها فمن السهل ان يجرح احد الناس عرضا ، فمن الخير الذهاب خارج باب الجنوب وانتظار عودة الملك ، ثم الانتقام لأبيه . هناك كان ثمة خلاء واسع ، واناس غير كثيرين والحق انه احسن مكان صالح لبغيته . وفي ذلك الوقت كان المواطنون يتناقشون في رحلة الملك الى الجبال وفي حاشية جلالته ، وأي شرف لهم في رؤية الملك ، وكم طأطأ بعضهم الهامات في السجود له ، وكيف ينبغي ان يعتبروا قدوة للمواطنين . وكانوا يطنون طنين النحل . وبالقرب من باب الجنوب فقط كانت الاشياء اهدأ .

ومشى خارج المدينة ، وجلس تحت شجرة توت ضخمة حيث أكل قرصين من الخبز المبخر وبينما هو يأكل فكر بأمه ، واحس بشجا في حلقومه ، ولكن ذلك مر على الفور . وهدأ ما حوله اكثر فأكثر حتى استطاع ان يسمع تردد انفاسه بوضوح تام.

وجاء الغسق ، واخذ القلق يشتد به شيئا فشيئا ومد بصره امامه ، ولكن لم يستطع ان يرى اي اثر للملك ، والقرويون الذين كانوا في الصباح قد جاءوا الى المدينة ليبيعوا خضرهم قد أخذوا يعودون الى بيوتهم واحدا اثر الآخر وسلالهم فارغة .

وبعد مرور اولئك الفلاحين جميعا بوقت طويل جاء الرجل

الأسمر من المدينة مسرعا .

وقال : « اجر ! ان الملك في اثرك يا مي تشين شين . » وكان صوته مثل نعيب البومة .

وارتجف مي تشين شين من قمة رأسه الى أخمصيه . ثم تبع الرجل وكأنه مسحور وعلى الفور اخذا يجريان بأقصى سرعتهما . ثم توقف ليسترد انفاسه برهة قبل ان يدرك انهما قد وصلا الى طرف غابة الصنوبر . ومن بعيد كان القمر خلفهما يرتفع ناشرا اشعته الفضية . وبعد أن تقدما الى الامام كان كل ما تمكن الصبي من رؤيته أن رأى عيني الرجل الاسمر تتوهجان مثل غاز المستنقعات .

وسأل الصبي في خوف ودهشة : « كيف عرفتني ؟ . . . »

فأجاب الرجل ضاحكا : « انا اعرفك دائما . واعرف انك تحمل سيفا وراءك لتثأر لأبيك . واعرف انك ستخيب . وليس فقط انك ستخيب في الانتقام له بل ان احد الناس وشى بك اليوم . وقد عاد عدوك الى القصر منذ زمن طويل من الباب الشرقي ، واصدر امرا بالقبض عليك . »

واخذ مي تشين شين يشعر بالتعاسة .

فتمتم : « اوه ، فلا غرابة حين كانت امي تتحسر . . . »

« ولكنها لا تعرف غير نصف الأمر . فهي لا تعرف انني انا الذي سأثأر لك . »

« أنت ؟ هل ستثأر لي يا سيدي الفارس ؟ »

« آه . لا تهني بأن تدعوني هكذا . »

« أجل . . . ، أ تفعل ذلك لأنك تعطف على الارامل واليتامى؟»

فقال بعبوس : « لا تستعمل اسماء ملوثة ايها الطفل. ان الفروسية وماشاكلها كانت نظيفة من قبل . اما الآن فقد اصبحت رأس مال المرابين ، وانا لا اعطي لهذه الأشياء اية قيمة . انا لا اريد غير الثأر لك ! »

« أجل . . ! ولكن كيف ستفعل ذلك ؟ »

« لا أريد منك غير شيئين . » وكان الصوت يخرج من تحت العينين الملتهبتين : « وأي شيئين ؟ سأقول لك . احدهما سيفك ، والآخر رأسك ! »

ورغم ان مي تشين شين رأى ان الطالب غريب ، وتردد فيه ، الا انه لم يخف . غير انه ظل صامتا برهة .

« لا تخش . . . انني لا اريد الاحتيال على حياتك ، وعلى كنزك . » وكان الصوت يبدو جهوما في الظلام : « فان ذلك عائد اليك كله . فاذا وثقت بي فسأذهب لأقتل الملك ، فاذا لم تثق ، لا أذهب . »

« ولكن لماذا تريد الثأر لي ؟ هل كنت تعرف أبي ؟ »

« كنت اعرف اباك ، مثلما اعرفك . ولكن ذلك ليس السبب في انني اريد الانتقام . انت لا تفهمني ، يا ولدي ، كم انا حسن في طلب الثأر . وما يضيمك يضيمني ، وما يهم الآخرين يهمني . انني لأحمل في نفسي جراحات كثيرة اوقعتها انا بنفسي ، او اوقعها بي الآخرون حتى كرهت نفسي . »

وما ان توقف الصوت في الظلام حتى رفع مي تشين شين رأسه ليمسك السيف الأزرق في ظهره ، وفي نفس الحركة هزه على

قفا رقبته حتى سقط رأسه على الطحلب الاخضر عند قدميه بينما اعطى السيف للرجل الاسمر .

« آه ! » وتناول السيف بيد ، وباليد الأخرى رفع رأس مي تشين شين من شعره . وقبل الشفتين الدافئتين الميتتين مرتين ، وارسل ضحكة باردة صارخة .

وفي الحال انتشرت ضحكته خلال غابة الصنوبر وعلى الفور لمعت عيون وهاجة عميقا في الغابة ، وفي لحظة واحدة دنت حتى لفي وسعك ان تسمع زفير الذئاب الجائعة . ومزقت ثياب مي تشين شين في نهشة واحدة ، تمزيقا تاما ، وفي نهشة اخرى اختفى جسمه كله ، ولعق الدم حالا ، ولم يسمع غير صوت العظام تتكسر تحت الاسنان .

وألقى الذئب الهائل ، وهو على رأس قطيع من الذئاب ، بنفسه على الرجل الأسمر ، غير ان رأسه قد وقع على الطحلب الأخضر عند قدميه بضربة من الحسام الازرق . ومزقت الذئاب الأخرى جلده في نهشة واحدة ، وفي الاخرى اختفى جسمه كله ولعق الدم في الحال ، ولم يسمع غير صوت العظام تتكسر تحت الاسنان .

وتناول الرجل الأسمر المعطف الازرق من الأرض فلف به رأس مي تشين شين ، وربطه مع السيف الازرق على ظهره ، ثم ادار عقبيه ، وانطلق خلال الغابة قاصدا العاصمة .

ووقفت الذئاب جامدة محدودبة الظهور ، متدلية الالسن ، لاهثة الانفاس ، تراقب الرجل بعيون خضر وهو يبتعد عنها .

واندفع خلال الظلام نحو العاصمة يغني بصوت راعش :

غن غن ، غن غن !
غن من احب السيف
كوفيء بالموت
اما الفرادى فكثيرون
ومن احب السيف فليس له ذكر
سن بسن ، وعدو بعدو .
رجلان ماتا ، وبيديهما قتلا .

— ٣ —

لم يستطع الملك ان يستمتع برحلته الى الجبال ، وزاد من أساه الخبر الذي ورد عن وجود مؤامرة لاغتياله . وكان في حالة نفسية سيئة في تلك الليلة ، وشكا حتى من شعر المحظية التاسعة فانه لم يكن يراه بعينيه اسود لامعا كما كان قبل يوم . ومن حسن الحظ انها حطت نفسها على ركبته الملكية بحنان ، وتلوّت خصيصى أكثر من سبعين مرة حتى تلاشت الخطوط على جبينه بالتدريج .

وحين استيقظ الملك في اليوم التالي عند الظهر كان ايضا في مزاج كدر قليلا . وعند الغداء كان في فورة غضب .

صاح وهو يتثاءب فاغر الفم : « لقد ضجرت . »

لقد فزع لذلك رجال البلاط من الملكة الى مضحك الملك . وكان قد تعب الملك منذ زمن طويل من مواعظ الوزراء العجائز ، ومن تهريج اقزامه المكتزين ، وفي الآونة الاخيرة كان يجد الحيل

العجيبة كالسير على الحبال ، وتسلق الاعمدة ، والشعوذة ، والبهلوانية ، وابتلاع السيوف ، وبصق النار غثة تماما . وكان يتنزى غيظا فيسلت سيفه ، ويترصد اي خطأ تافه ليقتل قليلا من الناس .

وكان الخصيان اللذان انسلا من القصر خلسة ودون اذن قد عادا فوراً . وحين رأيا الحزن العام يخيم على البلاط عرفا ان مصيبة عظيمة تختمر مرة أخرى ، وشحب لون احدهما خوفا . غير ان الآخر ، على اية حال ، بدا في ثقة شديدة . ومشى غير متعجل للمثول بين يدي الملك . وهناك ركع له وقال :

« ان عبدكم قد التقى الآن برجل مدهش ذي براعة نادرة يستطيع تسلية جلالتكم وقد جئت ابلغ جلالتكم بهذا الخبر . »

« ماذا ؟ » وكان الملك نزر الكلام .

« هو رجل نحيل اسمر يبدو كشحاذ ، يلبس ثيابا زرقاء ، ويحمل صرة زرقاء على ظهره ، وهو لا يني يغني نتفا من الاغاني الغريبة التافهة . وسألت عما في وسعه ان يفعل فقال ان في وسعه ان يقوم بحيلة بارعة لم ير مثيل لها من قبل — وهي نسيج وحدها في العالم . وما من احد رأى اختا لها أبداً . ومشاهدتها ستضع حدا للغم ، وينشر السلام على الدنيا ولكن حين يسأله الناس ان يفعل هذه الحيلة يرفض . ويقول ينبغي ان يحصل اولا على تنين ذهبي وثانيا على قدر ذهبية كبيرة . »

« تنين ذهبي ؟ (١) هذا انا . وقدر ذهبية ؟ عندي واحد

(١) كان التنين في الصين الاقطاعية يرمز الى الملك .

منها . »

« ذلك ما فكر به عبدكم تماما . . . »

« أدخله الى هنا ! »

وقبل ان يتلاشى صوت الملك في الهواء خرج اربعة حراس مع الخصي مسرعين . واشرقت أسارير الجميع فرحا ، من الملكة الى مضحك الملك . وكلهم املوا بان يستطيع هذا الساحر ان يزيل الغم ، وينشر السلام على الدنيا . وحتى اذا لم يأت المشهد بثمرة فان ذلك الفتى الاسمر النحيل الشحاذ في هيئته سيتحمل صدمة الكدر الملكي . ولو انهم عاشوا الى أن يحضر لكان كل شيء بخير .

وسرعان ما رؤي ستة رجال يهرعون نحو العرش . وكان خصي في المقدمة ، والحراس الأربعة في المؤخرة ، وفي الوسط رجل اسمر . وحين اقتربوا تبين ان هذا الرجل كان يرتدي معطفا ازرق ، وكانت لحيته وحاجباه سوداء . وكان نحيفا جدا حتى ان عظمي وجنتيه بارزان ، وعينيه غائرتان . وحين ثنى ركبتيه باحترام ليسجد كان من الميسور رؤية صرة صغيرة مدورة على ظهره ملفوفة بقماش ازرق فيه رسم احمر قاتم .

صاح الملك بنفاد صبر : « حسنا ! » وكان متاع الفتى هذا بسيطا جدا فشك الملك في قدرته على ان يقوم بأية حيلة نادرة .

« ان اسم الطائع لكم هو ين تشي آو تشه من مواليد قرية ون ون . ولم أتعلم اية حرفة ، ولكن حين شببت التقيت بحكيم علمني السحر برأس صبي . ومع ذلك فليس في وسعي ان آتي السحر وحيدا . بل يجب أن اكون في حضرة تنين ذهبي ، كما

يجب ان يكون لي قدر ذهبية مملوءة بالماء الصافي ، ومسخن بالفحم ، ثم حين يوضع رأس الصبي في القدر ، ويغلي الماء فسيرتفع الرأس ويهبط ، ويرقص مختلف الرقصات كما يحدث اصواتا رائعة ايضا ، ويضحك ويغني ، وكل من يسمع غناءه ، ويراه يرقص سيشهد نهاية لغمه . واذا رآه الناس يسود السلام العالم طرا . »

فأمر الملك بصوت عال : « هيا ، تقدم ! »

وما هي الا دقائق حتى احضرت القدر الذهبية ، وهي من السعة بحيث تسع لساق ثور ، ووضع أمام العرش ، وملئت بالماء واشعل الفحم تحتها . ووقف الرجل الأسمر في جانبها . وحين رأى الفحم قد احمر انزل صرته عن ظهره ، وفكها ، ثم تناول رأس الصبي بكلتا يديه ، ورفعه عاليا . وكان له حاجبان جميلان ، وعينان لامعتان ، واسنان بيض ، وشفتان حمراوان ، وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة . وكان شعره المشبك مثل دخان خفيف لقد رفعه الرجل الاسمر عاليا ، ودار ليراه كل الحاضرين ، ثم امسك به فوق القدر وهو يتمتم بشيء ، وفي آخر الامر ألقاه فسقط في الماء مرسلا رشاشا . وارتفع الزبد خمس اقدام على الأقل . وبعد ذلك سكن كل شيء ثانية .

ومر وقت طويل دون ان يحدث شيء . واخذ صبر الملك ينفد ، واخذت الملكة والمحظيات والوزراء والخصيان يشعرون بالخوف ، بينما اخذ الاقزام المكتزون يستهزئون . وحين رأى الملك استهزاءهم احس بانه قد خدع . والتفت الى الحرس ينوي ان يأمر بان يرمى

هذا الابله الذي جسر على خداع الملك ، في القدر الكبيرة ويسلق حتى يموت .

وعلى اية حال سمع في تلك اللحظة بالذات صوت الماء وفرقع الفحم ايضا ، وألقى وهجا احمر على الرجل الأسمر فبدا مثل حديد قد رقت حمرته وما ان التفت الملك ثانية حتى رفع الرجل الاسمر كلتا يديه نحو السماء ، وحملق في الفضاء ، ورقص ، وفجأة اخذ يغني بصوت راعش .

غن الحب ، غن الحب
آه الحب ! ، آه الدم
الناس يتحسسون في الظلام ، والملك يقهقه
وعشرة آلاف رأس انحنت للموت .
وانا لا استعمل غير رأس واحد
لأن رأس انسان جعل الدم يراق
فليرق الدم !
غن ، غن ، غن !

وعندما كان يغني كان الماء في القدر يفور مرتفعا مثل جبل صغير ، بيد ان القدر من القمة حتى القعر ظلت تفيض وكان الرجل الاسمر يدور حولها طول الوقت . والرأس يعلو ويهبط مع الماء ، ويطوف على السطح ، ويغوص خفيف الحركة متقلبا ، والناس يستطيعون ان يلمحوا ابتسامة فرح على ثغره . وبعد قليل من الوقت كف عن ذلك ليسبح بعكس التيار دائرا متأرجحا ، مرسلا رشاش الماء في كل اتجاه حتى تناثرت قطرات الماء الحارة

على البلاط . واطلق احد الاقزام صرخة مباغتة ، وفرك انفه . فقد لدغته قطرة ، ولم يتمالك نفسه من الصراخ ألما .

وما ان كف الرجل الأسمر عن الغناء حتى توقف الرأس في وسط الماء مواجها العرش وارتسم على وجهه تعبير رصين . وبعد ان ظل هكذا ثواني معدودة ، اخذ يهتز مرة اخرى صاعدا هابطا ببطء ، ثم أسرع في اهتزازه فسبح صاعدا هابطا ، ليس بسرعة شديدة بل برشاقة تامة . وسبح مرات ثلاثا حول حافة الماء غاطسا صعودا وهبوطا ، ثم فتح عينيه الواسعتين ، وبدت الحدقتان السوداوان مثل اليشم الأسود براقتين على نحو غير مألوف ، حين فتح فمه ليغني :

سلطان الملك يمتد واسعا عريضا
ويقهر الأعداء في كل جهة .
والعالم قد ينتهي ، وجبروته لا ينتهي
وها انا هنا مضيء لامع
والسيف يضيء لماعا — فلا تنسني !
بصر ملكي ، ولكن حظي حزين .
غن غن ، بصر ملكي !
عد حيث يشرق نور ازرق لماع

وفجأة توقف الرأس على سطح الماء . وبعد ان انقلب عدة مرات اخذ يصعد ويهبط مرة اخرى ، متلفتا ذات اليمين وذات اليسار بسحر عظيم اذ غنى مرة أخرى :

غن من اجل الحب الذي نعرف !

انا اقطع رأسا واحدا
واستعمل رأسا واحدا ليس غير
والرؤوس التي يستعملها كثيرة . . .

وعند البيت الخامس غطس الرأس ، ولما لم يطلع ثانية لم يسمع غناؤه بوضوح . وحين خفت الغناء انحسر الماء الفائر مثل انحسار المد ، حتى صار تحت حافة القزان فلم يكن من الميسور ان يرى اي شيء من بعيد .

« وماذا بعد ؟ » سأل الملك بنفاد صبر بعد ان انتظر قليلا .

وقال الرجل الأسمر بعد ان ركع على ركبة واحدة : « انه يا صاحب الجلالة يرقص في قعر القدر اعجب رقص دائري . ولا يرى ذلك الا على مقربة منه . فليست عندي قوة على رفعه الى السطح ، لان الرقص الدائري يجب ان يرقص في قعر القدر . »

ونهض الملك ، ومشى هابطا الدرجات ليقف الى جانب القدر. ودون ان يعبأ بالحرارة انحنى ليعاين . وكان الماء مصقولا كالمرآة ، وكان الرأس مستقليا هناك ينظر الى فوق ، وعيناه مثبتتان بالملك . وحين حطت عينا الملك على وجهه ابتسم ابتسامة فاتنة . وقد جعلت هذه الابتسامة الملك يحس بانهما التقيا من قبل ولكنه لم يستطع في تلك اللحظة ان يتذكر من هو . واذ كان يفكر سلّ الرجل الأسمر السيف الازرق من ظهره وانزله كالبرق على قفا الملك ، فوقع رأس الملك في القدر مرسلا رشاشا .

وحين يلتقي عدوان يعرف احدهما الآخر بنظرة واحدة ولاسيما اذا كانا في مكانين متجاورين . فما ان مس رأس الملك الماء

حتى صعد رأس مي تشين شين للقياه ، ونهش نهشة من اذنه . وفي الحال غلى الماء في القزان ، واهتز بشدة ، واخذ الرأسان يتصارعان في الماء صراع الموت . وبعد زهاء عشرين جولة كان رأس الملك مجروحا في خمسة مواضع ، ورأس مي تشين شين في سبعة مواضع . وجاهد الملك الماكر لينسل خلف عدوه . وعلى حين غرة امسك مي تشين شين من قفاه فلم يستطع التفاتا . وصلك رأس الملك اسنانه عليه حتى لا يفلت وغرزها برأس الصبي اعمق فاعمق ، وكان من الممكن سماع صرخات الصبي من الألم حتى خارج القدر. وكان رجال القصر من الملكة فنازلا الى مضحك الملك قد جمد الرعب أوصالهم الا أن ذلك الصراخ أعاد لهم الحياة . وشعروا بالحزن وكأنما الشمس قد ابتلعها الظلام . واصابتهم القشعريرة جميعا ، ولكن ذلك اعقبه سرور دفين وهم يحدقون بعيون مستديرة وكأنما يتوقعون شيئا .

وبدا الرجل الاسمر كأنه صعق ايضا ، ولكن لونه لم يتغير . ودون جهد رفع ذراعه الشبيهة بغصن ذابل ، ممسكا بالسيف غير المنظور ، ومد جسمه الى الأمام كأنه يريد التحديق بالقدر . ومالت ذراعه فجأة ، وهبط السيف عليه من الخلف خطفا ، وسقط رأسه المبتور في القدر محدثا صوتا ، ومرسلا زبدا ابيض كالثلج تطاير شعاعا .

وما ان مس رأسه الماء حتى هجم على رأس الملك واخذ الأنف الملكي بين اسنانه بعد ان قطعه . وعندما ارسل الملك صيحة ألم ، وفتح فمه فاستطاع مي تشين شين الافلات منه وحام حوله ليطبق

عليه فكه اطباق الكماشة . ولم يكتفيا بان امسكا به بشدة ، بل سحباه بكل ما يملكان من قوة في اتجاهين متضادين ، شادين اياه حتى لم يستطع رأس الملك ان يطبق فمه بعد هذا . ثم طفقا ينهشانه بضراوة مثل دجاجتين جائعتين تلتقطان الرز حتى هرس رأس الملك هرسا تاما ، ونهش حتى لم يعد يعرف . وفي البداية كان ما يزال في وسعه ان يتدحرج بجنون في القدر ، وبعد ذلك رقد يئن ، وفي النهاية صمت ولفظ نفسه الاخير .

وبالتدريج كف رأس الرجل الاسمر ورأس مي تشين شين عن النهش تاركين رأس الملك ، وسبحا مرة حول حافة القدر ليريا أ كان يتظاهر بالموت ام مات حقا . وحين عرفا ان رأس الملك قد لفظ نفسه الأخير حقا تبادلا النظرات وابتسما ، ثم أغمضا عينيهما ، ونظرا نحو السماء ، وغرقا في قعر الماء .

— ٤ —

خمدت النار ، وكف الماء عن الغليان . واعاد الصمت غير الاعتيادي كل من كان في البلاط الى رشده . وارسل احدهم صيحة اندهاش . وفي الحال تنادوا في فزع . ثم مشى احدهم الى القدر الذهبية ، واندفع الآخرون خلفه . والذين تجمهروا في الخلف لم يستطيعوا ان يروا الا من بين اعناق الذين كانوا في الأمام .

وكانت الحرارة ما تزال تلفح وجوههم ، غير ان الماء في القدر كان مصقولا كالمرآة وعلى سطحه صفحة من الزيت عكست وجوههم كلها : الملكة ، والمحظيات والحرس ، والوزراء

العجائز ، والاقزام ، والخصيان . . .

« يا للسماء ! مازال ملكنا هناك ! فظيع ! فظيع ! » وانفجرت المحظية السادسة تبكي .

وتملكهم الذعر جميعا من الملكة فنازلا حتى مضحك الملك . وتفرقوا هالعين في ضوضاء وجلبة يدورون ويحومون . ومضى اعقل المستشارين الكبار وحده ومد يده ليمس جانب القدر ثم ارتعش بدنه كله ، وسحب يده في الحال ، ووضع اصبعيه في فمه لينفخ عليهما وينفخ .

وفي نهاية الأمر ملكوا زمام انفسهم ، فاجتمعوا خارج الباب ليبحثوا كيف يمكن اخراج الرأس من القدر . وتشاوروا زمنا طويلا يكفي لطبخ ثلاث كعكات من الدخن ، وفي نهاية الأمر توصلوا الى قرار وهو جمع المغارف السلكية من المطبخ الكبير ، والايعاز الى الحراس بان يبذلوا قصاراهم لاسترداد رأس الملك .

وسرعان ما اعدت الأدوات . خمس مغارف ومصافي ، وصحون ذهبية وضعت كلها الى جانب القدر . ثم شمر الحراس عن سواعدهم . وبعضهم امسك بالمغارف ، وبعضهم بالمصافي ، واخذوا باحترام ينتشلون رفات الملك . وكان من الميسور سماع صوت اصطدام المغارف واحدة بأخرى ، واحتكاكها في جانب القدر بينما كان الماء يدور خلفها . وبعد قليل ظهر الجد على وجه احد الحراس وهو يرفع بعناية شديدة مغرفته ببطء ، وبكلتا يديه . وتقطرت من المغرفة قطرات ماء كاللآلىء ، ولاحت في المغرفة جمجمة بيضاء كالثلج وصاح الجميع في دهشة ، ووضع الحارس

الجمجمة في صحن ذهبي .

« آه يا عزيزي ! مليكنا ! » وانفجرت الملكة والمحظيات والوزراء ، وحتى الخصيان في البكاء . ولكنهم توقفوا حالا لأن الحارس قد اخرج جمجمة اخرى تشبه الاولى تماما .

والتفتوا في بلادة ، وعيونهم مغرورقة بالدموع ورأوا الحراس المتصببين عرقا مازالوا يخرجون . فاخرجوا كتلة مشبكة من الشعر الابيض والشعر الاسود ، وملاعق مملوءة من الشعر القصير الذي بدا مثل لحى بيضاء ، ولحى سوداء . ثم جمجمة اخرى . ثم ثلاثة دبابيس شعر .

ولم يتوقفوا الا حين لم يبق في القدر غير حساء صاف ، ثم قسموا ما انتشلوه في صحون ذهبية ثلاثة صحن للجماجم ، وصحن للشعر ، وصحن لدبابيس الشعر .

وسألت المحظية التاسعة بجنون : « كان لمليكنا رأس واحد فقط . فأي رأس هو رأس الملك ؟ »

« تماما . . . »

وتبادل الوزراء النظرات في رعب .

وقال قزم وقد ثنى ركبة واحدة : « لو لم يذهب الجلد واللحم لكان من السهل معرفة ذلك . »

وارغموا انفسهم على فحص الجماجم دون تحيز ، غير ان اللون والحجم كانا متشابهين وهكذا لم يستطيعوا ان يعرفوا حتى رأس الصبي . وقالت الملكة ان للملك ندبة في صدغه الايمن نتيجة حادثة وقعت له ايام كان اميرا ، ولربما تركت أثرا في

الجمجمة . وبالتأكيد اكتشف الاقزام علامة كهذه في احدى الجماجم ، وعم الجميع سرور الى ان اكتشف قزم آخر علامة مماثلة في الصدغ الأيمن لجمجمة صفراء قليلا .

وصاحت المحظية الثالثة بفرح : « انا اعرف . لقد كان لمليكنا انف مرتفع جدا . »

واسرع الخصيان في فحص الأنوف ، ورأوا ان احد الأنوف أعلى نسبيا من الانفين الآخرين بالتأكيد رغم انه لم يكن هناك في الواقع فرق كبير بينهم ، ولكن اسوأ ما في الأمر ان تلك الجمجمة لم تكن لصدغها الأيمن علامة .

وقال الوزراء للخصيان : « وفضلا عن ذلك أ يمكن ان يكون قفا جمجمة مليكنا مدببا على هذا النحو ؟ »

« نحن لم نلتفت قط الى قفا رأس جلالته . . . »

وطفقت الملكة والمحظيات يتذكرن ثانية ، فبعضهن قال : مدبب وبعضهن قال : مسطح . وحين دعوا الخصي الذي كان يمشط الشعر الملكي وسألوه لم يستطع ان يقول شيئا .

وفي ذلك المساء عقدوا اجتماعا للأمراء والوزراء ليقرروا اي رأس من هذه الرؤوس الثلاثة هو رأس الملك ولكن حظهم في النجاح لم يكن أحسن من حظهم خلال النهار . وفي الحق حتى الشعر واللحى كانت تمثل مشكلة . وبالطبع كان الشعر الابيض هو شعر الملك . ولكن كان من الصعب جدا معرفة شعره الأسود . وظلوا يتناقشون الى نصف الليل تقريبا ، وما كادوا يضعون بعض الشعر الاحمر جانبا حتى احتجت المحظية التاسعة لأنها كانت

على يقين من انها رأت بعض الشعرات الصفر في لحية الملك . وفي هذه الحالة كيف يمكن ان يتيقنوا من ان اية شعرة حمراء لم تكن فيها ؟ وهكذا وضعوا الشعر كله مختلطا في اناء واحد ، وتركوا القضية غير مبتوت فيها .

وظلوا في اماكنهم في الساعات الأول من الصباح . ومددوا النقاش وسط التثاؤب حتى صاح الديك وعندئذ ظفروا بحل مرض ومعقول حقا . وهو ان يضعوا الرؤوس الثلاثة مجتمعة في التابوت الذهبي بجانب جثة الملك عند الدفن .

وتم تشييع الجثمان بعد اسبوع ، وكانت المدينة كلها في حركة واضطراب . وتوافد سكان العاصمة والناس من الديار البعيدة ليشاهدوا جنازة الملك . وما ان لاح نور الصباح حتى اكتظ الطريق بالرجال والنساء وبينهم موائد صفت عليها القرابين . وعند الضحى جرى الفرسان على خيولهم يفسحون الطرقات . وبعد ذلك بزمن قصير خرج موكب الأعلام والقسي والرماح والاقواس والمطارد وما شاكلها وتبعته اربع عربات محملات بالموسيقيين ثم ظهرت ظلة صفراء ترتفع وتهبط في الارض الوعرة واخذت تقترب بالتدريج ، حتى امكن رؤية عربة الموتى والتابوت الذهبي الذي رقدت فيه ثلاثة رؤوس وجسم واحد .

وركع الناس ، ولاحت بين الحشد موائد القرابين . وكان بعض رعايا الملك حانقين جدا ، وابتلعوا الدموع وهم يظنون ان روحي قاتلي الملك هذين لا بد من انهما يستمتعان بالقرابين الآن مع الملك سواسية ، ولكن لم يكن لهم في ذلك حيلة .

وجاءت بعد ذلك عربات الملكة ، والمحظيات . ونظر الناس اليهن ونظرن هن الى الناس دون ان يكففن عن العويل . وبعدهن جاء الوزراء والخصيان والاقزام . وكل هؤلاء قد اتخذوا هيئة الحزن ، الا ان الناس لم يلتفتوا اليهم . وكان موكبهم قد خرج عن كل مظهر من مظاهر النظام .

تشرين الاول ١٩٢٦

魯 迅 小 説 选
魯迅著
顧炳鑫等插图
*
外文出版社出版（北京）
1964年第一版
編号：（阿）10050—593
00320
10—A—415S